

UNIVERSAL
LIBRARY

OU
190860

UNIVERSAL
LIBRARY

تاريخ التمدن الاسلامى

وهو يبحث في نشوء الدولة الاسلامية
وتاريخ مصالحها الادارية والسياسية والجندية وبيان ثروتها
وتاريخ العلم والادب والتجارة والصناعة فيها
ونظام الحياة الاجتماعية وآدابها
والعادات والاخلاق الخ

— — — — —

تأليف

عمرى زبدان

منشء الهلال

— — — — —

الجزء الخامس

فى نظام الاجتماع وطبقات الناس والآداب الاجتماعية
والمعيشة العائلية وحضارة المملكة وآثار المدنية
وأبهة الدولة ومظاهر العظمة والفخامة

(الطبعة الثالثة)

مطبعة الهلال بشارع نوبار عمرة ٤ بمصر

سنة ١٩٢٢

مقدمة الطبعة الاولى

هذا الجزء الخايس من تاريخ التمدن الاسلامي وهو آخر أجزاء الكتاب فنحمد الله لاننا توفقنا الى اتمام هذا العمل الشاق مع ما يعتوره من العقبات ويفتقر اليه من اعمال الفكرة والمراجعة لما توخينا فيه من التحقيق والتدقيق ولا سيما بعد ان عمدنا الى ذكر المآخذ في هوامش الصفحات مع الاشارة الى الكتاب والجزء والصفحة من كل منها . ولا يخفى ما يقتضيه ذلك من التيقظ والتعب في ضبطه والتوفيق بين اجزائه . والسكنه أعاننا من الجهة الاخرى على الايجاز في بعض الاماكن اكتفاءً بالاشارة الى خلاصة الموضوع وحالة القارىء في استيفائه الى المصدر الاصلي ائلا يخرجنا ايراده الى التطويل

على ان كثرة المواضيع وتعدد فروعها وتداخلها قد حملنا احياناً على ايراد بعض النصوص في جزء مع ورودها في جزء آخر قبله . وانما فعلنا ذلك رغبة في استيفاء الادلة واحكام البرهان بتنسيق المقدمات وتأنبجها وتقادياً من إرجاع القارىء الى بعض الاجزاء السابقة — وان كنا لم نرتكب هذا التكرار الا عند الضرورة لازوجهتنا الاولى في كتابتنا انما هي بسط العبارة وايضاح الموضوع حتى ينجلي للقارىء كانه مجسم . على اننا كثيراً ما احلنا المطالع الى مراجعة ما سبق ذكره في اماكنه

والجزء الذي نحن في صده اكثر سائر الاجزاء طلاوة واقربها الى افهام المطالعين على اختلاف طبقاتهم وتفاوت معارفهم لانه يبحث في مثل

ما ألفوه من العادات والآداب مما تلذ طاعته وتتوق النفس الى معرفته من الابحاث الاجتماعية والمواضيع العمرانية والاحوال العائلية مما يريد الناس عادة بقولهم « حضارة » او « مدنية » وهو بالحقيقة بعض ظواهرها على ما تبين لك في الاجزاء السابقة

فواضيع هذا الجزء سهلة على المطالع واسكنها شاة على المؤلف لخلو كتب القوم من أمثالها على الأسلوب الذي تحدثناه في هذا الكتاب . ولو قشمت ما كتبه اسلافنا في التاريخ والادب والعلم وغيرها . رأيت لاحد فصولاً ولا جملة ولا فقرة في نظم الاجتماع مثلاً أو طبقات الناس أو الآداب الاجتماعية أو الحضارة أو الابهة الا ما قد يرد عرساً في اثناء النوادر أو الحكم أو التراجم أو الوقائع مما استعنا به في الاستدلال على بعض الحقائق المذكورة

وابحاث هذا الجزء تنتظم في اربعة أبواب كبرى (١) نظام الاجتماع (٢) الآداب الاجتماعية (٣) حضارة المملكة (٤) ابهة الدولة فنظام الاجتماع أساسه طبقات الناس ولذلك قدمنا الكلام بفصول في طبقاتهم قبل الاسلام في جزيرة العرب وما يحدق بها من البلاد العامرة في الشام والعراق ومصر وفارس وافريقية ثم طبقاتهم بعد الاسلام وما طراً عليها من التغيير في ايام الراشدين فالامويين فالعباسيين . وبسطنا الكلام في نظام الاجتماع بالعصر العباسي فقسمنا الناس الى طبقتين كبيرتين الخاصة والعامة : وجعلنا الخاصة اربع طبقات الخليفة واهله واهل دوائه وارباب البيوتات . واذفنا الى الخاصة طوائف من الناس يصح الحاقهم بها سميناهم

« اتباع الخاصة » وهم الجند والاعوان والخدم . وبدخل في طائفة الخدم العبيد والحواري والخصيان وبتنا ما كانت عامه كل طبقة أو طائفة في عهد ذلك المدن

وجعلنا العامة طبقتين كبيرتين الاولى المقربون وهم فئة من العامة سمت بهم قرائتهم أو همهم الى الاحاق بالخاصة . كاصحاب الفنون الجميلة واهل الادب والشعر والغناء وارباب التجارات الثمينة والصنائع العليا . وذكرنا ما كان يكتسبه هؤلاء من الاموال المدفقة من خزائن الدولة . واما الطبقة الثانية من العامة فهم معظم الامة وينقسمون الى فئتين الاولى اهل القرى وهم السواد الاعظم والثانية عامة اهل المدن وهم أكثر سكانها ويتعاطون الصناعات اليدوية والتجارات الصغرى وبينهم طوائف العيارين والشطار والمخنثين وغيرهم وذكرنا تاريخ كل منها

واما الآداب الاجتماعية فصدرناها بتمهيد في تاريخها من زمن الجاهلية فذكرنا مناقب البدو كالعبودية والانفة والوفاء والسخاء والنجدة والارحمية والعفة وكيف تسرب الفساد الى هذه المناقب تدريجاً بتقدم القوم في معارج الحضارة وذكرنا الاسباب التي بعثت على تبديل بعضها في عصر الراشدين فالامويين الى العصر العباسي . وبسطنا الكلام في آداب هذا العصر بسطاً وافياً لانه هو المراد بهذا الباب فتسمنا الكلام فيه الى فصول في العائلة ونظامها وما يتخلل ذلك من حال المرأة العربية فينبأ عفتها وانفتها في الجاهلية وأوردنا أمثلة ممن اشتهرن فيها بالشجاعة والحزم والرأي . وكيف تبدلت أحوالها في عصر الترف بما ادخله عليها الرجل من الحواري والسراي حتى

ذهبت الغيرة ونشأ سوء الظن فخبسها وضيق عليها . وافردنا فصلاً لاسلوب
الارتزاق في عهد ذلك التمدن بالسخاء المتسلسل على سنة العرب . وجعلنا
كلامنا في المعيشة العائلية فصولاً في الطعام واللباس والمأوى فاجلنا تاريخ
كل منها في ايام الجاهلية وما احدثه فيه ذلك التمدن

ثم اتينا الى الباب الثالث من هذا الجزء وهو حضارة المملكة فقسمناه
الى قسمين اولها العمارة أو العمران وثانيها الثروة والرخاء . والعمارة اما في المدن
او في القصور فانينا باثثة من عمارة أهم المدن الاسلامية وأشهر القصور
والمباني في دمشق وبغداد والقاهرة وقرطبة وغرناطة وغيرها . اما الثروة
فيدور الكلام فيها على انحاء في ثروة الخلفاء والامراء وما تقتضيه من
التأنق بالطعام والتنعيم باللباس والتزين بالاثاث والرياش والمجوهرات ونحوها .
ثم القصف وما يلبسه من التسري وعقد مجالس الغناء والشراب . ثم
السخاء وقد نظرنا فيه من ايام الراشدين الى العباسيين وكيف تدرج القوم
في مقدار الصلة ونوعها . ويتخلل ذلك فصول في الغناء وتاريخه من الوجهة
الاجتماعية والادبية والمسكر وخلاصة اقوالهم في تحريمه وتحليله وتاريخ
انتشاره وانفاس الخاصة به فضلاً عن العامة وما نتج عن ذلك من التهلك
والاسراف والفحشاء

اما امة الدولة فجلنا مدار الكلام فيها على الخلفاء واحوالهم من سداجة
الراشدين وتقشفهم الى بذخ العباسيين واهبتهم . وقسمنا البحث في هذا
العصر الى فصول عديدة في مجالس الخلفاء ومواكبهم واحتفالاتهم
وعلائقهم بالدول المعاصرة وملابسهم وألعابهم وملاهيهم . ويتفرع القول

في مجالسهم الى المجالس العامة ومجالس الادب والغناء والمناظرة وغيرها .
فوصفنا المجلس وفرشه ومراتب الجلوس فيه وشروط الاستئذان في الدخول
والتحية وآداب المجالسة وعلامة الصرف ونحو ذلك . وقسمنا مآلهيهم الى
فصول في الصيد والسباق والكرة والصولجان ورمي البندق وارتباط
السباع وغيرها

وذيّلنا هذا الجزء بفهرسين كبيرين الاول جدول اسماء الكتب التي
ذكرت في هوامش الاجزاء الخمسة مع اسم المؤلف وسنة نشر الكتاب
ومحل طبعه والثاني فهرس ابجدي عام لمواضيع الاجزاء الخمسة فضلاً عن
فهرس هذا الجزء

وقد بذلنا الجهد في تحري الحقيقة وتوخينا الانصاف والاخلاص بما
يبلغ اليه الامكان - فان أحسننا فذلك قصدنا واقصى مرادنا وان أسأنا فعن
غير عمد منا وما العصمة الا لله وحده



- | | | |
|-------------------------------|----------------------------|-----------------------------|
| ١ قصر الذهب أو القبة | ١٢ الميدان وبجانبه الاصطبل | ٢٢ قصر المعتمد |
| الحضراء | ١٣ دار القرار (قصر زبدة) | ٢٣ دار الروم (البطركانة) |
| ٢ جامع المنصور | ١٤ دار حميد بن عبد الحميد | ٢٤ قصور البرامكة |
| ٣ ابنية الحكومة لمصالح الدولة | باب الشعر | ٢٥ باب الطاق |
| ٤ المطبق | ١٥ جامع معروف السكرخي | ٢٦ قصر المهدي |
| ٥ باب البصرة | ١٦ مشهد ثلي | ٢٧ جامع الرصافة |
| ٦ باب خراسان | ١٧ قصر جعفر البرمكي ثم صار | ٢٨ باب الشامية وقصر موسى |
| ٧ باب الشام | من قصور الخلافة | ٢٩ قصر الحريم الطاهري |
| ٨ باب الكوفة | ١٨ قصر التاج | ٣٠ قصر زبدة |
| ٩ جامع المسيب | ١٩ قصر الفردوس | ٣١ دار الرقيق |
| ١٠ ديوان الصدقة | ٢٠ دار عيسى | ٣٢ قصر الخلد |
| ١١ سجن باب الشام | ٢١ قصر ابن الحصب | ٣٣ حدائق القصور او البساتين |

نظام الاجتماع

في المملكة الإسلامية

موضوع هذا الباب النظر في حال الحياة الاجتماعية في ابان التمدن الاسلامي وبيان الجماعات التي كانت تتألف منها طبقاتهم وعلاقاتها بعضها ببعض . ولزيادة الايضاح نعهد الكلام بنظام الاحماع على عهد الروم والفرس في البلاد التي فتحها المسلمون من تبتك المملكتين وما كان من تأثير الاسلام في ذلك النظام وكيف تدرج في الارتقاء من أيام اراشدين فالامويين فالعباسيين ثم نبسط القول في نظام الاجتماع بالعصر العباسي

نظام الاجتماع قبل الاسلام

يقسم الكلام في ذلك الى وصف طبقات الناس (١) في الشام والعراق (٢) في مصر (٣) في افريقيا (٤) في بلاد فارس (٥) في جزيرة العرب

١ — طبقات الناس في الشام والعراق

نريد ههذين البليدين ما بين دجلة في الشمال الشرقي وآخر حدود الشام في الجنوب الغربي وسكان هذه البعثة اكثرهم الارض اختلاطاً في اجناسهم وأديانهم وآدابهم لكثرة الدول التي توالى عليها من أقدم أزمنة التاريخ . ولعلماء البحاث طويلة وآراء متضاربة في أحوالهم لا محل لها ولا فائدة منها . وخلاصة ما يستخرج من بحاثهم ان اقدم من عرف من أهل تلك البلاد بطلون من الساميين . وكانت مساكن القبائل السامية تمتد من دجلة عند أطراف ما بين النهرين شمالاً شرقياً الى سواحل سوريا حتى العريش فالبحر الاحمر غرباً وشواطئ اليمن وحضرموت جنوباً فخليج فارس وبحر عمان شرقاً . وهي عبارة عن بلاد ما بين النهرين والعراق وسوريا وفلسطين وجزيرة سينا وجزيرة العرب

والساميون ثلاثة فروع كبرى (١) الآراميون وهم القبائل السامية الشمالية كانت مواطنهم في ما بين النهرين والعراق وسوريا الاقصى من شواطئها (٢) العبرانيون وهم القبائل السامية الوسطى ومواطنهم في فلسطين وشواطئ سوريا (٣) العرب وهم القبائل السامية الجنوبية ومقامهم في جزيرة العرب وما يليها من بادية الشام والعراق وجزيرة سينا

الاراميون

فالآراميون كانت لغتهم فرعاً من اللغة السامية يعرف باللغة الآرامية وأنقسم بتوالي الاحيال الى ائم اشتهرت في التاريخ اهمها امة السريان في ما بين النهرين والعراق والكلدان في أعالي سوريا . وانقسمت اللغة بهذا الاعتبار الى الفرعين السرياني والكلداني . والعبرانيون يراد بهم ابناء ابراهيم وقد استقروا في فلسطين نحو القرن الثالث عشر قبل الميلاد ويلحق بهم الفينيقيون وكانوا يتكلمون لغة تشبه العبرانية . وأما العرب فكانوا يفاهمون بلغة من اللغات السامية هي العربية ومن فروعها او اخواتها الحميرية والحبشية . وأقرب القبائل العربية الى الشام الانباط وكان لهم شأن في اثناء تسلط الرومان على الشام سيأتي ذكره

فما بين النهرين والعراق والشام وفلسطين كانت في أقدم أزمنة التاريخ مأهولة بشعوب سامية تتقارب نسباً ولغة . أما قبل نزول الساميين فكانت مفاعاً لأم لا يعرف أصلها وكان الساميون أقوى منهم فغلبوهم على بلادهم واستقروا فيها وأخذ اولئك بالانقراض قبل الميلاد بعدة قرون . وهالك ترتيب مساكن الساميين هناك من الشمال الى الجنوب - السريان فالكلدان فالفينيقيون فالعبرانيون فالانباط . وخالطتهم ائم شتى غير سامية أقامت بين اظهرهم في بفاع مختلفة من بلادهم غير بقايا الشعوب الاصلية مما يطول بيانه ولكن الساميين تغلبوا عليهم جميعاً وعاشت أديانهم وآدابهم وعاداتهم

على ان مركز هذه البلاد الجغرافي جعلها عرضة لمطامع الفاتحين من الامم القديمة كالحثيين والمصريين والاشوريين والفرس فكانوا يتناوبون فتحها أو اكتساحها وتقاطر شعوبهم اليها . ولكن الامر لم يستقم لدولة من هذه الدول في سوريا كما استفاد اليونانيون خلفاء الاسكندر . فان هذا القائد العظيم فتح هذه البلاد في القرن الرابع قبل الميلاد وأوغل فيها ثم صيرها خلفاءه يونانية وتوافد اليها اليونان وأقاموا فيها واختلطوا بأهلها ولا سيما بعد ظهور النصرانية وهي في سلطنة الرومان . ولكن الغنصر اليوناني مازال متغلباً عليها واكثر تغلبه على سواحل بحر الروم ويضعف شأنه في الداخلية تدريجاً ومع ذلك الاختلاط ظلت الشعوب السامية محافظة على آدابها وعاداتها ولغاتها ولا سيما اليهود فانهم مع ما أصابهم من الاضطهاد والسبي ظلوا من حيث الاداب والدين نحو ما كانوا عليه في أيام داود وسليمان الا ما أصاب لغتهم من التغيير في اثناء السبي ببابل فانها اختلطت بالسريانية والكلدانية وعرفت باللغة الآرامية او الكلدانية وبها كتبوا التلمود. وانقسموا الى اليهود والسامريين . اما من بقي من الشعوب السامية ولا سيما السريان

فقتصروا وانفردوا بأدبهم وعاداتهم واكثرهم كانوا يقيمون في العراق وما بين النهرين واعالي سوريا الى فلسطين

الانباط

فكانت حدود الشام الغربية على سواحل بحر الروم يغلب عليها العنصر اليوناني وحدودها الشرقية مما يلي البادية يغلب عليها العنصر العربي . وكان هناك في اوائل القرن الرابع قبل الميلاد امة عربية عرفت بالانباط أو النبط كان مقامهم وراء فلسطين غرباً جنوبياً على انقاض الادوميين في بقعة تمتد من جزيرة سينا الى حوران تعرف بالبلاد العربية الصخرية Arabia Petra ولا تزال آثار مدينة بطرا باقية الى الآن وفيها الابنية المنقوشة والتماثيل المنحوتة ونحوها . حاربهم الروم سنة ٣١٢ ق . م . بقيادة انتيغونوس وكان الانباط عشرة آلاف مقاتل . وذكر ديودورس انهم كانوا يجتنبون الزراعة رغبة في الرحلة ويمشون على الناحية والابان ويحرمون الحمر تحت طائلة القتل . وأما شراهم الماء يحملونه بالمن وهو كثير عندهم . وكانوا يجرون بالمر والاطياب يحملونها من شواطئ البحر الاحمر وبلاد العرب وبالحر أو القار يحملونه من البحر الميت الى مصر ليستخدمه المصريون في التنحيط . وكانت طرق التجارة بين مصر وسائر المشرق لا تسلك الا على يدهم والا فانهم يهاجمون القوافل ويغزون التجار . ثم تغلب عليهم البطالسة وقهرهم فقباعدوا عن حدود مصر ونزلوا حوران ونبغ منهم في القرن الاول قبل الميلاد ملك يسميه اليونانيون اريتاس (الحارس) حارب عامل دمشق وغلبه على مدينته واستولى عليها وعلى ملحقاتها تحت رعاية الرومانيين نيفاً واربعين سنة . ثم صار الانباط حلفاء الرومان في القرن الاول للميلاد وامتدت شوكتهم في اثناء ذلك الى جزيرة العرب مما يلي سواحل البحر الاحمر

وظلت مدينة بطرا مركزاً تجارياً بين الشرق ومصر حتى اكتشفوا الطريق من القصير الى قفط على النيل فاخذت بطرا بالتقهقر وكان الانباط قد تحضروا فذهبت خشونتهم وعجزوا عن الغزو والحرب فاركنوا الى الزراعة وأووا الى المنازل وانتمسوا في الترف فجاءهم تراجا الروماني فخاربهم واخضعهم واذلهم فذهبت عصبيتهم واحلت قواهم فاخذوا الى الدعة واختلطوا باهل البلاد الاصليين من السريان أو الآراميين وانتشروا على حدود سوريا وفلسطين مما يلي البادية بين جزيرة سينا والفرات ولم تقم لهم قائمة من ذلك الحين

ولما جاء المسلمون لفتح الشام وجدوا بقايا هذه الامة هناك يتكلمون اللغة الارامية او السريانية لغة اهل العراق وما بين النهرين فحسبوا الانباط والعراقيين امة واحدة

فاطلقوا عليهم جميعاً اسم « الانباط » والذي عاينه المحققون ان انباط بطرا وما يليها عرب وانما تكلموا الارامية على اثر اختلاطهم باهل الشام والعراق بعد ذهاب دولتهم. ويظن علماء التوراة ان النبطيين ينسبون الى نيايوط من آباء التوراة

ولما ضعف الانباط ظهر مكانهم على حدود الشام والعراق احيال جديدة من العرب اتخذهم الروم والفرس حلفاء يردون عنهم غارات اخوانهم اهل البادية أو ينصرونهم في الحروب التي كانت تنتشب بين تينك الدولتين قبيل الاسلام. فقام حلفاء الروم في جهات حوران وهم الغساسنة واقام حلفاء الفرس على شاطئ الفرات في الحيرة وهم المناذرة. فاذا انتشبت حرب بين الروم والفرس تجند الغساسنة للروم والمناذرة للفرس ودافع كل منهما عن اخيه. فكانوا مع بداوتهم وسذاجتهم عوناً قوياً لهاتين الدولتين الضخمتين ينصرون احدهما على الاخرى. ولنجو هذا السبب اقام العرب على الحدود بين الفرس والروم في ما بين النهرين والعراق وفيهم بطون من آياد وربيعة

فسكان الشام والعراق عند ظهور الاسلام كان معظمهم من بقايا الاراميين الاصليين وهم السريان في الشمال والشرق واليهود والسامريون في الجنوب وبقايا الانباط في الغرب يابهم العرب الغساسنة والمناذرة ثم قبائل آياد وربيعة بين النهرين. ويخلل هذا المجموع شتات من امم اخرى كالجرارحة في جبل اللسكام^(١) والجرامقة في الموصل^(٢) واخلاق من مولدي اليونان والرومان على الشواطىء ومولدي الفرس والاكراد في الشمال. وكانت جامعة الدين قد غلبت على جامعة النسل او الجنس او اللغة فاصبحت الطوائف تنسب الى مذاهبها الدينية كالنصارى واليهود والسامريين. وينقسم النصارى الى ملكيين ودياقبة وناطرة وموارنة وغيرهم. وكانت الديانة والسياسة مرتبطتين والحزب الديني عبارة عن حزب سياسي يستخدم في تأييد الدولة. فالكنيسة القسطنطينية كانت أم كنائس المشرق وشعوب هذه الكنائس تنقاد الى تلك الكنيسة لتأييد سلطة القيصر صاحب العرش فيها والكلام في تفصيل ذلك يطول

نظام الاجتماع في السام والعرق

اما حال الاهالي بالنظر الى الحكومة فكان على غير المؤلف يمتنا لبعده النسبة بين الحاكم والمحكوم في تلك الايام ولا سيما في البلاد التي يحكمها الغرباء البعيدون عن اهلها لغة أو دينا أو جنساً. فالرومان كانوا يعدون البلاد واهلها وهم العامة ملكاً لهم يصرفون بهم كيف شاؤوا وكان الفلاحون في كثير من البلاد يعدون من توابع العقار

فينتقل العقار من مالك الى آخر وفلاحوه معه ويسمونهم سرف (Sarf) أي الاقتان (جمع قن) الا الذين تسمو بهم همهم الى انتفرب من رجال الدولة بالصناعة والادب أو التجارة وهم قليلون . فكان الناس طبقتين طبقة الخاصة وهم الملك وأهله وأعوانه ورجال الدين ومن جرى مجراهم . والعامة أهل البلاد الاصليون واكثرهم الفلاحون أو الاكرة

نخاسة أهل الشام في العصر الروماني حكمها وهم البطارقة (والبطريق غير البطريك) . وكان البطارقة عند الرومانيين جماعة من أشراف المملوك الرومانية نشأوا مع مدينة رومية وكان لهم نفوذ عظيم في الدولة الرومانية وانحط شأنهم بعد انقسامها ولم يبق لهم عمل . فلما امتدت سطوة الروم الى المشرق رأوا تلك البلاد البعيدة لا يستطيع الحكم فيها واخضع اهالها الا اهل السطوة والهبة فعهدوا بذلك الى البطارقة وولوه المستعمرات الشرقية وفي جملتها الشام ومصر وكانت الشام ولاية واحدة تقسم الى ١١ اقليماً على كل اقليم بطريق معه الجند كانه حاكم مستقل ^(١) وكانت حدود الشام بالنظر الى الحكومة تنتهي من الشمال الشرقي الى الفرات ولا يدخل العراق وما بين النهرين فيها وانما جعلناها منها في كلامنا عن الاهالي لانهم وأهل الشام من اصل واحد كما رأيت

— ١١١١١١١١ —

٢ — طبقات الناس في مصر

ان سكان مصر أقل اختلاطاً من سكان الشام والعراق ومع ذلك فقد توالى الهجرة اليها من أندم أزمنة التاريخ قبل زمن الفرائنة . والفرائنة اكثرهم من الفاتحين الغرباء فكانوا اذا فتحوا مصر واستعماهم لهم الامر فيها هاجر اليها اهل عصبيتهم لاستثمار ذلك الفتح . فيأتون على ان تكون اقامتهم وقتية ربما يجتمع لهم المال ولكن اكثرهم لا يرجعون ولا يمضي بضعة أجيال حتى يختلطوا بالسكان وبصبروا جزءاً منهم كما حدث في زمن الرعاة والفرس واليونان والرومان وغيرهم ممن فتحوا مصر قبل الاسلام . والغالب في الفاتحين انهم لا زالون يميزون عصبيتهم من عصبية سائر رعاياهم حتى ينتقل الامر من أيديهم الى قاتح آخر فتنامى عصبيتهم ويندجون في جملة الوطنيين . ناهيك بمن كان يأتي مصر للانجار أو للاستثمار لاشتهارها بالخصب والرخاء

وكان الفاتحون يرفعون غالباً عن الاختلاط بسائر افراد الامة فيكون منهم الجند

رجال الدولة والكهنة ونحوهم من اهل السيادة ويحملون مقامهم في المدن الكبرى ويبقى الشعب للفلاحة والصناعة والخدمة . فالبطالسة حكموا مصر نحو ٣٠٠ سنة وتقاطر اليونان في أيامهم بكثرة وكانوا يقيمون في الاسكندرية أو غيرها من العواصم واكثرهم من الجنود أو التجار أو رجال الدولة لادارة الحكومة . وكذلك كان شأن الرومان فانهم تولوا وادي النيل ستة قرون والروماني يمتاز عن المصري لغة ومذهباً وخلقاً وكانوا يقيمون في المعازل والحصون أو المدن الكبرى كما كان حالهم في الشام

فاما ظهر الاسلام كان سكان مصر طبقتين : (١) الرومان او الروم وعاصمتهم الاسكندرية ومنهم رجال الدولة والاجناد وبعض رجال الاكليروس (٢) الاهالي وهم الاقباط الاصليون يخاطبهم بعض المولدين من اليونان والرومان وغيرهم من النازحين للتجارة او الخدمة او غيرها من اهل الشام واليمن والعراق والنوبة وافريقية . وكان بين الحكومة والاهالي فاصل آخر مذهبي فكان الروم على مذهب الملك وهم المملكون والاقباط على مذهب يعقوب البراذعي وهم يعاقبة

٣ — طبقات الناس في أفريقية

يريد العرب بأفريقيا البلاد الواقعة في شمال افريقيا حيث الان تونس وطرابلس والجزائر ومراكش وهي في الاصل مستعمرة سامية لبعض النازحين من فينيقة قبل الميلاد بعدة قرون بنوا فيها مدينة قرطاجة او قرطجنة وانشأوا دولة هي شرعية باعتبار اصلها وان كانت غربية في موقعها لان اهلها ساميون ولغتها من اخوات اللغة العربية . وقد حارب الفرطنجيون الرومانيين ونازعوهم على السيادة فقطعوا اليهم البحار وجبال الالب حتى حاصروا رومية وكادوا بذهبون بدولتها ولو فعلوا ذلك لتغير وجه الارض عما نعرفه ولكنهم اخفقوا فرجعوا ثم ارتد عليهم الرومان وحاربوهم في بلادهم حتى اقصوهم واخربوا مدينتهم وتوالى على قرطاجة بعدهم امم شتى كالرومان والفندال والفرس وغيرهم

اما اهل البلاد الاصليون فقد كان معظمهم قبل الفرطنجيين اقواماً من الجنس البربري يستصمون بالجيال دأبهم النهب والغزو . ولما ذهب الفرطنجيون وخلفهم الرومان وجدوا اهل تلك البلاد طبقتين احدهما حضرية تتوطن السواحل في ما هو الآن مراكش والجزائر وتونس يتعاطون التجارة والصناعة والاخرى تسكن الجبال والبادية.

فسموا الاولى الموريتانيين والثانية النوميديين . وكان النوميديون من القبائل الرحل الاشداء فلم تقوَ الدولة الرومانية على اذلالهم بل كانوا كثيراً ما يهاجمون حاميتها في المدن ويسودون الى جبالهم . ذلك كان شأنهم . مع من فتح افريقية بعد الرومان . وما زالوا على ذلك حتى جاء المسلمون وفتحوا افريقية واهلها طبقتان الاولى اهل المدن وهم الموريتانيون ومن اختلط بهم من الامم الفاتحة الروم والفندال وقد اعتنقوا النصرانية وتحضروا . والثانية النوميديون وهم لا يزالون على بدائنتهم وظلوا ممتنين في جبالهم الى اواخر القرن الاول للهجرة وهم الذين يسميهم العرب قبائل البربر على ما هو مدون في كتبهم ولهم شأن كبير في تاريخ الاسلام

٤ — طبقات الناس في بلاد فارس

نريد ببلاد فارس ما بين دجلة في الغرب الجنوبي ونهر جيحون في الشرق الشمالي ويدخل فيها خوزستان وكرمان ومكران وبلاد الجبال وخراسان واذريجان وارميديا وغيرها وهي تحوي شعوباً شتى من امم مختلفة لا يمكن حصرها وتمييزها بعد ان طال العهد عليها . ولكنها تمايز في كل حال عما يجاورها من سكان العراق والشام امتيازاً كلياً في الجنس واللغة والدين . اما الجنس فسكان بلاد فارس اكثرهم من الجنس الآري وهو غير الجنس السامي الذي عمر الشام وما وراءها كما تقدم . أما اللغة فالفارسية من اللغات الآرية اخوات لغات اوربا وهي غير اللغات السامية . وأما الدين فالنذهب الذي كان شائعاً في تلك البلاد قبل الاسلام الزردشتية أو المجوسية ومذهب اهل العراق والشام النصرانية واليهودية

وتوالى على بلاد فارس دول كثيرة حتى فتحها الاسكندر في القرن الرابع قبل الميلاد . فلما مات واقتسم المملكة قواده لم يستطيعوا استبقاء تلك البلاد في حوزتهم فاقسمها امراؤها وهم المعروفون بملوك الطوائف حتى قام ازدشير بن ساسان سنة ٢٢٤م فجمع كلتها بالسيف وتوالى عليها أهله الى ظهور الاسلام وهي الدولة الساسانية فلما ظهر الاسلام كان سكان تلك المملكة طبقتين العامة والخاصة . أما العامة قاهل البلاد الاصليون ومنهم الفلاحون والصناع والخدم وغيرهم من نتاج الاختلاط قروناً بين القبائل الآرية وبعض القبائل الطورانية من الآراك والديلم . وكانوا يسمون عند ظهور الاسلام « الطاجية » ولا يعرف أصل هذه اللفظة تماماً ^(١) ولكنهم يريدون بها طبقة العامة والطاجية ضخام الاجسام اقوياء الابدان

وأما الخاصة فالملك وأهله ورجال دولته ورجال الدين والاشراف من بقايا الدول السالفة . فبعد الملك وأهله تأتي طبقات الشهارجة « شهربان » أو السهارجة ^(١) وهم اشراف السواد وأرباب الدولة كالبطارقة عند الروم . تليهم طبقة الدهاقين واحدهم دهقان وينتسبون الى الملوك القدماء من الدول السالفة وهم أصحاب الارضين وفي ايديهم اكثر البعاع يستغلونها على رقاب الطاحية . والدهاقين خمس مراتب وقد يتولون الامارات ويتعاملون بالحكومة كامراء (بخار خد) فقد كانوا عند ظهور الاسلام من الدهاقين وكذلك هرات . وقد يكون الدهقان مثل بعض العامة

وكانت مملكة فارس عند ظهور الاسلام في حوزة الدولة الساسانية تنقسم الى عمالات يتولى كل عمالة امير يسمونه « مرزبان » وأصل معنى هذه اللفظة قائد الحدود . على أن بعض العمال كانوا يجمعون بني من الاستقلال في أحكامهم ولا سيما في الامارات البعيدة وكان بعضها مستعلا استعلا تاماً ويخضع كل امير لعملاً خاصاً به مثل « رتبيل » لعب امير سجستان و « رنجان » لامير سمنجان و « جيفويه » لصاحب طخارستان و « اصمبذ » لصاحب بلخ و « باذان » لمرو الروذ و « شهر ك » للطالقان و « اخسيد » لصاحب فرغانة وقس عليه . على ان بعض الولايات كمر وسرخس وطوس كان يتولاها المرازبة

واكثر نفوذاً وسطوة من اشراف المملكة وملوكها رجال الدين وهم كهنه الزردشتية ويسمى المسيحيون المجوس واسمهم عند الفرس الموبدان واحدهم « موبذ » وهم كالاساقفة عند النصارى رئيسهم يسمونه « موبذ موبدان » مثل رئيس الاساقفة وكان نفوذهم في الدولة يفوق نفوذ الملك ^(٢) ومنهم القضاة أو من يقوم مقامهم في الحكومة بين الناس

وكان في بلاد الفرس جماعات تجمعهم نسبة أو صفة فيقيمون في بلد أو ينتقلون في البلاد كالاساورة والسيابجة والزط والاحامرة ونحوهم ^(٣)

ه — طبقات الناس عند العرب الجاهلية

قد علمت ان سكان جزيرة العرب من الشعوب السامية اخوان الاراميين اميرانيين ولكنهم لم يصمم ما احاب اخوانهم في العراق والشام من الاختلاط

(١) السمودي ١٤٣ ج ١ (٢) Christianisme dans l'Empire Perse 6
(٣) البلاذري ٣٨١

لامتناع جزيرتهم على الفاتحين بما يحدق بها من البوادي التي يسرسلوكها على الجيوش. وقد همَّ بها الاشوريون واليونان والروم وغيرهم ورجعوا عنها بلا طائل حتى اذا كان القرن الخامس للميلاد فتح الاحباش قسمها الجنوبي (اليمين) وعجزوا عن الحجاز فاستنصر اليمينيون الفرس فنصروهم وأخرجوا الاحباش وحلوا محلهم واختلطوا بأهل اليمن وعرفوا بالابناء الاحرار

على أن بلاد العرب كانت ملجأً للنازحين من الشام أو مصر أو العراق فراراً من ظلم أو ضغط أو امتناعاً على الحكومة لسبب من الاسباب واكثر الامم زوحاً اليها اليهود لكثرة ما قاسوه من الاضطهاد منذ خروجهم من مصر الى أن اضطهدهم الروم على عهد طيطس وغيره — وهاجر اليها كثيرون من اليونان والرومان والفرس والهنود والاحباش وغيرهم بلا حرب ولا اضطهاد . ومع ذلك فإن العرب ظلوا مستقلين بانسابهم وعاداتهم وآدابهم ويقسمون باعتبار النسب أو الوطن الى قحطانية أو يمنية وعدنانية أو حجازية . وانقسمت لغتهم بهذا الاعتبار الى حميرية ومضرية وقد فصلنا طبقات العرب وقبائلهم وحلفاءهم ومواليهم وتبديدهم في الجزء الرابع من هذا الكتاب

نظام الاجتماع في عصر الراشدين

يبدأ في الجزء الرابع المذكور ما أحدثه الاسلام من التغيير في العصبية العربية وما تولد به من الطبقات الجديدة التي لم تكن قبل الاسلام كالمهاجرين والانصار وأهل بدر وأهل القادسية وما اقتضاه النسب الهاشمي أو العرشي من العصبية الجديدة ومنهم طبقات الاشراف من العلويين أو العباسيين وأبناء الانصار والمهاجرين على ما وضعه عمر في ديوانه من مراتب العطاء باعتبار تلك الطبقات ^(١) وما يلحق بذلك من طبقات التابعين وقابلي التابعين والانتساب الى مشاهير الصحابة كالزبير وآل أبي بكر وغير ذلك مما اقتضاه الاسلام والفتوح الاسلامية . فتولد من ذلك بيوتات اسلامية غير البيوتات العربية التي كانت قبل الاسلام

أما البلاد المفتوحة فلما جاء المسلمون لفتحها قاوم من لقيهم على حدودها العرب أبناء لغتهم وأهل عصبيتهم ولما أوغلوا في الشام والعراق استأنس أهلها باللسان العربي لقربه من لسانهم الارامي أو المرياني مع بُعد لسان حكاهم يومئذ الرومي أو الفارسي

(١) الجزء الاول ١٥٦ (طبعة ثانية)

عنهم — فكان ذلك من جهة ما مهد لهم أسباب الفتح . أما طبقات الناس الاصلية فقلما أصابها تغير في عصر الراشدين لان المسلمين لم يكونوا يخالطونهم ولا يدخلون في شيء من أحوالهم الادارية أو الدينية أو السياسية وانما كان همهم اقتضاء الجزية والحراج وحماية من دخل في ذمتهم من أهل الكتاب . فكانوا يقيمون في مضاربهم أو معاقلمهم بضاحية البلد المفتوح بما يشبه الاحتلال العسكري — الا من دخل في حوزتهم من الارقاء بالاسر او السبي ومن اعتقوه فصار من الموالي . وهناك طبقة جديدة نشأت بانتشار الاسلام خارج جزيرة العرب وهم المسلمون من غير العرب ولهم شروط وحوال تخالف ما للعرب على ما يبيناه في الجزء الرابع

نظام الاجتماع في عصر الامويين

كانت قصبة الاسلام على عهد الراشدين في المدينة بحوار قبر النبي فنقلها الامويون الى الشام قرب البلاد المفتوحة وعملوا على توسيع دائرة مملكاتهم فجردوا الجيوش وفتحوا المدن حتى وطئت حوافر خيولهم ما وراء النهر في انصى الشرق وركبوا بحر الجاز (بוגاز جبل طارق) الى اسبانيا ففتحوها وما وراءها من بلاد الافرنج الى نهر تورس . ونصبوا اعلامهم على أعظم مدائن الفرس والتر والروم والاسبان والافرنج حتى هددوا الفسطاطية . وحولوا الاحتلال الموقت الى السيادة الدائمة . وجعلوا الاسلام دولة بعد ان كان ديناً وأيدوه بنقل دواوين الحكومة في الشام ومصر والعراق من اليونانية والقبطية والفارسية الى العربية وبعد ان كانت تلك الدواوين يتولاها أهل البلاد غير المسلمين جعلوها في أيدي المسلمين . وخربوا نفوذ العربية فاستعاضوا بها عن نفوذ الروم والفرس ونفشوا عليها الآيات الرأية بدلاً من الصور والرموز . ونقلوا طراز الدولة من اليونانية أو الفارسية الى العربية — قال ذلك كله الى انتشار العرب في الارض وسيادة العنصر العربي ونشر اللغة العربية

على أن شدة تعصبهم للعرب دعا الى انقسام المسلمين الى طبقتين العرب والموالي فضلاً عما فرقوا فيه بين العرب أنفسهم باعتبار النسب الفحطاني والعدياني . وظل العرب في أيامهم على بداوتهم بما كانوا يتوخونه من المحافظة على خشونة الجاهلية وتناشط آدابها فطبقات الناس في العصر الاموي تقدمت خطوة عما كانت عليه في زمن الراشدين فكان الناس طبقتين كبيرتين المسلمين وغير المسلمين وطبقتان العرب وغير العرب وهم الموالي . وغير المسلمين هم أهل الذمة من القبط والانباط والروم والفرس وغيرهم

كما كانوا قبل الاسلام — الا من دخل في خدمة المسلمين من الاطباء والكتاب والمترجمين وهم طبقة جديدة من اهل الذمة لم تكن قبل الاسلام . غير ما حدث في أثناء الفتوح الاموية والحروب الاهلية من انتقال بعض الطوائف والجماعات من بلد الى آخر كانتقال السيباجة والزط الى سواحل الشام في أيام معاوية . ونقل الحجاج جماعة من زط السند الى العراق وأسكنهم باسافل كسكر . وسى عبيد الله بن زياد خلافاً من أهل بخارا فأسكنهم البصرة . ولما بنى الحجاج مدينة واسط نقل كثيراً منهم اليها فاقاموا فيها وتناسلوا^(١) فضلاً عما كانوا يصطحبونهم أحياناً في حملاتهم البعيدة للفتح أو الغزو وقد يكون في الحملة جماعات من البرابرة والانباط والاقباط والجراممة والجرامجة^(٢) فهؤلاء اذا فتحوا بلداً أقاموا فيه وتناسلوا واختلطوا باهلها

وبالجملة فان الهيئة الاجتماعية في أيام الامويين كانت في بدء انتقالها من حالها القديمة في عصر الروم والفرس الى العصر الاسلامي . ولم يتم ذلك الانتقال وتكيف بشكلها الخاص بالاسلام والتمدن الاسلامي الا في العصر العباسي لترفع الامويين عن الاختلاط بغير العرب ورغبتهم في البقاء على الداوة . ومع ايعال جنودهم في بلاد فارس وخراسان وتركستان ومصر وافرقيما والاندلس قلما اختلطوا باهلها أو اقتبسوا منهم أو قدومهم في شيء من عاداتهم واخلاقهم حتى الخليفة المقيم في دمشق — الا ما اتخذوه من الحرس والبريد والسرير على ما يأتي بيانه. أما العباسيون فنظراً لتغلبهم بالوالي وأهل الذمة على الامويين جعلوا مقامهم بين انبياءهم الفرس فبنوا بغداد على الحدود بين الفرس والسريران أو بين الاربين والساميين أو بين الخوس والنصارى وقربوا الفرس واتخذوا منهم الوزراء والعمال ورجال الدولة فغلبوا لهم الدواوين على نحو ما كانت عليه في الدولة الساسانية

—

نظام الاجتماع في العصر العباسي

كل ما قدمناه من الكلام على طبقات الناس في العصور السابقة انما هو تمهيد للكلام عن العصر العباسي اذ نصح التمدن الاسلامي وتكيف طبقاته على شكل خاص بهذا التمدن وكان على أتم اشكاله في مدينة بغداد . قصبة العالم الاسلامي فهي أوضح نموذج يمثل به نظام الاجتماع في ذلك العصر

كان الناس في العصر العباسي طبقتين الخاصة والعامة تحت كل منهما طبقات واتباع وفروع سيأتي تفصيلها :

طبقات الخاصة

كان الخاصة خمس طبقات (١) الخليفة (٢) أهله (٣) رجال دولته (٤) ارباب البيوتات (٥) توابع الخاصة

فالخليفة صاحب السلطنتين الدينية والسياسية ^(١) فاحر بمن كان هذا منصبه ان يعظم الناس شأنه ويتفربوا اليه بالطاعة وبذل الخدمة ويتزلفون بالمدح والاطراء. وسيأتي الكلام على الخلفاء ومجالسهم ومواقبهم والآداب في مخاطبتهم وغير ذلك في باب ابهة الدولة من هذا الجزء

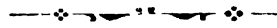
وأهل الخليفة هم بنو هاشم وكانوا أرفع الناس قدراً بعده ويسمونهم الاشراف وأبناء الملوك ^(٢) فاذا دخلوا على الخليفة جالسوا على الكرسي وسار الناس دونهم على الوسائد أو البسط الا هو فانه يجلس على السرير. وكانوا يزترقون على الغالب برواتب يقتضونها من بيت المال فضلاً عن النعم والهدايا على ما يترأى للخليفة في أمرهم فاذا خاف تناول أحدهم للملك أعل يدبه بالهدايا وقطع لسانه بالعطاء — تلك كانت سياسة العباسيين منذ تأسيس دولتهم. وكان الهاشميون في اوائلهما عوناً كبيراً في تأييدها يتولون الاعمال ويقودون الجند ويعينون الخليفة بالرأي والسياسة. فلما تأيدت أصبح الخلفاء يخافون مطامع اهلهم فأخذوا يبذلون لهم الاموال فن أعجزهم كف أذاه بالمال عمدوا الى القتل، به — باشر ذلك ابو جعفر المنصور وتمشى الخلفاء على خطته فكانوا يعطون اهلهم الرواتب الباهظة والهدايا الفاخرة يسهلون عليهم أسباب القصف والمهول يشتغلوا بذلك عن طلب الملك وتعجز همهم عن النهوض

فكان الهاشميون في الغالب من أهل السعة والرخاء يستعوبون بشرف الملك ولا يحملون أوزاره وإعباء تبعته فانهمس أكثرهم في الترف وانهمكوا بالشراب والفناء وابتوا الفصور السناء والحدائق الفناء واستكثروا من الجوارى وجمعوا اليهم المغنين والقيان وقربوا الشعراء والادباء. وأكثر مقامهم في البصرة بعيدين عن دور الخلفاء ودسائسها الا من ولاه الخليفة عملاً أو جنداً. واشتهر بعضهم بالثروة الطائلة كمحمد بن سليمان فقد بلغت امواله نيفاً وخمسين مليون درهم غير الضياع والدور وكانت غلته ١٠٠٠٠٠

(١) راجع الجزء الرابع صفحة ١٩٢ (طبعة ثالثة) (٢) المسعودي ١٧٧ ج ٢ وغيره

درهم في اليوم^(١) وبلغت ثروة خنثة بنت عبد الرحمن الهاشمي ما لا يسعه الديوان^(٢) ومع ذلك فقد كانوا يؤخذون بغير ذنبهم ويخافون الدسائس على حياتهم واما رجال الدولة فتريد بهم الوزراء والكتاب والقواد ومن جرى مجراهم من ارباب المناصب العالية . وكان اكثرهم في ابان الدولة العباسية من الموالي وخصوصاً الفرس كالبرامكة وآل الربيع وآل سهل وآل وهب وآل خاقان وآل الفرات وآل الخصيب وآل طاهر وغيرهم . وكانوا يختلفون نفوذاً وسلطة باختلاف الخلفاء وتفاوت ادوار المدن . ولكن الوزارة كانت على الاجمال من اوسع ابواب الكسب على ما يناله في الجزء الثاني من هذا الكتاب

اما اهل البيوتات فهم الاشراف من غير الهاشمين ومرجع شرفهم الى اتصال حبل قرباهم بالنسب النبوي او بقریش وكان الخلفاء يراعون جانبهم ويفرضون لهم الاعطية والرواتب ويقدمونهم في مجالسهم . على ان هذه الانساب كانت اكثر نفعا لاصحابها في عهد بني امية مما في ايام بني العباس ولا سيما بعد سقوط العنصر العربي بقتل الامين . فلما افضى الامر الى المعتصم قطع رواتب الاشراف في جملة ما قطعه من اعطيات سائر العرب ولعلماء اعيدت بعد ذلك على غير قياس



اتباع الخاصة

وللخاصة اتباع اخر جوه من طبقات العامة بما خصوهم به من اسباب القربى او الخدمة وهم اربع طبقات (١) الجند (٢) الاعوان (٣) الموالي (٤) الخدم فالجند فرق كثيرة تختلف اصلاً ونظاماً على ما فصلناه في الجزء الاول من هذا الكتاب وقد يتبادر الى الذهن قياساً على المؤلف عندنا ان الجند رجال الخليفة يأمرهم بأمره . وقد يكون بعضهم كذلك لكنهم كانوا يختلفون في ذلك العصر عما هم عليه الان لان بعض الخاصة من الوزراء او العمال كانوا يجندون رجال ينفقون عليهم من اموالهم وقد يبتاعونهم غلماناً ويربونهم الاستعانة بهم على اعدادهم وقت الحاجة ويسمونهم باسمائهم . وقد يذهب الوزير او العامل وينتقل جنده الى غيره ويبقى معروفاً باسمه . فاجتمع في بغداد من الاجناد طوائف كثيرة تنسب الى اصحابها كالساحية والتازوكية والبليغية والهارونية وفيهم الاراك والفرس والبرابرة والاحباش والاكراد . ومن هذا القبيل الفرق العزبية والاششيدية والكافورية في مصر مما لا يحصى ومن تلك الفرق ما هو

من قبيل الضابطة أو نحوها كالشاكزية أو لمجرد حماية القصور أو غير ذلك
 اما الاعوان فهم خاصة الرجل ورفاقه ولا يراد بهم ما يراد بالرفق أو الاصداقاء
 اليوم فقد كان للخلفاء وسائر الخاصة من رجال الدولة والاشراف رفاق يصطحبونهم
 ويجالسونهم ويعيشون في منازلهم ويكون لهم رواتب يقتضونها. ومنهم طائفة الجلساء الذين
 يجالسون الخليفة أو الأمير وهم غير الندماء أو الشعراء وإنما هم رجال من أهل العقل
 والثقة يختصهم الخليفة أو الأمير أو الشريف بمجالسته فيفاوضهم في شؤونهم ويركن اليهم
 في مهامهم ويكون لهم الدالة عليه وربما كان بعضهم من مشايخ أهله أو بعض ذوي قرابته
 واما الموالي فقد فصلنا الكلام عنهم في الجزء الرابع من هذا الكتاب وبيننا احوالهم
 وشروطهم وتاريخهم ولا حاجة الى المزيد

الخدم

أما الخدم فأكثرهم في ذلك العهد الارقاء السود والبيض من الذكور والاناث وقد
 اصطلاحوا ان يسموا الارقاء البيض ممالك والسود عبيداً ويقسم الكلام في الخدم الى
 ثلاثة اقسام الارقاء والحصيان والجواري :

١ --- الارقاء

في الجزء الرابع من هذا الكتاب فصل عن الرق في الاسلام ومصادره واحكامه
 (صفحة ٤٦ وما بعدها) وفصل آخر عن الخدم وطبقاتهم ونفوذهم في الدولة حتى نبغ
 منهم القواد والوزراء (صفحة ١٧٣) فتأتي في هذا المعام بما يختص من هذا الموضوع
 بنظام الاجتماع

قلنا في ما تقدم عن طبقات الناس قبل الاسلام ان العامة من اهل البلاد الاصليين
 بالشام والعراق ومصر وفارس كانوا يثنون تحت نير الاستعباد وبعضهم ارقاء فعلاً
 ولا سيما الاقنان خدمة المزارع الذين كانوا ينتقلون مع العقار من مالك الى مالك .
 فهؤلاء العامة جاءهم الاسلام رحمة لانهم تحولوا من الرق الى الحرية أو الى العهد فمن
 اسلم صار حراً له ما للمسلمين وعليه ما عليهم ومن ظلم على دينه دخل في ذمة المسلمين
 يدافعون عنه ما أدى الحرية الامن حارسهم وأسرهم فهو ملك لهم يتصرفون به كيف
 شاءوا. ولكن اكثر الذين حاربوا المسلمين في صدر الاسلام من حاميه البلاد وهم الجنود
 من الروم او الفرس غير العامة اهل البلاد المظلومين . فمن دخل من الحامية في اسر
 المسلمين صار ملكاً لهم — فكان الاسلام حرر العبيد واستعبد الاحرار — الا ما

زعمه بعض أمراء بني أمية من استعباد أهل البلاد المفتوحة عنوة أو اعتبار المسلمين غير العرب من الموالي

كثرة الاسرى او الارقاء

وتكثر الاسرى في اثناء الفتوح حتى كانوا يعدون بالالوف ويباعون بالعشرات - اعتبر ما كان من ذلك في الصدر الاول وما تبعه من الفتوح البعيدة في أيام بني أمية فقد بلغت غنائم موسى بن نصير سنة ٩١ هـ في أفريقية ٣٠٠.٠٠٠ رأس من السبي فبعث خمسها الى الخليفة الوليد بن عبد الملك ٦٠.٠٠٠ رأس ولم يسع بسبي أعظم من هذا^(١) وذكروا أن موسى هذا لما عاد من الاندلس كان معه ٣٠.٠٠٠ بكر من بنات شرفاء القوط وأعيانهم^(٢) وقس على ذلك غنائم قتيبة في بلاد الترك وغيرها

وبلغت غنائم ابراهيم صاحب غزنة سنة ٤٧٢ هـ من قلعة في الهند ١٠٠.٠٠٠ نفس^(٣) وفي وقعة بلاد الروم سنة ٤٤٠ هـ بقيادة ابراهيم بن ينال سبا المسلمون ١٠٠.٠٠٠ رأس غير الدواب^(٤). وفي جملة غنائم الحرب فضلاً عن الاسرى من الرجال جماعات من النساء والعلماء مما يشغل نفله فكثيراً ما كانوا يبيعونهم بالعشرات رغبة في السرعة كما فعلوا في واقعة عمورية سنة ٢٢٣ هـ اذ نادوا على الرقيق خمسة خمسة أو عشرة عشرة . وربما بلغ ثمن الانسان بضعة دراهم - ذكروا أن غنائم المسلمين في واقعة الارك بالاندلس سنة ٥٩١ هـ بيع الاسير فيها بدرهم والسيف بنصف درهم^(٥) والبعر بخمسة دراهم وقد يقضون عدة أشهر وهم يبيعون الاسرى والغنائم تلك أمثلة من أسباب تكرار الرقيق عند المسلمين غير ما كان يرسله بعض العمال الى بلاط الخلفاء من الرقيق وظيفه كل سنة من تركستان^(٦) وبلاد البربر وغيرها

معاملة الاسرى

كانوا في صدر الاسلام اذا ظفروا بغنيمة تولى الامير قسمتها على الفواد بعد ارسال الخمس الى بيت المال ثم اختلف ذلك مع الزمان باختلاف الدول . ففي الدولة الفاطمية بمصر كانوا اذا عاد الجند من حرب ومعهم الاسرى يصل الاسطول بالنيل الى شاطئ القاهرة فينزلون الاسرى ويطوفون بهم القاهرة ثم ينزلونهم في مكان كانوا يسمونه المناخ (في جهة الاسماعيلية اليوم) كان مستودعاً للاسرى الذكور فينظرون فيهم فاذا استراخوا في أحد قتلوه ومن كان شيخاً لا ينفع ضربوا عنقه وألقوا جثته في بئر كانت في خرائب

(١) نصح الطيب ١١٣ ج ١ وابن الاثير ٢٥٩ ج ٤ (٢) ابن الاثير ٢٧٢ ج ٤

(٣) ابن الاثير ٤٦ ج ١٠ (٤) ابن الاثير ٢٢٧ ج ٩ (٥) نصح الطيب ٢٠٩ ج ١

(٦) المقرئ ٣١٣ ج ١

مصر تعرف ببرّ النماء . وم . بقي يضاف الرجل منهم الى من في المناخ ويمضي النساء والاطفال الى قصر الخليفة بعد ما يعطى الوزير منهم طائفة ويفرق الباقي لخدمة المنازل . ويدفع الصغار من الاسرى الى الاستاذين فيربونهم ويعلمونهم الكتابة والراية ويسمونهم اذ ذاك « الترابي » وقد يرتقي أولئك الصبيان الى رتب الامراء (١)

ولم يكن استخدام الاسرى على هذه الصورة خاصاً بالمسلمين بل هي عادة كانت مرعية في تلك الأعصر فمن يقع من المسلمين في أيدي اعدائهم كان حظهم الاسترقاق حتى يفتردهم المسلمون وكان للخلفاء عناية في فكك الاسرى يبذلون في سبيله المال أو يعطون اسرى عندهم على سبيل المبادلة . وأشهر ما وقع من الفداء بين المسلمين والروم لان الحرب كانت سجلاً بينهما في البر والبحر يأسرون بعضهم بعضاً فاحتاج الخلفاء الى الفداء . وكان الامويون يقتدون أسراهم احياناً وعلى هلة النفر بعد النفر في سواحل الشام والاسكندرية ومطية وسار الثغور على الحدود . واول فداء منظم وقع في أيام بني العباس على يد الرشيد سنة ١٨٩ هـ وتوالى الفداء بعده بضع عشرة مرة في اثنا عشر سنة . وتزايدت عناية المسلمين في فكك اسراهم حتى أصبح أهل الورع من الاغنياء يعفون المال على فككهم (٢)

أما الروم فعلموا كانوا يقتدون أسراهم بالمال ولعل السبب في ذلك ان أولئك الاسرى يكونون في الغالب افيافاً من رعاياهم أو اجناداً من الغرباء المأجورين وليس من الروم انفسهم . أما المسلمون فهم غالباً المهاجرون فاذا ظفروا كانت غنائمهم من ذلك اللقيف واذا غلبوا فمن وقع في الاسر منهم كان من الحاربين الذين يستحقون الفداء والرابطة القومية بين المسلمين يومئذ اشد وثوقاً منها بين الروم ورعاياهم واجنادهم . على ان المسلمين كثيراً ما كانوا يأتون المال بدل الاسرى ولا سيما في الدولة الفاطمية ولا يعرف عن هذه الدولة انها فادت أسيراً من الافرنج بمال ولا بأسير مثله فكان ذلك من جملة البواعث على زيادة الارقاء عند المسلمين

فهل يستغرب بعد ذلك اذا استكثر المسلمون من العبيد والماليك فيباع عددهم عند بعضهم عشرة أو مئة أو الف . حتى الفقراء من عامة الجنود كان أحدهم لا يخلو من عبد أو بضعة عبيد يخدمونه (٣) وكان للفارس في عصر الايوبيين عشرة اتباع يخدمونه أو بضع عشرات الى مئة (٤) فكيف بالامراء والهواد حتى في صدر الاسلام فان الخليفة عثمان كان له الف مملوك مع عاملك بزهد الراشدين قبله (٥) فاعتبركم يكون عددهم في

(١) المقرئ ١٩٣ ج ٢ و ٤٨٩ ج ١ (٢) المقرئ ٧٩ و ١٩١ ج ٢

(٣) المسودي ٢٢ ج ٢ (٤) المقرئ ٩٥ ج ١ (٥) الدمري ٤٩ ج ١

أيام الثروة والترف فقد كان الأمير في الدولة الاموية إذا سار مشى في ركابه مئة عبد أو بضع مئات أو ألف عبد^(١) وبلغ عدد غلمان رافع بن هرمة والي خراسان سنة ٢٧٩ هـ ٤٠٠٠ عبد ولم يملك أحد من ولاة خراسان قبله مثله

اصناف الارقاء

وكانوا اذا تكاثر الارقاء عند احدهم وأراد استخدامهم في منزله جعل عليهم تقياً يتولى النظر في شؤونهم يسمونه الاستاذ . على أن الغالب في الغلمان اذا كثروا عند أمير أن يتخذهم جنداً يحرسونه فيعلمهم الحرب والقتال . فقد كان عند الاخشيدي صاحب مصر ٨٠٠٠ مملوك يحرسه في كل ليلة الفان . واكثر فرق الجند عند الامراء من غلمانهم وأصلهم من السبي والاصرى أو يبتاعونهم بالمال لهذه الغاية كما تقدم في كلامنا عن فرق الجند وربما بلغ ثمن المملوك ألف دينار

أما الباقون من الارقاء للخدمة في البيوت فيعلمونهم الصنائع اللازمة لتدبير المنزل فتنبهم الفراش والطباخ والحازن والوكيل أو النقيب والبواب والملاح والركابي وغيرهم^(٢) ومنهم الوصيف والمملوك وفيهم الرومي والتركي والفارسي والبربري والزنجي والصقلبي بين مجلوب ومولد من الذكور والاناث مما لا يحصى

واذا زادوا عما يحتاجون اليه في الخدمة أو الحراسة أو الحماية اتخذوا الغلمان منهم زينة لجالسهم وكان يفعل ذلك أهل السمة والدمار ولا سيما الخلفاء فانهم تأثقوا في تزيينهم بأنواع الالبسة المزخرفة مما لم يسبق له مثيل وأول من اقدم على ذلك الامين بن الرشيد فانه بالغ في طلب الغلمان ولا سيما الحصيان وابتاعهم وغالى فيهم وصيرهم لخلوته وزينهم مثل زينة الجوارى . ثم عار الاستكثار من الغلمان سنة عند الخلفاء فكان عند المقتدر بالله ١١٠٠٠ غلام أو مملوك وفيهم البيض والسود . فالبيض من الفرس والديلم والترك والطبرية وغيرهم والسود من النوبة والزغاوة يجلبونهم من مصر ومكة وافريقية . والزنج أصلهم من رجال صاحب الزنج الذي ثار بالبصرة وهم غنم فتح يأكلون لحوم الناس والبهائم الميتة وقد عوقبوا على ذلك فلم يرجعوا وكانوا منفردين لا يختلطون بالبيض ولكل طائفة نوبة في خدمة الخليفة بين حراسة وغيرها^(٣)



(٢) طبقات الاطباء ١٤١

(١) ابن الاثير ١٤٧ ج ٤ والاقافي ٣٧ ج ١

و ١٤٥ ج ١ (٣) تاريخ الوزراء ١٢

٢ — الخصيان

الخصاء عادة شرقية كانت شائعة قديماً بين الاشوريين والبابليين والمصريين القدماء وأخذها عنهم اليونانيون ثم انتقلت الى الرومان فالافرنج. ويقال أن اول من استنبطها سميراميس ملكة آشور نحو سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد - وكان المظنون أن الخصاء يذهب بقوة الرجولية وفي التاريخ جماعة من الخصيان اشتهروا بالشجاعة والسياسة وتولوا مناصب مهمة في أزمنة مختلفة منهم نارسس القائد الروماني الشهير في عهد يوستنيان في القرن السادس للميلاد وهرمياس حاكم اثارنية في ميسيا الشهير الذي قدم الفيلسوف ارسطو ذبيحة عن روحه غير ما ذكره فيه من القصائد . ومن اشتهر من الخصيان في الاسلام كافور الاخشيدي صاحب مصر . واشتهر منهم في الهند وفارس والصين جماعات كبيرة واستبد الخصيان في اواخر الدولة الرومانية استبداداً كبيراً وللخصاء أغراض أشهرها استخدام الخصيان في دور النساء غير عليهن . فلما ظهر الاسلام وغلب الحجاب على أهله استخدموا الخصيان في دورهم وأول من فعل ذلك يزيد بن معاوية فاتخذ منهم حاجباً لديوانه اسمه فتح واقتدى به غيره فشااع استخدامهم عند المسلمين مع ان الشريعة الاسلامية أميل الى تحريره على ما يؤخذ من حديث رواه ابن مظعون

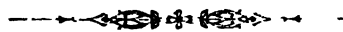
وكانت تجارة الرقيق شائعة في أوربا قبل الاسلام . ومن أسباب رواجها أن قبائل السلاف (الروسين) نزلوا في اوائل أدوارهم شمالي البحر الاسود ونهر الطونة ثم أخذوا ينزحون غرباً جنوبياً نحو واسط اوربا وهم قبائل عديدة عرفت بعدئذ بقبائل السلاف (أو السكلاف) والسررب والبوهيم والدملات وغيرهم . قاضطروا وهم نازحون ان يحاربوا الشعوب الذين في طريقهم كالسكسون والهون وغيرهم . وكان من عادات اهل تلك العصور ان يبيعوا اسراهم يبيع الرقيق كما تقدم فتألف لذلك جماعات كبيرة من التجار يحملون الاسرى عن طريق فرنسا فاسبانيا الى افريقيا ومنها الى الشام ومصر فلما وقعت هذه البلاد في ايدي المسلمين راجت تلك التجارة

فكان التجار من الافرنج وغيرهم يتناعون الاسرى من السلاف والجرمان من جهات المانيا عند ضفاف الرين والالب وغيرها الى ضفاف الدانوب وشواطئ البحر الاسود — ولا يزال اهل جورجيا والجر كس الى اليوم يبيعون اولادهم يبيع السلع — فاذا عاد التجار من تلك الرحلة ساقوا الارقاء امامهم سوق الاغنام وكلهم بيض البشرة على جانب عظيم من الجمال وفيهم الذكور والاناث حتى يحطوا رجالهم في فرنسا ومنها

ينقلونهم الى اسبانيا (الاندلس) فكان المسلمون يتعاونون الذكور للخدمة او الحرب والاناث للتسري . وغلب على أولئك الارقاء انتسابهم الى قبيلة السلاف وكانت تلفظ عندهم « سكلاف » فعرّبها العرب « صقلي » واصبح هذا اللفظ عندهم يدل على الرقيق الابيض بالاجمال . وكثيراً ما يرد لفظ الصقالبة في تاريخ الاسلام ويراد به الارقاء من قبائل السلاف والجرمان — وفعل الافرنج نحو ذلك أيضاً فاستخدموا هذه اللفظة لنفس هذا المعنى ومنها (Esclave) في الفرنسية و (Sklave) في الجرمانية و (Slave) في الانكليزية

ولما شاع الحجاب بين المسلمين في ابان سلطتهم واستخدموا الخصيان في دورهم عمد تجار الرقيق واكثرهم من اليهود الى خصاء بعض الارقاء وبيعهم بأثمان غالية فراجت تلك البضاعة وكثر المشتغلون بها وانشأوا « لاصطناع » الخصيان معامل عديدة . اشهرها « معمل » الخصيان في فردون بمقاطعة اللورين في فرنسا . كانوا ينجسون أولئك المساكين وهم أطفال فيموت كثيرون منهم على اثر العملية فن بقي حياً ارسلوه الى اسبانيا فيشتريه السكراء بثمان كبير . واصبحوا بتوالي الازمان يتهادون الخصيان كما يتهادون الخيل أو الاثا أو الانية فكان ملوك الافرنج اذا ارادوا التقرب من خليفة المسلمين في الاندلس أو غيرها اهدوه التحف ومن حملها الخصيان كما فعل ملكا برشلونة وطركونة لما طلبا تجديد الصلح من المستنصر خليفة الاندلس فأنهما أهدياه ٢٠ خصياً من الصبيان الصقالبة و ٢٠ قنطاراً من صوف السمور الخ . فتكثر الخصيان في بلاط الخلفاء حتى تألفت منهم فرق لحراسة الخاصة كما تألفت الفرق من سائر الممالك والبيد . فاداً احتفل الخليفة ببيعة أو نحوها كان الممالك والخصيان زينة ذلك الاحتفال

وراجت تجارة الصقالبة في ابان التمدن الاسلامي وكل ما كان يفد على المملكة الاسلامية منهم يستجلب من الاندلس لانهم كانوا ينجسون بالقرب منها . غير ما يحمولونه من الصقالبة من جهات خراسان مما يسببه الحراسانيون ويحمولونه للبيع . لان بلد الصقالبة طويل يسببه الافرنج من الغرب والحراسانيون من الشرق ^(١)



٣ - الجواري

تكاثرهن

للجواري شأن كبير في تاريخ التمدن الاسلامي لا يقل عن شأن العبيد والموالي . وأصل الجواري ما يسيبه الفاتحون في الحرب من النساء والبنات فهن ملك الفاتحين ولو كن من بنات الملوك أو الدهاقين يستخدمونهم أو يستولدونهن أو يتصرفون في بيعهن تصرف المالك بملكه ^(١) ولما افضت احوال المسلمين الى الترف والقصص وتدقت الاموال من خزائن الخلفاء والامراء جعلوا يتهادونهن كما يتهادون الحلي والجواهر . فمن أحب التقرب من كبير أهدى اليه جارية أتقنت صناعة يعلم انه راغب فيها - فاذا علم مثلاً انه يحب الجمال أهداه وصيفة جميلة أو علم منه ميلاً الى الغناء أهدى اليه فينخرجه الصوت وقد يهديه عدة جوار أتقن عدة صنائع وربما صارت احداهن بعد حين أم ذلك المنزل وصاحبة الامر فيه اذا استولدها سيدها . واذا كانت في دار خليفة لا يبعد ان تصير من أمهات الخلفاء كما اتفق لاكثر خلفاء بني العباس - ذكروا ان جارية اسمها دنابير صفراء صادقة الملاحظة كانت أروى الناس للغناء القديم وقد خرّجها رجل من أهل المدينة فاشتراها جعفر البرمكي وسمع الرشيد صوتها فألفها وصار يسير الى جعفر لسماع غنائها ووهب لها هبات سنوية . وعلمت امرأته زبيدة بنحبرها فشكته الى عمومته فلم ينجحوا في ارجاعه فرائت أن تشغله عنها بالجواري فاهدت اليه عشر جوار منهن مارية أم المعتصم ومراجل أم المأمون وفاردة أم صالح ^(٢)

وكثيراً ما كان العمال والامراء ينفرون الى الخلفاء بامثال هذه الهدايا فاهدى ابن طاهر الى الخليفة المتوكل هدية فيها ٢٠٠ وصيفة ووصيف ^(٣) فلا غرو اذا تكاثرن في قصور الخلفاء والامراء واهل الوجاهة . وليس الاستكثار منهن حادثاً في الاسلام وانما هو من بقايا التمدن القديم فقد كان ملوك الفرس والروم يتهادونهن وبلغت عدتهن عند بعض الاكاسرة ٦٠٠٠ جارية ^(٤) وكان للعباس الف جارية وسيأتي بسط ذلك في مكان آخر

اصناف الجواري

فلما تعود الناس اقتناء الجواري اشتغل النحاسون في استجلابهن من اقصى بلاد الترك والهند والكرج والخطا وأرمينيا والروم والبربر والنوبة والزننج والحبشة صفاراً وكباراً

(١) ابن خلكان ٣٢٠ ج ١ (٢) الاغانى ١٣٧ ج ١٦ (٣) المسعودي ٢٨٠ ج ٢

(٤) المسعودي ١١٥ ج ١ وترتيب الدول ١١١

يربونها على ما تقتضيه مواهبهن أو جمالهن فينبغ منهن الخدم والحواضن والمواشط والولائد والمغنيات والموادات والعلامات وأمهات الدهاء والسياسة وغير ذلك . وفيهن البيضاء والسمراء والحمراء والبربرية والزنجية بين مولدة في البصرة أو الكوفة أو بغداد ممن يفصحن العربية ومجولة من أرضها أو سبية أخيشدة على حالها تتكلم التركية أو الفارسية أو الرومية أو الهندية أو البربرية ولا تزال ولو تعربت اعجمية اللسان . والمولدة آمن من الجليلة وتختلف أثمانهن باختلاف الصناعة أو الجمال وباختلاف الغرض من ابتاعهن للتوليد أو الغناء أو الخدمة . وفي الجلليات النصرانية واليهودية والجوسية لكل منهن شأنها في دينها حتى يعيذن اعيادهن بما يستلزمه العيد من الزينة الدينية كالصلبان والاحجية ونحوها — ذكر احمد بن صدفه انه دخل على المأمون في يوم الشعانين وبين يديه عشرون وصيفة جلباً روميات مزررات قد تزين بالدياج الرومي وعلقن في اعناقهن صلبان الذهب وفي ايدهن الخوص والزيتون^(١)

على أهم كانوا يختصون كل صنف من الجواري بصفات خاصة وقد صنفوا كتباً في هذا الموضوع يبنوا فيها الصفات المستحسنة في كل صنف منهن وخلاصة ذلك قولهم : من أراد النجابة فبنات فارس ومن أراد الخدمة فبنات قيصر ومن أراد غير ذلك فبنات بربر والمولدات والزنجيات للزمر والحبيشيات للحفظ وخزن المال والثوبة للطبخ والارمن للتربية والرضاع . ومن اقوالهم الوجوه في الترك والاحسام في الروم والشعور في الخطا وقارس والعيون في الحجاز والخصور في اليمن^(٢) وقالوا في وصف المولدات بالبصرة والكوفة انهن ذوات اللسن العذبة والفدود المهففة والواسط المحصرة والاصداغ المزرقنة والعيون المسكحلة^(٣) مما يطول شرحه . وكانت تجارة الجواري على اروجها في بغداد فكانوا يحملون اليها اجملهن خلقاً واذكاهن عقلاً لما يتوقعونه من بيعهن بالاثمان الباهظة

تعليم الجواري

وكان تعليم الجواري وتربيتهم من ابواب الكسب الواسعة في ذلك العصر فيذهب اُحدهم الى دار الرقيق يبتاع جارية يتوسم فيها الذكاء فيثقفها ويرويها الاشعار او يلقها الغناء او يحفظها القرآن او يعلمها الادب او النحو أو العروض أو فنّاً من فنون المنازل ثم يبيعها . وكان يفعل ذلك على الخصوص المتنون المشهورون بدقة الصناعة كبراهيم الموصلی وابنه اسحق فربما ابتاع اُحدهم الجارية بمئة دينار فاذا علمها وثقفها باعها بمئتمائة

(١) الاغانى ١٣٨ ج ١٩ (٢) ترتيب الدرر ١١٢ (٣) المسمودي ١٥٤ ج ٢

او الف دينار^(١) واشهر المغنيات في المدينة والبصرة وبغداد تعلمن على هذه الصورة . وقد يربي بعضهم الجارية ويهديها الى الخليفة او الوزير لتكون وسيلة له في نفوذ الكلمة عنده . وقد تنبغ احدهن في فن من الفنون الجميلة كالغناء او الشعر او الادب فتباع بالوف الدناير^(٢) . فكيف اذا اتقنت غير فن منها . وربما نبغت منهن من تحميد الشعر والغناء او فنون الادب والاخبار فيقصدها اهل الادب وذو المروءة للمذاكرة والمساجلة في الشعر وغيره وقد ينبغن في حفظ القرآن حتى كان منهن عند ام جعفر مئة جارية لكل واحدة ورد عشر القرآن وكان يسمع في قصرها كدوي النحل من القراءة^(٣)

فتعدد الجواري في دور الكبراء وتسابق اهل الترف الى التفتن في تزيينهن . واشهر من فعل ذلك ام جعفر المذكورة فانها لما رأت انها يغالي في تخنيث الغلمان والباسهم ملابس النساء اتخذت طائفة من الجواري ستمهن بالمقدودات عومت رؤوسهن وجملت لهن الطرر والاصداق والاقفية والبسطن الاقبية والعراطق والمناطق كانهن من الغلمان واقتدى بها وجهيات قومها فأتخذن الجواري الغلاميات او المتطمومات والبسوهن الاقبية والمناطق الذهب^(٤)

نفوذ الجواري

وطبيعي في ربات الحسن ان يكن نافذات الكلمة لان الجمال قوة والحب سلاح ولذلك كان ارباب الدهاء من الخلفاء والامراء يتباعدون عن الجواري اذا اهدي الى أحدهم جارية لم يلتفت اليها ولا سيما مؤسسي الدول كـماوية والمنصور وعبد الرحمن الداخل . فاشتهر المنصور بكرهه للهو وكان عبد الرحمن اذا اهداه أحد جارية رددها^(٥) وعكس ذلك خلفاء واسط الدولة ابان الترف والقصص والرخاء فانهم كانوا يتمادون في حب الجواري حتى يتسلطن على عقولهم كما فعلت حباة يزيد بن عبد الملك الاموي حتى كادت تذهب بعمله وشغلته عن مهام الخلافة . وكما فعلت ذات الخال بالرشيد فانها ملكت قياده حتى حلف يوماً انها لا تسأل شيئاً في ذلك اليوم الا قضاء لها فساتنه ان يولي حويه الحرب والخراج بفارس سبع سنين ففعل وكتب له عهده به وشرط على ولي عهده بعده ان يتمها له ان لم تتم في حياته^(٦) وكثيراً ما كان الخلفاء والامراء

(١) الاغاني ١٥٤ ج ٨ (٢) الجزء الثاني من هذا الكتاب صفحة ١٢٨ (طبعة ثالثة)

(٣) ابن خلكان ١٩٠ ج ١ (٤) المسعودي ٣٦٦ ج ٢

(٥) تنح الطيـ ٧٠٩ ج ٢ (٦) الاغاني ٨٠ ج ١٥

يشتغلون بالجواري عن رعاية الملك ولا سيما المغنيات ولذلك كان رجال الحيلة يستخدمونهن للجاسوسية أو نيل رتبة أو منصب وكان المأمون يدس الوصائف هدية ليطلعنه على اخبار من شاء^(١) ويزداد الجواري نفوذاً وسطوة اذا صرن امهات كما صارت الخيزران وغيرها من امهات الخلفاء — راجع الجزء الثاني والرابع من هذا الكتاب وسيأتي الكلام على المغنيات في باب المغنين

طبقات العامة

فرغنا من طبقات الخاصة واتباعهم ونحن متكلمون عن العامة وهم اكثر عدداً وأبعد عن الحصر لانهم اقيف من امم شتى ولا سيما في بغداد في ابلان عمارتها وقد تفاعل اليها المرتزقون والمحترفون والمستجدون من اطراف المملكة الاسلامية بين صانع وبائع وفيهم العربي والنبطي والفارسي والخرساني والتركي والسندي والرومي والكرجي والارمني والكروي والقبطي والبربري والنوبي والزنجي والاندلسي وغيرهم. وفيهم اهل الحرف الراقية والسافاة وتجار السلع والاقشة والجواهر والرقيق وباعة الطعام والشراب فضلاً عن الادباء والشعراء والحكماء والمغنين والندماء مما يطول شرحه ويعسر حصره . على اننا تسهيلاً للبحث نفهم العامة على الاجمال الى طبقتين كبيرتين الاولى طبقة المقربين من الخاصة والثانية طبقة الباعة واهل الحرف والرعا وغيرهم

الطبقة الاولى

المقربون من الخاصة

ريد بهذه الطبقة نخبة العامة الذين تسمو بهم نفوسهم او عقولهم الى التقرب من الخاصة بما يعجبهم أو يطربهم فيستظلون بهم ويمشون من عطاياهم أو رواتبهم أو يرتزقون من بيع سلهم عليهم وهم أربع فئات اهل الفنون الجميلة والادباء والتجار والصناع

١ — اهل الفنون الجميلة

المصورون

الفنون الجميلة ويسمىها العرب « الاداب الرفيعة » ثلاثة : التصوير والشعر والموسيقى. فالتصوير لم يكن له شأن كبير في التمدن الاسلامي لورود القول بتحريمه وانما كانوا يصورون ما يصورونه في الدولة الاموية والعباسية يقلدون به ما بين ايديهم من تصوير الروم والفرس أو ما جاء به السلاجقة من صناعة المغول من اواسط تركستان. على ان التصوير ازهر وارتقى في بلاد فارس بعد اجتماع كلمة الفرس تحت سيطرة المغول على أثر فتح هولاكو بغداد سنة ٦٥٦ هـ فان تلك الصناعة اخذت بالارتفاع من ذلك الحين لان المغول المشار اليهم اتوا معهم مهندسين من اهل الصين تولوا هندسة حصار بغداد ومعهم جماعة من ارباب الفنون الجميلة والرياضيات والصناعات الدقيقة فاستفاد الفرس منهم واتقنوا هذه الفنون وفي جملتها التصوير ونشروه في سائر ممالك المسلمين وزينوا به كتبهم وجدران قصورهم ومذبحاتهم في بلاد فارس ومصر وتركستان وغيرها^(١) وفي دور الكتب الكبرى في مدائن العالم المتمدن اليوم أمثلة من هذه الصور ملونة تلويناً بديعاً أكثرها تمثل حوادث بعض كتب التاريخ أو الادب أو العلم. وبعضها تمثل رسوماً خيالية كصورة المعراج ونحوها. ففي دار الكتب السلطانية بالقاهرة صور ملونة هي عبارة عن أشكال زينوا بها كتاب الشاهنامة للفردوسي وعجائب المخلوقات للقرطبي وغيرها. اما في ابان التمدن الاسلامي فلم يكن لاهل هذه الصناعة سوق عند الخاصة الا من اشتغل منهم بهندسة الابنية ولا سيما في الاندلس وأما الشعر والموسيقى فقد راجا وتقرّب اصحابهما من الخلفاء وسائر طبقات الخاصة واكتسبوا بهما الاموال الطائلة وقد بينا في الجزء الثالث من هذا الكتاب ما هو الشعر العربي وما أصله وما كان شأنه في الجاهلية وما آل اليه بعد الاسلام من عصر الراشدين فالامويين فالعباسيين وسائر دول الاسلام وعن جمع الشعر ورواياته وطبقات الشعراء في الاسلام واشعارهم والشعر وتأثيره في الدولة والشعر والخلفاء والامراء وغير ذلك — وسيأتي الكلام عما كان الشعراء يصيرونه من الاوال — بقي علينا النظر في الموسيقى واهلها وهم المغنون



٢ - المغنون

الفناء قبل الاسلام

الفناء طبيعي في الالم لانه لغة النفوس وترجمان العواطف وكل أمة غناؤها يناسب طبائعها وعاداتها فالعرب الجاهلية كانوا أهل ماشية وانعام وخيام فلم ينزبهوا الى شيء من الفنون الجميلة غير الشعر . وكانوا يلهجون به ويطربون بتأثيره بلا ترتيب ولا شئنا وتلك أول خطوة خطوها نحو الموسيقى لانها بنت الشعر أو اخنه

ثم ظهر قديمهم « الحداة » وهو غناء يتغناه الحداة في سوق ابلهم والفتيان في فضاء خلواتهم ثم عمدوا الى « الترنيم » . وكان ترنيهم على نوعين « الغناء » وهو ترنيهم الشعر و « التغبير » (بالغين والباء) وهو ترنيهم المرأة لعير الشعر

ثم تنوع الفناء عندهم حتى صار على ثلاثة أوجه أو ثلاثة ألحان أو اصوات وهي النصب والسناد والهرج . « فالنصب » يريدون به غناء الركبان وغناء الفتيان وهو الذي يقال في المراثي ويسمى « الفناء الجباني » نسبة الى رجل من قبيلة كلب اسمه جناب ابن عبد الله يزعمون ان أصل الحداة منه وهو يخرج من الطويل في العروض . و « السناد » اللحن الثقيل ذو الترحيع الكثير التغمات والنبرات . وهو على ستة طرق منها الثقيل الاول وخفيفه والتجميل الثاني وخفيفه . وأما « الهزج » فهو الحفيف الذي يرقص عليه ويمنى بالدف والمزمار فيطرب ويستخف الحلوم . وشاع الفناء قبل الاسلام في أمهات المدن من بلاد العرب وهي المدينة والطائف وخيبر^(١)

اما آلات الموسيقى عندهم فاشهرها الدف وهو أشكال منها المستدير والمربع والكبير والصغير . والمزمار على أبسط أنواعه . ولا يظهر انهم كانوا يعرفون غير الدف والمزمار وما يفرع عنهما من آلات النفخ والقرع . وأما آلات الاوتار كالعبدان والطنابير والمعازف ونحوها فهي من صناعة الفرس والروم لم يعرفها العرب الا بعد الاسلام

الفناء في الاسلام

فلما جاء الاسلام واستولى العرب على ممالك الدنيا وحازوا سلطان العجم والروم كانوا في عصر الراشدين لا يزالون على بداوتهم مع غصارة الدين وشدة مما يدعو الى ترك أحوال الفراغ وما ليس نافعا في دين ولا معاش حتى تركوا ما كان عندهم من انعام الجاهلية ولم يكن المذوذ عندهم الا ترحيع العرارة والترنم بالشعر . فلما جاءهم الترف في أيام بني أمية ومن بعدهم وغلب عليهم الرفه بما حصل لهم من غنائم الالم صاروا الى

(١) الفتحة الفريد ١٨٦ ج ٣

فضارة العيش ورقة الحاشية واستحلاء الفراغ . وكان المغنون من الروم والفرس قد دخلوا في سلطان العرب وحمل بعضهم الى الحجاز في جملة الاسرى أو السبابا فاصبحوا من موالي العرب وقد حملوا معهم العيدان والطنابير والمغازف والمزامير فغنوا بها فاعجبوا بألحانهم فاشتعل المغنون واكثرهم من الموالي في تلحين أشعار العرب على الالحن الفارسية او الرومية فتبع في المدينة في ايام بني أمية طائفة من المغنين . والمشهور ان أول من ادخل غناء الفرس الى العربية سعيد بن مسجح وهو مكى اسود كان في مكة لما حاصرها الامويون وفيها ابن الزبير في أواخر القرن الاول للهجرة فاستقدم ابن الزبير بعض البنائين من الفرس لترميم الكعبة فسمعهم سعيد بن مسجح يغنون بالفارسية فالتقط النغم وغناه بالعربية فاعجب الناس كثيراً فسافر الى الشام وفارس فاتمن فن الغناء وغنه اخذ من جاء بعده من معني المدينة وغيرها . وشاع الغناء في المملكة الاسلامية وواجت بضاعته باتساع اسباب الحضارة والرخاء وتكاثر المغنون لما ساهدوه من رغبة الخاصة بالغناء فتبع جملة من مهرة الموسيقيين اتقنوا هذه الصناعة وآلأها اتقاناً حسناً على ما يذاه في الجزء الثالث من هذا الكتاب صفحة ١٩١ وانما يهمنا الآن النظر في تاريخ انتشار المغنين في الاسلام وما كان من منزله و منزلتهم

العناء والدين

كان الغناء في صدر الاسلام مكروهاً ان لم نقل محرماً واختلف الأئمة في تحريمه وتحليله كله او بعضه . ويقال بالاجمال ان أهل الحجاز اجزوه وأهل العراق كرهوه وحجة من احلّه ان أصله الشعر الذي امر النبي به وحض عليه وندب اصحابه اليه وتجنّد به على المشركين فقال لحسان شاعره « ش العارة على بني عبد مناف فوالله لشعرك أشد عليهم من وقع السهام في علس السلام » واكثر شعر حسان يغنى به . وحجة من حرّمه انه يسعر الغلوب ويستفز العمول ويستخف الحام وييمث على اللهو ويحض على الطرب وهو باطل من اصله ^(١) وحلل آخرون بعض الغناء وحرّموا بعضه ولكن اهل التعقل والتهوى كانوا يكرهونه في كل حال ولذلك لم يظهر الا بعد عصر الراشدين . وكان معاوية بن ابي سفيان يهيب على الراغبين في الغناء ولا سيما اهل الوجاهة والشرف وله مع عبد الله بن جعفر حكاية تدل على ما عابه عليه من استماع الغناء ^(٢) وان سره استغال هذا وسواد من اهل النبي باللهو والطرب عن مقاومته في طلب الخلابة — بل هو كان يبذل لهم الاموال في هذا السبيل

ولما تولى الخلابة اصحاب اللهو والقصف اخذ الغناء في الانتشار واول من اباحه

ونشط أهله يزيد بن معاوية . ففي أيام يزيد هذا (سنة ٦٠ - ٦٤ هـ) ظهر الغناء في مكة واستعملت الملاهي لانه كان صاحب لهُو وطرب ^(١) وتفشى الغناء الجديد في الحجاز ولا سيما المدينة . وما زال محصوراً فيها تقريباً حتى أفضت الخلافة الى الوليد ابن يزيد بن عبد الملك (سنة ١٢٥ - ١٢٦ هـ) وكان صاحب شراب ولهُو مع تهتك وخلاعة فبعث الى المدينة في استقدام المغنين اليه في دمشق ^(٢) فاخذ الغناء بالانتشار في بلاد الاسلام من ذلك الحين

معاوية الخلفاء للغناء

على ان اهل التعقل من الخلفاء أو الامراء كانوا لا ينفكون عن منعه جهد طاقتهم وكان العقلاء غير الحكم يحرضون الولاة على منعه حتى في المدينة معدن الغناء في ذلك العصر ^(٣) وكثيراً ما كان أمير مكة يخرج المغنين من الحرم خوفاً من افتتان الناس بغنائهم ^(٤) وصرّهم عن امور دينهم ولم يكن اهل الغيرة على العرض يصبرون على صمائه ومن اقوالهم « المغنون رسل الغرام »

ذكروا ان سليمان بن عبد الملك وكان يكره الغناء سمع مغنياً في عسكره فطلبه فجأؤوه به فقال « أعد ما غنيت » فتعنى واحتفل فقال سليمان « والله لكأنها جرحرة الفحل في الشول وما أحسب أنني تسمع هذا الا صبت اليه » ثم أمر به بنحسي ^(٥) وسليمان هو الذي أمر بنحسي الخنثيين في المدينة لمثل هذا السبب - قيل انه كان في بادية له يسمر ليلة على ظهر سطح وقد تفرق عنه جلساءه فدعا بوضو - فجاءت به جارية فيديها هي تصب عليه لحظ ان ذهنها مشعل عنه بغناء تسمعه فتجاهل . وفي الصباح ذكر الغناء ولين فيه حتى ظن الفوم انه يستهيه فأفاضوا فيه وذكروا من كان يسمعه ومن يغنيه حتى توصل الى الرجل الذي شغلت الجارية بغنائه في الامس . فلما تحقق ذلك أقبل على الفوم وقال « هدر الجمل فضبت الناقة ونبت التيس فسكرت الشاة وهدر الحمام فراقت الحمامة وغنى الرجل فطربت المرأة » ثم أمر به بنحسي وسأل عن الغناء أين أصله فقبل « في المدينة بجماعة الخنثيين وهم أخته والحذاق فيه » فكتب الى عامله هناك « اخض من قبلك من الخنثيين المغنين ، نخضاهم ^(٦) »

على ان المتهتكين من الخلفاء والامراء لم ينكروا ما يجبر اليه الغناء من أسباب اللهُو قال الوليد بن يزيد الذي ذكرنا انه أول من استقدم المغنين اليه « اياكم والغناء فانه

(١) المسعودي ٦٨ ج ٢ (٢) العقد الفريد ٢٦٩ ج ٢ والمسعودي ١٣٣ ج ٢

(٣) العقد الفريد ١٩٦ ج ٣ (٤) الاغانى ١٣٠ ج ٢ (٥) الكامل للبهراني ٣٧٧

(٦) الاغانى ٦١ ج ٤

ينقص الحياء ويزيد في الشهوة ويهدم المروءة ويثور على الحرم ويفعل ما يفعله المسكر فان كنتم فاعلين فجنوبه النساء فان الغناء رقية الزنا واني لأقول ذلك فيه على انه أحب الي من كل لذة وأشهى الي من الماء البارد الى ذي الغلة ولكن الحق احق ان يقال « (١) فكيف بالعلاء وأهل الحزم ومؤسسي الدول أو معييديها مثل معاوية وهشام والمنصور وابي مسلم أو أهل التقوى مثل عمر بن عبدالعزيز الاموي والمهتدي العباسي. ففقد تقدم ما عابه معاوية على ابن جعفر. أما هشام فسمع عن اشعب المضحك في المدينة فامر كاتبه ان يكتب باستعداده فلما ختم الكتاب اطرق هشام طويلاً ثم قال « هشام يكتب الى بلد رسول الله ليحصل اليه مضحك ؟ » ويمثل

اذا انت طلاوت الهوى قاده الهوى انى بعض ما فيه عليك مقال
وأوقف الكتاب (٢). وأما المنصور ففقد كان يمير آل الزبير بمجهم الغناء (٣) وسمع ذات يوم ضرب طنبور في داره فكمره على صاحبه. اما عمر بن عبد العزيز فبلغه ان قاضياً من قضاته استخفه الطرب من الغناء فأمر بمزله (٤). والمهتدي العباسي كان يتشبه بهمر المذكور فلما تولى الخلافة سنة ٢٤٥ هـ كانت الملاحية قد انتشرت في الدولة العباسية فأمر بمنع الغناء (٥) وربما امتنعوا عنه الى أجل ربنا يصفو لهم الزمان كما فعل المأمون لما عاد من خراسان وقد همه تأييد خلافته فبقي عشرين شهراً لا يسمع غناء (٦) وكذلك الامراء العلاء مثل خالد القميري فانه امر صاحب شرطته بمنع الغناء من العراق (٧)

اشتمال الخلفاء بالساء

ولكن ذلك لم يكن لينع تيار الترف من مجراه الطبيعي على ما اقتضته الحضارة في ذلك العهد. فالمسلمون لما تحضروا وأخذوا الى السكينة والراحة عمدوا الى اسباب الرخاء وفي جملتها الغناء والمرجع في ذلك الى الخلفاء والامراء لان الناس على دين ملوكهم ولا سيما في الحكم المطلق فاذا احب الخليفة الغناء أحبه رجال دولته. فراجت بضاعته وكثر المعنون والمغنيات حتى اشتغل الخلفاء واهلهم به وتعلموا الضرب على آلاته واول من دونت صنعته به عمر بن عبد العزيز في ايام امارته على الحجاز ثم الوليد بن يزيد وله اصوات اشتهرت عندهم واشتغل جماعة من خلفاء بني العباس بصناعة الاطنان والتلحين اشهرهم الواثق والمتنصر والمتز والمعتد والمعتضد. اما ابناء الخلفاء فأول من

(١) الاغانى ١٣٤ ج ٦ (٢) المسعودي ١٣١ ج ٢ (٣) الاغانى ١١٥ ج ١٣

(٤) المسعودي ١٢٢ ج ٢ (٥) فوا - الوفيات ٣٧١ ج ٢ (٦) الاغانى ١٠٦ ج ٥

(٧) الاغانى ١٢٣ ج ٢ و ٦٣ ج ١٩

دونت صنعته فيه ابراهيم بن المهدي واخته عليّة بنت المهدي وأبو عيسى بن الرشيد وعبد الله ابن موسى الهادي وعبد الله بن محمد الأمين وأبو عيسى بن المتوكل وعبد الله بن المعتز وغيرهم . ففس على ذلك ما كان في زمن بني أمية ولا سيما في عصر الانحطاط حتى كانوا يحملون المغنين وآلاتهم في اسفارهم ولو الى القتال فقد وجدوا في معسكرهم لما ظفر به العباسيون بمواحي أصهان سنة ١٣١ هـ ما لا يحصى من البرابط والطناير والمزامير ^(١) فالغناء المطرب من حيلة ما اقتبسه المسلمون من البلاد التي فتحوها فاشتغلوا بنقل كتب الموسيقى من الفارسية والهندية ^(٢) وحملهم الترف على سماعه والولوع به فتقرب به اليهم جماعة من العامة صار لهم مقام رفيع بين الجلساء — وسنعود الى ذكرهم

٣ العلماء والادباء والفقهاء

هم طائفة من العامة تعربوا الى الحلفاء بما يلذ لهم من سماع الاخبار والنوادر او النظر في علوم تلك الايام الدينية او اللسانية أو الادبية أو التاريخية . ويدخل في ذلك الفقهاء والمحدثون والنجاة والادباء من اصحاب الاخبار كالاصمعي وأبي عبيدة والكسائي والفراء وغيرهم وكان للخلفاء رعية في مجالستهم وسماع أخبارهم فكانوا يفرجونهم ويعظمون شأنهم . يحجزونهم ويفرضون لهم الاعطية والرواتب على ما سنينته في باب أجرة الدولة . وقد تكلمنا عن الفقهاء ومزلتهم في اماكن كثيرة من هذا الكتاب واقتدى بالخلفاء وزرأوهم وأمرأوهم كالبرامكة وآل الفرات فانهم أغدقوا الاموال على هؤلاء فنشطوا العلم واهله ريثما صار العلم صناعة يرتزق بها أصحابها من الناس . ويدخل في ما تقدم المترجمون من غير المسلمين وفيهم السريان والروم والفرس وغيرهم ممن نقل العلوم القديمة الى اللغة العربية في العصر العباسي فانهم فئة من اهل الذمة قربهم الحلفاء واكرمهم من اجل علمهم على ما فصلناه في الجزء الثالث من هذا الكتاب

٤ — التجار

نريد بالتجار باعة السلع الثمينة التي تقتضيها الحضارة كالجواهرات والمصوغات والرياش الثمين والنيساب الفاخرة والالاية والرقيق . واكثر ارتزاقهم من الخليفة واهله واهل دولته وسائر الخاصة من جلسائه وأعوانه . وكانوا يقيمون في بغداد والبصرة وغيرها

من المدن الاسلامية واكثرهم من جالية الفرس والروم وغيرهم من الامم الراقية . كانوا يحملون الى دار السلام أصناف التجارة الارتراق مما يتدفق من خزان الدولة في عصر الثروة

فكانوا يحملون الياقوت والماس من بلاد الهند والؤلؤ من البحرين والعقيق والعاج من الحبشة . والادهان والزيتون العطرية من نيسابور ونسيج الكتان من شينيز . وطرارز الوشي والثياب المنسوجة من الشعر التي يصنع منها ثياب مثقالية يلبسها الخليفة ورجال الدولة والكلل المرتفعة والستور المعلمة من القز — هذه كلها من فسا . والبسط والنخاخ والمصليات والزلائي من جهرم . والستور والمقاعد من دشت . واحسن أصناف البسط والتكك الرفيعة والوسائد والأعماط والمقاعد من ارمينية . وكان لهم صبغ من العرمرز يصبغون به الصوف لامثيل له . والعتابي والوسني وسائر ثياب الحرير من أصفهان . والثياب المنيرة من الري . والابرسم ومطارف القز وطباق الخشب من طبرستان ونيسابور . والسمور الود وجلود الحر وجلود الثعالب السود من بلاد الروس . والبز من باخ . والكاند والنوشادر والاوزار والسمور والسنجاب والثعالب من وراء النهر وكذلك المسك ولكن أصله من بلاد التبت . والبسط والمصليات وثياب الصوف من بخارا . والديبقي من تنيس ودمياط . والستور والبسط المصرية من الهندسا . والعليايسة المفورة الرفيعة من كرمات . والحصر والمباطي والقرطيس من مصر . والمناديل الديلمية البيضاء المعلمة من قومس — ربما بلغ ثمن المنديل منها ٢٠٠ درهم . والمنايع الفريات من جرجان والسوس . والبرود المنيرة والفصاع والامشاط من الري . والاكسية والجوارب من قزوین . والحفاف والسمور من همدان . والزجاج والحزف من البصرة . والحصر من عبادان . والديباح والاعماط من تستر . والجلود المدبوغة من الحبشة بطريق اليمن . والمسك والكافور والعود من الصين

اما الرقيق فأبيضه كان يحمل من وراء النهر وأصله من الصقالبة أو من الحزر الأتراك من بادية تركستان واحسنهم يربي في سمرقند وخوارزم ثم يحمل الى بلاد الاسلام . ويحمل الرقيق الابيض أيضاً من الاندلس وفيه الجواري والغلمان وأصلهم من سبي الافرنج وجلفية أو من الصقالبة كما تقدم . ومن الرقيق الابيض صنف كان يرد من خراسان غال جداً وربما يبيع الغلام منه بمخمسة آلاف دينار . اما الرقيق الاسود فكل ما يحمل منه الى بلاد الاسلام من السودان بطريق مصر أو بلاد المغرب

وكان لهذه التجارات قوافل أو سفن تنقلها من الشرق والغرب والشمال والجنوب وتبيعها في اسواق بغداد وغيرها من المدن الاسلامية . واكثر الناس اشتغالا بنقلها في البر

طائفة من التجار اليهود الرأذانية كانوا يتقنون اللغات الرأحية في ذلك العصور هي العربية والفارسية والرومية والافرنجية والاندلسية والصقلية ويسافرون بين الاقاليم العامة يحملون التجارات من اقليم الى آخر^(١) كما كان الفينيقيون في ابان دولتهم أما التجارة البحرية فاشهر اصحابها السيرافيون فقد كانوا يحملون الجواهر والعاج والابنوس والفلفل والصندل والعود والعنبر والكافور وسائر الاطياب والعقاقير والتوابل من الهند والصين وشواطئ افريقيا وجزائر الهند واليمن وغيرها الى البصرة ببغداد^(٢) فكان التجار يمدون على دار السلام بهذه التجارات فيبيعونها بالاثمان الفاحشة . ويدخل في هذه الطبقة من الناس الصيارف واكثرهم من اليهود وكانوا يعرضون رجال الدولة المالك بالربا الفاحش . اشتهر منهم في بغداد مصارف كبرى كانت مكاسبهم موقوفة على الدولة ورجالها كآل قنخاس وآل عمران وغيرهم

تجار المسلمين

فلما نضح التمدن الاسلامي واشتغل المسلمون انفسهم بالتجارة لم يعصروا في شيء من شروطها واتقوها علماً وعملاً حتى ألفوا الكتب فيها وفي الاقتصاد السيامي . وبين يدينا نسخة من كتاب « الاشارة الى محاسن التجارة » لشيخ ابي الفضل جعفر بن علي الدمشقي من أهل القرن الخامس للهجرة فيه فوائد اقتصادية لم يسمعه أحد اليها وابحث في معنى النقود والسلع والمال الصامت والاعراض وتحقيق ائمان الاشياء ما لا تقل قيمته عما بلغ اليه علماء الاقتصاد في هذا العصر — يدل ذلك على ما بلغ اليه المسلمون من الرقي في علم التجارة ناهيك باهل الرحلة منهم الى اطراف المعمور في ذلك العصر فقد طافوا العالم برأ وبحراً من القرن الرابع للهجرة ودونوا رحلاتهم تسهيلاً لاسباب التجارة واكتشفوا طرقاً تجارية في البحر المحيط والبحر الهندي والبحر الاحمر وفي أواسط افريقيا وآسيا لم يسبقهم اليها أحد

أما الاسفار التجارية فقد كانوا فيها سلاطين البحار فبحرت سفنهم البحر الابيض على كل شواطئه والبحر الاحمر الى آخره والبحر المحيط الى سومطرا فزنجبار الى بلاد الكفرة وشرقاً الى كلكتة وجزائر الهند والصين وجنوباً الى مداغسكار وسائر شواطئ افريقيا الشرقية واجتازوا بحر قزوين الى بلاد الخزر والروس . أما برأ فاخترقوا بلاد الهند وتركستان والتبت حتى نزلوا بلاد الصين . واوغلوا في افريقيا الى خط الاستواء فغربوا الابعاد بين تلك الاصقاع المتباعدة

فكان التجار المسلمون حوالي القرن الرابع للهجرة يحبون الاقطار برأ وبحراً ينقلون التجارة من بلد الى بلد بين شواطئ فارس وسواحل افريقيا والحشة واليمن وسواحل الهند والصين وسائر المشرق . ويقطعون سحاري خراسان وتركستان واورمينية وافغانستان والهند والشام ومصر والسودان وافريقية والاندلس في نهل اصناف التجارة كانهم هم وحدهم تجار الارض . ومركز تجارة الشرق البصرة بحراً وبغداد برأ . واشتهر من تجار المسلمين ممن كانوا يخرقون البحار في القرن الرابع للهجرة السيراقيون الذين تقدم ذكرهم والعمانيون وكانت سفنهم التجارية تجوب بحار الصين والهند والجزيرة واليمن والعزم وقد عرفهم السعودي وذكرهم في تاريخه (١)

ثروة التجار

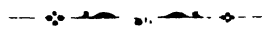
وقد استترقنا في الكلام على التجارة — وجملة القول ان التجارة العليا كانت من ابواب الرزق الواسعة في ذلك العصر لاصحاب المواهب التجارية ولمن يخدمهم التوفيق ويتقربون من البلاط أو بعض أهله . فظهر في عهد ذلك التمدن بيوتات تجارية جمعت الاموال حتى تجاوزت ثروتها الملايين من الدنانير . وفيهم جماعة من عامة الناس بوصفون بالغفلة فخدمهم حظهم حتى ارتفعوا الى طبقة الخاصة وجمعوا الاموال الطائلة كآل الجصاص تجار الجواهر وقد اشتهروا في العصر العباسي مثل شهرة آل روتشيد في القرن الماضي وروكفلر الاميركاني في هذا القرن واول من اُرى منهم الحسن بن عبد الله وقد قص هو نفسه توصله الى الثروة فقال :

« كان بدء يساري ابي كنت في دهليز ابي الجيش خسارويه احمد بن طولون بمصر وكنت وكيله في ابتياع الجواهر وغيره مما يحتاجون اليه وما كنت افارق الدهليز لاختصاصي به فخرجت الي قهرمانة لهم في بعض الايام ومعها عقد جوهر فيه مائة حبة لم أر قبله ولا بعده انخر ولا احسن منه كل حبة منه تساوي مائة الف دينار وقات يحتاج ان نخرط هذه حتى تصغر فتجعل في آذان النعب وفي فلاندها . فكدت اطير واخذتها وقلت السمع والطاعة وخرجت في الحال مسروراً وجمعت التجار ولم ازل اشترى كل ما قدرت عليه الى ان جمعت مائة حبة اشكالا من النوع الذي طلبته وارادته وجمت عشياً وقلت ان خرط هذا يحتاج الى انتظار وزمان وقد خرطت اليوم ما قدرنا عليه وهو هذا ودفعت اليها المجتمع وقلت الباقي بنخرط في ايام فقنعت بذلك واعجبها الحب فخرجت وما زلت اياماً في طلب الباقي حتى اجتمع فحملته اليها وقامت علي المائة حبة

بدون المائة ألف درهم وأخذت منهم جوهرأ بمائتي ألف ألف دينار ثم لزمت دهليرهم وأخذت لي غرفة كانت فيه فجمعتها مسكني وكان يلحقني من هذا أكثر مما يحصى حتى كثرت النعمة وانتهيت الى ما استفاض خبره « (١)

وكان لابن الجصاص يدت كبير في بغداد لبيع المجوهرات فلما كانت النكبات والمصادرات على عهد المقتدر بالله العباسي في أوائل القرن الرابع للهجرة كان ابن الجصاص في جملة الذين صودروا وسبب ذلك ان عبد الله بن المعتز لما بويع بالخلافة ثم انحل أمره وتفرق رجاله وطلبه المقتدر اختفى عند ابن الجصاص المذكور فوشى به خادم فصادره المقتدر بالله على ١٦٠٠٠٠٠٠ دينار وبقي له شيء كثير من الدور والقماش والاموال والضياع وغيرها . ويقال مع ذلك انه كان أحق أبله - فاعتبر مقدار ما كان يصل الى التجار أهل النباهة والدهاء

وقس على ذلك ثروة تجار الفرس والاثاث ولا سيما في البصرة فقد اشتهر فيها جماعة من أهل اليسار واكثر غنائهم من تجارة البحر فقد كانت سفن بعضهم تعد بالمئات وتحمل بها التجارة الى انحاء العالم - ذكروا واحداً منهم اسمه الشريف عمر كان دخله ٢٥٠٠٠٠٠ درهم في السنة (٢) وبلغت ثروة صاحب مراكب في البصرة ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار (٣) . ومنهم رجل اسمه احمد بن عمار كان طحاناً بالبصرة فاصعد الى بغداد في ايام المعتصم فأتسعت حاله حتى صار يخرج من الصدقة كل يوم مائة دينار . فاذا اعتبرتها عشر ماله كان دخله ألف دينار في اليوم واستوزره المعتصم لاماته ولكنه كان جاهلاً (٤)



٥ - الصناع

اما الصناعة فقد أخذوا منها بنصيب كبير لانهم كما برعوا بالتجارة في السلم برعوا أيضاً بصطناعها وارتفت الصناعة عندهم بتوالي الاجيال حتى فاقوا في بعضها البلاد الاخرى وامتازوا بصناعات خاصة بهم . فهم الذين نشروا السكر في العالم نقلوه من موطنه في الهند الى بلاد فارس وأنشأوا له المعامل واستخرجوا منه اصنافاً لم يكن لها مثيل (٥) وهم أتقنوا صناعة الورق ونشروها في العالم وعندهم أخذها اهل اوربا بطريق الاندلس (٦) وقد امتازت بعض مدن الاندلس بصناعات كانت تفاخر بها صنائع المشرق فكانوا

(١) فوات الوفيات ١٣٨ ج ١ (٢) ابن الاثير ٢٠ ج ٩ (٣) ابن حوقل ١٩٨

(٤) الفخري ٢١٣ (٥) Encycl. Brit. article Sugar (٦) الجزء الاول ٢٤٣

يصطنعون في مرسية وشياً مذهباً في غاية الاتقان وفيها أيضاً معمل للبسط لم يكن له نظير وآخر للأسرة المرصعة . وكان في بالقة معامل للرجاج الغريب ونخار مزيج مذهب ونوع من الفسيفساء المفضضة على شكل خاص ولهم اختراع في صناعة الزجاج يؤثرونه لهم فذكروا ان اول من استنبط صناعة الزجاج من الحجارة عباس بن فراس حكيم الاندلس^(١) واخترعوا البارود للبنادق على ما بيناه في الجزء الاول من هذا الكتاب ولهم في الميكانيكات صنائع حسنة كالساعة التي اشتهرت في جامع دمشق وذكرها ابن جبير في رحلته بالقرن السادس للهجرة — وهاك ما قاله في وصفها على ما شاهدته بعينه :

« وعن عمن الخارج من باب جيرون جدار البلاط الذي أمامه غرفة لها هيئة طاق كبير مستدير فيه طيمان صفر قد فتحت ابواباً صفراً على عدد ساعات النهار ودبرت تدبيراً هندسياً . فعند انقضاء ساعة من النهار تسقط صنجان من صفر من في بازين مصورين من صفر قائمين على طاستين من صفر تحت كل واحد منهما احداهما تحت اول باب من تلك الابواب والثاني تحت آخرها . والطاستان مثنوبتان فعند وقوع البندقتين فيهما تعودان داخل الجدار الى الغرفة وتبصر البازيين بمدان اعناقهما بالبندقتين الى الطاستين ويمذفانها بسرعة بتدبير عجيب تخليه الاوهام سحراً . وعند وقوع البندقتين في الطاستين يسمع لهما دوي وينغلق الباب الذي هو لتلك الساعة للحين بلوح من الصفر لا يزال كذلك عند كل انقضاء ساعة من النهار حتى تغلق الابواب كلها وتنقضي الساعات ثم تعود الى حالها الاول . ولها بالليل تدبير آخر وذلك ان في القوس المنعطفة على الطيفان المذكورة اثنتي عشرة دائرة من النحاس مخزمة تعترض في كل دائرة زجاجة من داخل الجدار في الغرفة يدير ذلك كله منها خلف الطيفان المذكورة وخلف الزجاجة مصباح يدور به الماء على ترتيب مقدار الساعة فاذا انقضت عم الزجاجة ضوء المصباح وفاض على الدائرة أمامها شعاع فلاح للابصار دائرة محجرة ثم اتعل ذلك الى الاخرى حتى تنقضي ساعات الليل وتحمر الدوائر كلها وقد وكل بها في الغرفة متفقد لحالها درب بهاها واتماها بعيد فتح الابواب وصرف الصبح الى مواضعها اه »^(٢)

وقس على ذلك كثيراً من الآلات المائية وغير المائية المركبة من البكر والاكر والانابيب والامخال وغيرها للرفع والحمل والنقل ولهم فيها مؤنفات طوى الزمان بعضها واكثرها مأخوذ في اصله عن اليونانية ككتاب « الحيل الروحانية ومخانيقا الماء » لفيلون البيزنطي وكتاب « رفع الاشياء الثقيلة » لهيرون الاسكندري نقله الى العربية

قسطنطين لوقا البعلبكي . وغيرها مما مله الافرنج الى اللاتينية في نهضتهم الاخيرة وفقدت ترجمته العربية كما فقد أصله اليوناني قبله . وفي هذه الكتب كثير من الرسوم الموضحة لحركة تلك الآلات وقوتها (١)

واشتغل المسلمون في هذه الفنون وألفوا فيها الكتب من عند أنفسهم . وقد وقفنا على مؤلف خطي في الآلات الروحانية أطلعنا عليه صديقنا الشيخ شبلي النعماني العالم الهندي الشهير وهو تأليف « رئيس الاعمال بديع الزمان أبو العز بن اسماعيل بن الرزار الجزري » في اسباب الحيل والحركات الروحانية والآلات المتخذة للساعات المستوية والزمانية ونقل الاجسام بالاجسام من المقدمات الطبيعية — الفهلاقي القتح محمود ابن محمد بن قزل أرسلان من آل أرتق في اواخر القرن السادس للهجرة فيه رسوم ملونة تمثل الآلات الضاغطة والرافعة والناقلة والمتحركة حركات خفية . ويدها رسم يشبه ما وصفه ابن جبير عن ساعة دمشق — فيدل هذا وغيره على ما بلغ اليه المسلمون من اتقان فن الميكانيكات مما يحتاج في وصفه الى كتاب برأسه

الطبقة الثانية من العامة

نريد بهذه الطبقة سائر من بقي من الامة وهم السواد الاعظم وفيهم الزارع والصانع والعيار والشاطر والناص والخنث والصعلوك وغيرهم مما لا يحصى . ولسهولة الاحاطة بهم نقسمهم الى قسمين أهل القرى وهم المزارعون وأهل المدن وهم الصناع والباعة والرعاة

١ — المزارعون أهل القرى

فالمزارعون او الأكرة يتألف منهم معظم سكان المملكة وهم أصل زوتها واكثرهم من أهل الذمة يقيمون في القرى الا من أسلم منهم فينزل في المدن . وكانوا يتكلمون لغات البلاد الاصلية السريانية والآرامية واليونانية في العراق والشام والقبطية بمصر والفارسية في بلاد فارس والتركية في تركستان بما وراء النهر . وأخذ العنصر العربي يتغلب على عناصرهم واللغة العربية تتغلب على ألسنتهم والاسلام يتغلب على ادبياتهم حتى ساد الاسلام عليهم جميعاً وعمت العربية البلاد الواقعة غربي دجلة وهي العراق والشام ومصر وافريقية والسودان وصارت تعد بلاداً عربية واكثر اهلها مسلمون . وانقرضت اللغات التي كانت منتشرة فيها الا بقايا قليلة من السريانية في بعض القرى المتباعدة من

الشام والعراق . أما شرقي دجلة بفارس وتركستان والهند فقد ساد الاسلام ايضاً وانتشرت اللغة العربية بين اهل العلم ولكن السنة اهل البلاد ظلت حية يتفاهمون بها الى الآن

٢ — العامة سكان المدن

هم نقي من يأمّ المدن من أهل المطاعم وطلاب المكاسب بالتجارة أو الجندية أو الادب والشعر وتقدمهم نفوسهم عن الاحاق بأهل الهمم وأصحاب المرائع فيضطرون الى احتراف ما يتعيشون به مما لا تعوزه همّة أو رأي . ولو اردنا الرجوع الى أصول عامة بغداد مثلاً لرأيانهم اختلاطاً من مولدي العرب والفرس والترك والديلم والروم والنبط والارمن والجركس والاكراد والكرح والبربر وغيرهم ولكنهم يعدون عرباً لتغلب اللغة العربية على ألسنتهم

وعامة المدن طبعتان الطبقة الاولى المرتزقون بالصناعة والتجارة وهم طائفتان (١) الصناع اصحاب الصناعات اليدوية كالحدايد والحياكين والخياطين والحلاقين والتجارين والصيادين والحلبازين والطحانين ومن جرى مجراهم (٢) الباعة الذين يبيعون البقل واللحم وغيرها من اصناف المأكولات على انواعها وبعض المنسوجات والسلع الدنيئة . وهم طوائف كثيرة كالزياتين والبغالين والجزارين وباعة الاقشة والطحين والخضر ونحوها

والطبقة الثانية المرتزقون بالدعارة والنهب والاصوصية وهم اصناف كثيرة نشأت في بلاد الاسلام على أثر الفتن والانشقاق بين أهل الدولة لا يستطيع أهل هذا الجيل تصور أمثالهم بعد ذلك عن مألوفهم — الا الذين ادر كوا متشردي بيروت المعروفين بالزعران وهم طائفة من أهل البطالة كانوا يحترفون السرقة والنحرش ببناء السبيل . والزعران مثال صغير لرعا ذلك العصر فقد كان في بغداد وغيرها من مدن الاسلام طوائف كثيرة تعرف بالعيارين . الشطار والصعاليك والزواقل ونحوهم كثيراً ما استفحل امر بعضهم حتى تعجز الحكومة عنهم وقد تستجدهم في بعض حروبها

والسبب في ظهورهم اضطراب الدولة العباسية بدعصرها الاول عن دخل فيها من المفسدين منذ حجب على الخلفاء واستولى الاجناد على مصالح الدولة وجعلوا همهم جمع المال لانفسهم والتنازع على السلطة كما بنه في الاجزاء الماضية ولا سيما الجزء الرابع . ولا يخفى ما نجر اليه الفتن من وقوف الاعمال وغلاء الاسعار غير ما كان يرتكبه الحكم

أنفسهم من خزن الاقوات فتقل أرزاق العامة فيعمدون الى التعمدي ويتألفون عصابات
لنأواة اصحاب الاموال من التجار وغيرهم في المدن ولا سيما بغداد أم المدائن الاسلامية
في ذلك العهد . فكان الدعار يتكاثرون ويزدادون تعدياً والحكام في شاكلهم
والخسارة معظمها على الاهالي . وتوالى ذلك أعواماً حتى خربت مدينة السلام وأم
حضارة الاسلام . ولا يمكن الالم بك طوائف الرعاى فنذكر اشهرها :

العيارون

ظهر العيارون ببغداد في أواخر القرن الثاني للهجرة وكان لهم في الفتنة بين الامين
والمأمون شأن كبير لان الامين لما حوصر في تلك المدينة وعجز جنده عن الدفاع
استنجد العيارين وكانوا يعاتلون عراة في اوساطهم الميازير وقد انخذلوا رؤوسهم دواخل
من الخوص سموها الخود ودرقاً من الخوص والبواري قد قرنت وحشيت بالحصى
والرمل . ونظموهم نظام الجند على كل عشرة عريف وعلى كل عشرة عرفاء نقيب
وعلى كل عشرة نقيب قائد وعلى كل عشرة قواد امير ولكل ذي مرتبة من المراكب
على مقدار ما تحت يده . ومعهم أناس عراة قد جعل في استناقهم الجلاجل والصدف
الاحمر والاصفر ومقاود ولجأ من مكاس ومذاب . وبلغ عددهم يومئذ نحو خمسين
الف عيار (١) وساروا للحرب يضربون الاعداء بالمقلاع والحصى وكانوا أهل مهارة
بذلك فأبلوا بلاء حسناً لكنهم لم يثبتوا أمام المجانيق والجنود المنظمة فعادت العائدة
عليهم وقتل منهم خلق كثير وفيهم يقول الشاعر :

خرَّجت هذه الحروب رجلاً لا تقمطان ولا لنزار
معشر في جواشن الحصر يعدون الى الحرب كالليوث الضواري
ليس يدرون ما الفرار اذا ابطلوا ل عاروا في القنا للفرار
واحد منهم يشد على ألفي ن عريان ما له من ازار
ويقول الفتى اذا طعن الطلعة خذها من الفتى العيار

وحدث نحو ذلك من العيارين في حرب المستعين والمعز سنة ٢٥١ هـ اذ حصر
المستعين بالله ببغداد نحو حصار الامين فيها فاستعان بالعيارين وفرض لهم الاموال
وجعل عليهم عريفاً اسمه يبنونه وعمل لهم ترأساً من البواري المفيرة وأعطاهم الخالي
ليجعلوا فيها الاحجار . على اهم كانوا كلما حدث فتنة اهابة اغتموا اشتغال الدولة بها
وهوا بالمتازل والخوانيت وأخذوا الاموال . وكثيراً ما كانت تحدث امثال هذه
الفتن في بغداد من القرن الثالث للهجرة وما بعده (٢)

وكانوا يزدادون قوة كلما ازدادت الدولة ضعفاً وتكاثرت تعدياتهم على بغداد كما تكاثرت الفتن فيها . اما بين الحكام في التنازع على السلطة او الاموال واما بين العامة تعصباً لبعض المذاهب ولا سيما بين السنة والشيعة او الحنفية والشافعية . فلم ينقض النصف الاول من القرن الخامس للهجرة حتى تسلط العيارون على بغداد وجبوا الاسواق وأخذها ما كان يأخذه رجال الدولة وانتظموا انتظام الشرطة او الجند واشتهر من رؤسائهم في ذلك العصر رجل اسمه الطمطقي وآخر اسمه الزبيقي^(١) بطل القصة المشهورة وظهر الميارون في - ائمة المدن الاسلامية وعظام شأنهم وكثيراً ما كان الوزراء وغيرهم من ارباب الحل والعقد يعاسمونهم ويسكتون عنهم^(٢)

الشاطر

هم طائفة أخرى من أهل الدعارة كانوا يمتازون بملابس خاصة بهم ولهم منزر يأتزرون به على صدورهم يعرف بازرة الشطار^(٣) وكانوا اكثر انتشاراً في المملكة الاسلامية من العيارين وأطول بقا- منهم وظهروا في الاندلس ولهم فيها نوادر وتكنيات وتركيبات وأخبار مضحكة تملأ الصحف الكبار اكثرتها وتضحك الشكل^(٤) على ان اسمهم كان يختلف باختلاف البلاد فهم يعرفون في العراق بالشاطر وفي خراسان يسمونهم صرابداران وفي المغرب الصقورة وسماهم ابن بطوطة « الفتاك » وذكر تفسيرهم في ايامه (القرن الثامن للهجرة) وأشار الى اجتماعهم على الفساد وقذاع الطرق وتكاثرهم في نواحي سبزووار حتى هجموا على مدينة بهق وماكوها وماكروا غيرها وجندوا الجنود وركبوا الخيل وولوا أحدهم سلطاناً عليهم وانحاز اليه العبيد يفرعون من مواليهم فكان من جاء من هؤلاء اعطاه ذلك السلطان مالاً وفرساً اذا ظهرت منه شجاعة أتمره الى آخر ما ذكر^(٥)

ولم يكن السطار وغيرهم من أهل الشرور يعدين للصوبية جريمة وانما كانوا يعدونها صناعة ويخلونها باعبار ان ما يستولون عليه من اموال التجار الاغنياء زكاة تلك الاموال التي أوصى باعطائها للفقراء^(٦) وكان اولئك الاصوص اذا شاخ احدهم ربما تاب فستخذه الحكومة في مساعدتها على كشف السرقات . وكان في خدمة الدولة العباسية جماعة من هؤلاء الشيوخ يقال لهم « التوابون » على أنهم كثيراً ما كانوا يعاسمون الاصوص ما يسرقونه ويكتبون امرهم^(٧)

(١) ابن الاثير ٢٤٦ ج ٩ (٢) ابن الاثير ٤١ ج ١١ (٣) الاعاني ٩١ ج ٦
(٤) فتح الطب ٧٦٦ ج ٢ (٥) رحلة ابن بطوطة ٢٣٥ ج ١ (٦) الخراء
الراهم ١٨٣ (طبعة ثالثة) (٧) السمودي ٣٣٥ ج ٢

طوائف اخرى من الرعا

وهناك طوائف أخرى من رعا العامة او من في معانهم تكاثروا في عصر الانحطاط بالمملكة العباسية كالصاليك والزواقل والحرافيش وغيرهم كان طلاب السلطة يستعينون بهم في حروبهم بعضهم على بعض ويعدون بالالاف فعدكان مع أبي دلف عشرون الفا من الصاليك (١)

ويدخل في معنى هذه الطوائف ممن تجمهوروا للارزاق بالتعدي على اصحاب الاموال العبيد وكانوا كثيرين لا يخلو منهم منزل كما رأيت . فلما اخلت الاحوال وضعف اسيادهم ذهب الهبة من قلوبهم حتى اذا سحت لهم فرصة نهضوا مع التاهضين . وربما اخلوا لهوضهم دعوة دينية يمهون بها كما فعل صاحب الزنج في اواسط القرن الثالث للهجرة فانه قام قرب البصرة باسم الشيعة الملو - وكان في ضواحيها جماعة من العبيد يكسحون السباح مدعاهم الى النهوض معه على أن يحررهم من الرق ويريحهم من التعب وكانوا قد شاهدوا رفاقهم الارقاء البيض (المماليك الاراك) يتردون على الخلفاء فاندبواهم . فكل عبد سمع بهذه الدعوة تبعها حتى استفحل أمرهم وضربوا اسيادهم بالسياط (٢) واجتمع منهم مئات الالوف وحاربوا الدولة العباسية بضع عشرة سنة قتلوا في أثناءها ٢٥٠٠٠٠ نفس من الرجال والنساء والاطفال مما تقشعر له الابدان . وانتهت تلك الدعوة بهتل زعيمها وتفرق اختياره . وأراد البجة بمصر ان يفعلوا مثل الزنج بالعراق فلم يفلحوا . وقد يد من هذا الفيل ايضاً الحشاشون وهم طائفة من القوضيين ظهوروا في القرن الخامس للهجرة وجعلوا دأبهم القتك باهل السلطة غدراً وكان لهم شأن كبير في تاريخ الاسلام (٣)

ومن طبقات العامة « المختنون » وكانوا في الحجاز قبل الاسلام وهم جماعة من أهل الخلاعة انتشروا بالمدينة بعد الاسلام على أثر ظهور اللهو والفصف وكثرة الاموال وكثيراً ما كانوا يفسدون النساء يتوسطون بينهن وبين الرجال . وكان احسن المغنين منهم وقد تقدم خبر سليمان بن عبد الملك وما فعله بهم . وربما اشبهوا ما كان في القاهرة من « الحول » من عهد غير بعيد . ولما انتشر الغناء في المملكة الاسلامية انتشر المختنون معه وتكاثروا في بغداد والشام ومصر والاندلس وسائر المغرب والاندلسيون اذا قالوا الخانث قد يرددون الممالك الصغالية

وفي ما خلا ذلك فقد كان في المدن من طبقات العامة ما لا يحصىه عد من أهل

الاحتياج للمعيش بأساليب الخداع والشعوذة او نحوها ولكل صنف من هذه الاصناف اسم خاص . وربما زاد عددها جميعاً على عشرين نوعاً كقولهم المخطراتي والكاغاني والبانوان والمرسي والعواء والمشعبد والفلور والاسطيل والمزيدي^(١) وغيرهم

افكار العامة

فالعامه في المدن اخلاط من غوغاء ولقيف من امم شتى وصناعات شتى وهم جهال اتباع من سبق اليهم من غير تمييز بين الفاضل والمفضول . وسئل الامام علي عن العامة فقال « همج رعاع اتباع كل ناعق » . وقال الفضل بن يحيى « الناس أربع طبقات ملوك قدمهم الاستحقاق ووزراء فضلتهم الفطنة والرأي وعليّة انهمضهم اليسار وأوساط ألحقهم بهم التأدب والناس بعدهم زبد جفء وسيل غناء لكع لكع وربطة اتضاع هم أحدهم طعامه ونومه » . وقال معاوية للاحنف صف لي الناس فقال « رؤوس رفعهم الحظ واكتاف عظمهم الندير وباحجاز اشهرهم المال وأدباء ألحفهم بهم التأدب والناس بعدهم اشباه البهائم ان جاعوا ساموا وان شبعوا ناموا » — هذه هي آراء خاصة تلك الايام في عامتهم

ومع ذلك فطلاب السلطة كانوا يراعون جانبهم ويمربونهم بما يرضيهم ولا سيما الدين وهو جاعتهم الكبرى ولا غرو فانه اكبر أسباب سعادتهم ولهذا السبب رأيهم شديدي التعلق بالخليفة اذا أظهر التقوى لما في منصبه من الصبغة الدينية وهو رئيسهم وامامهم فكانوا له عضداً قوياً ولولا هم لذهبت الخلافة العباسية من بغداد قبل الزمن الذي ذهبت فيه لانهم كانوا كثيراً ما ينهضون لئصرته على الفواد والوزراء اذا أرادوا خلعه. واكثرهم مع ذلك لا يعرفون من الدين غير اسمه ولو سئل أحدهم عن اعتقاده لما أحسن الجواب فضلاً عن بساطتهم وسذاجة افكارهم وجهلهم سائر الامور

ذكروا من دهاء معاوية في مداراة الناس واجتذاب قلوب العامة ان رجلاً من أهل الكوفة دخل على بعير له الى دمشق في حال منصرفهم عن واقعة صفين فتعلق به رجل من أهل دمشق فقال هذه ناقتي أخذت مني في صفين فارتفع امرها الى معاوية وأقام الدمشقي خمسين رجلاً بينة يشهدون انها ناقته ففضى معاوية على الكوفي وامره بتسليم البعير اليه فقال الكوفي « أصلحك الله انه جمل وليس بناقة » فقال معاوية

« هذا حكم قدامضي » ودس الى الكوفي بعد تفرقهم فاحضره وسأله عن من بعيره ودفع اليه ضعفيه وبره وأحسن اليه وقال له « ابلغ علياً اني اقابله بمائة الف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجل »

وبلغ من امرهم في طاعته انه صلى بهم عند مسيرهم الى صفين الجمعة في يوم الاربعاء وأعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها وركنوا الى قول عمرو بن العاص ان علياً هو الذي قتل عمار بن ياسر حين اخرج له لنصرته . ثم ارتقى بهم الامر في طاعته الى ان جعلوا لعن علي سنة ينشأ عليها الصغير ويهلك عليها الكبير

وذكروا عن عامة بغداد في ابان التمدن الاسلامي ان رجلاً منهم رفع الى بعض الولاة وشاية برجل من علماء الكلام زعم انه يترندق . فسأله الوالي عن مذهب الرجل فقال « انه مرجئي قدرتي اباضي رافضي يبغي معاوية بن الخطاب الذي قاتل علي بن العاص » فقال له الوالي « ما أدري على أي شيء أحسدك على علمك بالمقالات أو على بصرك بالانساب »

وكان جماعة من علماء ذلك العصر يجتمعون في بغداد للمناظرة في أبي بكر وعمر وعلي ومعاوية وكان بعض العامة يأتون فيستمعون فتصدى أكبرهم لحية ذات يوم لبعض المباحثين وقال له « كم تطنبون في علي ومعاوية وفلان وفلان »

فقال له الرجل « فما تقول انت في علي »

قال « أليس هو أبا فاطمة »

قال « ومن هي فاطمة »

قال « امرأة النبي عليه السلام بنت عائشة اخت معاوية »

قال « فما كانت قصة علي »

قال « قتل في غزاة حنين مع النبي وقد كان عبد الله بن علي حين خرج في طلب مروان الى الشام وكان من قصة مروان ومقتله ما قد ذكر وزل عبد الله بن علي الشام ووجه الى ابي العباس السفاح أسياً من أهل الشام من ارباب التزم والرياسة خلفوا لابي العباس السفاح انهم ما علموا لرسول الله قرابة ولا اهل بيت يرثونه غير بني أمية حتى وليتم الخلافة » (١)

أولئك هم العامة في كل زمان ومكان وطالب السلطة المطلقة لا يستمنون عنهم لانهم معظم الرعية وبهم تحبى الاموال ومنهم تتألف الجنود فمن استطاع كسب ثقتهم واجتذاب

قلوبهم ملكوه ولا يجتذب قلوب العامة مثل الدين فاذا اجتمعت السياسة والدين تمت وسائل السلطة المطلقة وتولى امور الناس اكبرهم دهاء واقدرهم على استرضاء العامة بالقوى

الآداب الاجتماعية

في المملكة الاسلامية

نريد بالآداب الاجتماعية ما يدور بين الناس من المعاملات الادبية والامور الاعتبارية في هيئاتهم الاجتماعية وما يبادلونه من العلائق العائلية على ما تقتضيه عاداتهم واخلاقهم وطبائع اقليمهم . وأساس تلك الآداب في تمدن الاسلامي ما كانت عند العرب قبل الاسلام من المناقب والعادات وحال المرأة عندهم فنقدم الكلام بتمهيد في هذا الشأن

مناقب العرب الجاهلية

تختلف مناقب الناس وآدابهم باختلاف ظروف معاشهم وأطوار تمدنهم وطبائع اقليمهم فليبدو مناقب غير مناقب الحضرة ولاهل العرى آداب تختلف عما لاهل المدن . وأهل الاقاليم الحارة آدابهم تخالف آداب أهل الاقاليم الباردة جرياً على ما يقتضيه ناهوس الارتقاء من التناسب بين طبائع القوم وطبائع اقليمهم لئلا يتولاهم الضعف ويدركهم الفناء

فاهل البادية يحتاجون الى الشجاعة مثلاً اكبر مما يحتاج اليها المتمدنون لتفرد البدوي عن المجتمع وتوحشه في الضواحي وبعد عن الحامية وانتباهه عن الاسوار ويقوم بالدفاع عن نفسه بيده فهو دائماً يحمل السلاح ويتفرد في الفرة واثقاً بنفسه فصارت الشجاعة سجيّة له . بخلاف اهل المدن الذين العوا جنوهم على مهاد الراحة وانغمسوا في الترف ووكلا امرهم في المدافعة عن اعراضهم واموالهم وانفسهم الى اليهم والحامية التي تولت حراسهم واسنموا الى الاسوار التي تحوطهم فهم آمنون قد القوا السلاح وتوالت على ذلك منهم الاجيال ونزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على سواهم فاصبح الجبن طبيعة فيهم . اعتبر ذلك بساراً ما يغلب في طبائع اهل البدو كالعصية والكرم والوفاء والانفة والنجدة وغيرها مما تستلزمه البداوة ولا تستقيم لا به على ما سنبينه :

١ - العvisة

هي أظهر طبائع البدو وأعمها وقد فصلنا أسبابها وشروطها وسائر أطوارها في الجزء الرابع

٢ - الشجاعة

البدو يعيشون غالباً بالغزو وهم دائماً في قتال أو يتأهبون لقتال فالشجاعة شرط من شروط بقائهم وقد كانت غالبية فيهم يكرمون الشجاع ويتفاخرون بالشجمان واشتهر فيهم جماعة كبيرة من أهل البسالة والجاهلية والاسلام كمرو بن معدي كرب وربيعة بن المكدم ودريد بن الصمة وعروة بن الورد وعنترة العبسي وملعب الاسنة وعامر بن الطفيل وعلي بن أبي طالب وخالد بن الوليد والمقداد بن الاسود وسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن الزبير واخيه مصعب وغيرهم . واشتهرت نساؤهم بالشجاعة أيضاً كما سيجيء في كلامنا عن المرأة

٣ - الكرم

وهو من مناقب اهل البادية اقتضته طبيعة اقليمهم لما قدمناه من مسير البدوي في أسفاره منفرداً وقد يبتعد عن مضر به اياماً في بادية لا طعام فيها ولا ماء فاذا لم يجد من يقر به ويسقيه مات . فنشأ عن ذلك الضيافة وقرى الضيفان وأصبح الكرم من أفضل المناقب عندهم شأن سائر احيال البدو غير العرب كالجرمان قبل تمدنهم . فكان البدو يتفاخرون بالضيافة ويتسابقون الى المغالاة فيها حتى أوقدوا ناراً بجانب مضاربهم يهتدي بها المارة ليلاً يسمونها نار العرى وبالنوا في احترام الكرماء ترغيباً للناس في هذه الفضيلة لاقتعارهم اليها . فاصبح الاسخياء يبالغون في ذلك ويكثر من الزيران فاذا اشتد البرد أو هبت الرياح فمعجزوا عن ايادها فرقوا الكلاب حول الحلي وربطوها الى العمدة لتستوحش فتنبج فيم تدي الاغياض على نباحها . ولذلك كان من اسماء الكلب عندهم « داعي الضير ومتمم النعم ومشيد الذكر » وكانوا يتفاخرون بعظم جفائهم وارتفاعها ومن اكبر تلك الجفان جفنة عبد الله بن جعدان كان الرجل يستظل في ظلها (١)

وأشهر الكرماء في الجاهلية حاتم الطائي ويضرب المثل بكرمه فيقال للمبالغة في مدح كريم « انه أكرم من حاتم طي » ومنهم كعب بن امامة الايادي وهرم بن سنان وخالد بن عبد الله وغيرهم . وكان جودهم قاصراً على الضروري من حاجات الانسان كالطعام والشراب واللباس لبساطة أحوالهم وربما جادوا بالابل او الماشية . فلما ظهر

الاسلام وكثرت أموالهم من الغنائم والعتايا صاروا يجودون بالثقود والجواهر والضياع والريق وغيرها كما سترى

٤ - الوفاء

لما كان الغدر سهلاً على البدوي لا مكانه الفجار من القصاص والايغال في البادية حيث لا يستطيع خصمه الوصول اليه وليس ثمت وازع يخيفه أو جند يقبضون عليه ولا هناك دين يزجره مما يفضي الى ضياع الحقوق وفساد الاحوال جعلوا يرغبون الناس في الوفاء ويعظمون أمره ويمتدحون أهله فرغب الناس فيه وأصبح يتوالي الاجيال خلعاً لهم وصاروا يأتقون من اخلاف الوعد ويشهرون مرتكبه ويبالغون في الثناء على أهله

٥ - الاستقلال

لا شيء أحب الى أهل البادية من الاستقلال ولا سيما الرحل فانهم طبعوا على الحرية وكرهوا التقييد بشيء حتى المسكن فهم لا يتوطنون صقلاً بل يحملون منازلهم على ظهورهم ينتقلون بها الى حيث يطيب لهم المقام . وهم لا يحملون ضياءً ولا يصبرون على ظلم . وتمكنت الحرية من طبائعهم حتى ظهرت في أقوالهم وافكارهم ونشأوا على الانفة وعزة النفس وباء الضيم . ألا ترى كيف ظهر ذلك منهم في صدر الاسلام اذ كانوا يخاطبون الخلفاء كما يخاطبون عامة الناس والخلفاء لا يرون بأساً بذلك لأنه كان طبعاً مألوفاً فيهم

٦ - البجدة

هي من طبائع البدو ولازمة لزوم الضيافة وبينهما تناسب من حيث اغانة الضعيف فاذا استنجدت البدوي على أمر انجذك ولو بذل نفسه في هذا السبيل . وتظهر نجدتهم على الخصوص في الجوار وحمي الذمار وقد فصلنا ذلك في الجزء الرابع صفحة ٢٩

٧ - اللابحية

وقد وصفنا هذه المنفة مختصراً في الجزء المذكور صفحة ٣٠ وهي من مناقب أهل النجدة والفروسية التي يعبر عنها الافرنج بقولهم Chevalerie ومرجمها الى الافتخار بحسن الاحدوة ولما كان العرب اهل خيال وذوي نفوس حساسة كان اللابحية عندهم شأن كبير فالرجل منهم تقيمه كلمة وتفعمده وربما تجردوا للحرب نفمة على عبارة تطمن في شجاعتهم او كرمهم او وفائهم وكانوا يتأثرون على الخصوص من اقوال النساء مدحاً أو طعناً فيبدلون ما في وسعهم التماساً لثناهن وكثيراً ما كان ذلك سبباً في ابتعادهم عن الرذائل وربما تعرض بعضهم للقتل خوفاً من استخفافهن . وفي اخبار الجاهلية شواهد كثيرة على ذلك

وكما يتجعدك البدوي اذا استنجذته فهو لا يصبر عن الاخذ بثأره اذا أسأت اليه
واذا قتل رجل من قبيلة رجل من قبيلة أخرى نشأت العداوة بين القبيلتين فتقوم
الموتورة منهما للاخذ بثأرها ولا تنفك حتى تقتل كفوءا لقتيلها او يتصلحوا على الدية.
ومن اشهر حوادث الآثار في الجاهلية الحرب التي أثارها المهمل بن ربيعة للاخذ بثأر
أخيه كليب فأصبح المهمل مثلاً في ذلك فيقولون « فلان آخذ للثأر من المهمل » لانه
حلف منذ طلب الثأر انه لا ينزع درعه ولا يشرب الخمر ولا يدهن رأسه بالطيب ولا
يقرب للنساء الا بعد نيل مراده

كان للشيخوخة عند العرب مقام رفيع ولفظ الشيخ يدل عندهم على الشيخوخة
والرئاسة معاً. وكانوا اذا تساوت المناقب في من يرشحونه للإمارة فضلوا اكبرهم سناً
كما فعلت قريش في حرب الفجار الثاني^(١) ولما جاء الاسلام وأحدث ما أحدثه من
المنائب الدينية كانت هذه المناقب في جملة ما فضلوه على السن فاذا تساوت كلها في
المرتشح للإمارة فضلوا اكبرهم سناً عملاً بالحديث النبوي بشأن الامامة وهذا نصه
« بأم التوم اقرأهم لكتاب الله تعالى فان كانوا في العراء سواء فأعلمهم بالسنة فان
كانوا في السنة سواء فأقدمهم هجرة فان كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سناً »^(٢)

المرأة في الجاهلية

اختلفت الآراء في حال المرأة العربية بالمصر الجاهلي ولا مشاحة انها كانت على
الاجمال عظيمة الشأن عفيفة النفس وعقبتها من ثمار حب الاستقلال والانفة لان المرأة
التي تشب على استقلال الفكر واباء الضيم تترفع عن ارتكاب ما يهون على الناشئة في
مهاد الذل المغולה باغلال الحجاب. ويقال نحو ذلك في غير رجالهم على العوض فانه من
مستلزمات العفة والانفة والاستقلال لان الرجل الانوف اذا تعود العفة من امرأته
يعظم على طبايعه احتمال ما يمس عرضها من قول او فعل. وتزداد غيرة عليها اذا كانت
وحيدة لم يحب سواها كما كان حال العرب في الجاهلية ثقلة الجوارى يومئذ ومشقة
الحصول على النساء مع حاجة البدوي الى امرأته في تدبير شؤونه واعاقته في اسفاره واعماله
الوآد

وبلغ من غيرة بعضهم في الجاهلية ان يقتلوا بناتهم أو يبدوهن لئلا يرتكبن ما يجر

عليهم العار ولم يكن الوأد طاماً في قبائل العرب ولا كان قديماً عندهم وإنما حدث قبيل الاسلام وكان منحصرأ في بعض بني عم بن مرة ظهر فيهم لسبب طراً عليهم — ذكروا أنهم كانوا يؤدون الأناوة (الجزية) الى النعمان ملك الحيرة فنعوها سنة من السنين فجرد عليهم النعمان كتبة وساق انعامهم وسى ذرارهم فعظم ذلك على التميميين فوفدوا عليه يطلبون اهلهم واموالهم فأبى فقالوا « اسطلا النساء » فقال « اتنا نخبرهن في الذهاب او البقاء » واعلن « ان كل امرأ اختارت ابأها ردت اليه . وان اختارت صاحبها تركت عليه » فلمهن اختارت ابأها الا ابنة قيس بن عاصم كانت قد احبت عمرو بن المشرم فاختارت البقاء عنده فغضب قيس ونذر لا تولد له ابنة الا قتلها ^(١) وربما اقتدى به بعض أهله أو أهل قبيلته . وكان بعض الغيورين من العرب لا يزوح بناته غير عليهن وأشهرهم ذو الاصبع العدواني فكانت له اربع بنات ممنعن الزواج وهن يردن في حديث طويل ذكره المبرد ^(٢) . ولم يطل زمن الوأد عند العرب لانه مخالف لاحكام العمل ومباين لمواظف الوالدين . فلما لبث ان ظهر صعصعة بن ناجية واخذ على نفسه فدا البنات المؤودات ^(٣) حتى بطل الوأد

شبهات المجاهلية

وكان للمرأة في الجاهلية شأن وارادة وكانت صاحبة انفة ورأي وحزم فنبغ غير واحدة منهم في السياسة والحرب والادب والشعر والتجارة والصناعة ولا سيما في اوانل الاسلام على اثر ما حصل من النهضة في النفوس والعقول فاشتهرت جماعة منهم بمناقب رفيعة تضرب بها الامثال واكبرها في المدينة مفر الخلافة الاسلامية في ذلك العهد قالوا اني اشتهرن في الجاهلية بالشجاعة وشدة البطش او كبر النفس منهن سلمى بنت عمر احدى نساء بني عدي بن النجار فلما كانت امرأ شريفة لا تزوج الرجال الا وامرها بيدها اذا رأت من الرجل شيئاً تركته . على ان الغالب في نساء الجاهلية ان يخبرن قبيل الزواج فلا يزوج الرجل ابنته الا بعد ان يشاورها ^(٤) واشتهرت التميميات من نساء قريش في حظوتهن عند رجالهن وكبريائهن وقسوهن عليهم ^(٥) ناهيك بمن اشتهرت منهن بالبالسة في اثناء الغزوات . ففي معركة احد وقع لواء قريش في ساحة القتال فلم يزل صريعاً حتى اخذته امرأة منهم اسمها عمرة بنت علقمة الحارثية فرفعته لهم فلاذوا بها ^(٦) . وفعلت هند بنت عتبة امرأة ابي سفيان في تلك المعركة ما لم تفعله

(١) الكامل للمبرد ٢٧٨ (٢) الكامل ٣١٦ (٣) الف باء ٢٠٠ ج ٢

(٤) الاغانى ١٤٩ ج ٩ و ٢٠٨ ج ١٨ (٥) الاغانى ٢٠٣ ج ١٨

(٦) الاغانى ١٧ ج ١٤

الرجال فجمعت إليها نسوة اخذن في ايديهن الدفوف يضربن خلف الرجال وهي تنشد في تحريرهم على الثبات . ولما انتهت الواقعة خرجت مع النسوة تتسار حث العتلى فوجدت بينها جثة حمزة عم النبي فبقرت عن بطنه واخرجت كبده فلاكتها من غيظها فلم تستطع ان تسيغها فلفظتها ثم عات صخرة وانشدت اشعاراً تفخر بالفوز على المسلمين^(١)

ونساء الجاهلية كن يصحبن الرجال الى ساحة القتال فيداوين الجرحى ويحملن قرب الماء ومن اشهرن بالشجاعة ام عمارة بنت كعب الانصارية وأم حكيم بنت الحارث والحفساء الشاعرة اخت صخر وغيرهن^(٢)

ونبع بالرأي والحزم غير واحدة اشهرهن خديجة بنت خويلد وكانت عاقلة حازمة لبيبة ذات شرف ومال تنقني من اشتهر من الرجال بالامانة والحرم فتستأجرهم بما لها وتضاربهم اياه بشيء يجعله لهم . ولما سمعت بنبوة النبي قبل الدعوة بالامانة وكرم الاخلاق بعثت اليه ان يخرج في مالها تاجراً الى الشام وتعطيه افضل ما كانت تعطي غيره من الرجال فلما أفلح في تجارة عرضت عليه ان يزوجه فاجابها . وهي اول من اسلم وقد نشطته للقيام بالدعوة فكان لا يسمع شيئاً مما يكرهه من رد عليه أو تكذيب له فيجزئه ويخبرها به الا ثبتته وخففت عنه وهونت عليه وما زالت على ذلك حتى ماتت

الأدب الاجتماعي

في العصر الإسلامي العربي

ينقضي هذا العصر بانقضاء دولة الامويين في الشام سنة ١٣٢ هـ وقد علمت مما ذكرناه عن سياسة هذا العصر في الجزء الرابع انها كانت عربية النزعة وقوادها عرب وعملها عرب والسيادة فيها للعنصر العربي . وكذلك الادب الاجتماعي فمما كانت لا تزال عربية بدوية - او هو دور الانتقال من البداوة الى الحضارة حاول العرب فيه البقاء على ما ألفوه في جاهليتهم من المناقب التي تقدم ذكرها كالوفاء والجوار والكرم والنجدة والشجاعة والعفة . وكانت الحضارة وما تقتضيه من الترف والرخاء تغالب تلك المناقب حتى غابت على معظمها في أواسط العصر العباسي

ويقسم العصر الإسلامي العربي الى ايام الراشدين وايام الامويين فنذكر الادب الاجتماعي في كل منهما على حدة

١ — الاداب الاجتماعية في عصر الراشدين

قلما اصاب المناقب البدوية تغيير في عصر الراشدين الا ما اقتضاه الدين من جمع كلمة العرب تحت لوائه فضعفت بذلك العصبية بين القبائل والبطون واجتمع العرب من قحطان وعدنان في ظل الإسلام . وأصاب الكرم في ذلك العصر تغيير اقتضاه عدل الراشدين ولا سيما عمر بن الخطاب فانه كان من الصرامة وحب العدل حتى يطلب العامل بالدرهم والدانيق وإذا علم انه كسب مالا من غير راتبه شاطره اياه وكذلك كان علي بتدقيقه في محاسبة عماله وسائر رجاله . فكانوا لا يبذلون المال الا لمن استحقه من أهل العطاء فلم يكن لأصحاب الاستجداء عيش في أيامهم . وكان الصحابة يومئذ يقلدون الحلفاء في هذا التدقيق وهو مخالف للسخا . والبذل حتى أنهم يملأون بالبخل وما هو بخل ولكنهم كانوا يرون اعطاء كل ذي حق حقه

أما ما بقي من مناقب العرب فظلت على نحو ما كانت عليه وبعضها زاد نمكاً في نفوسهم كالوفاء بالنجدة والعفة والانفة لان الاسلام زادها رونقاً وقوة بالعدل والنفوس فكان الخليفة أو اميره اذا وعد وفي واذا عاهد انجز لا يتنيه عن ذلك طمع او خوف . اعتبر ما كان من وفائهم لاهل الذمة اذ عاهدوهم على ان يحمومهم ما ادوا الجزية . فكانوا اذا شغلهم عن حمايتهم شاعل ردوا الجزية الى اصحابها واعتذروا^(١) ولو لم يردوها ما طالهم بها أحد وأما كانوا يفعلون ذلك من عند انفسهم . والشجاعة كانت سائدة في ذلك العصر لما كانوا فيه من الحاجة اليها في الفتح والجهاد . وقس على ذلك سائر المناقب ولا سيما الاستقلال والحرية فانها زادت قوة في صدر الاسلام لما توخاه الراشدون من التسوية بين المسلمين على اختلاف طبقاتهم حتى أصبحوا يخاطبون الخليفة أو الامير بجساسة وانفة كما يخاطبون بعض اقرانهم واذا رأوا فيه اعوجاجاً هددوه أو عنفوه وأصلحوه فاذا لم يطعمهم قتلوه كما فعلوا بالخليفة عثمان وكثيراً ما كان المسلمون يحصبون اميرهم وهو يخطف فيهم اذا انكروا شيئاً من اتوالة أو اعماله

المرأة في عصر الراشدين

اما المرأة فاتجهت قواها في صدر الاسلام الى سداد الرأي ومزاولة الادب والشعر مع بقاء العفة والانفة فاشتهر منهن غير واحدة جرت بذكرهن الامثال : منهن عائشة ام المؤمنين فقد كان لها عقل راجح وفيها دهاء وقوة حتى رأت حزباً كبيراً من الصحابة واثارت حرباً عواناً وروت احاديث كثيرة هامة

وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله الصحابي الشهير كانت مفرطة الجمال تقيم في المدينة ولها عقل ورأي وعلم واسع باخبار العرب وايامها وفي مطالع السكواك واحوالها . وكانت مع حمالها لا تستر وجهها عن الرجال لعظم قدرها وكبر نفسها . وكثيراً ما كانت تجلس في قصرها فيتناضل بين يديها الرماة ويتفاخرون بما ينالونه من اعجابها . وكانت اذا حجت يحجبها النساء الشواعر وغيرهن ويدخل الشعراء فتجيزهم الجوارر الكبيرة وكان لها موكب لم يسمع بمثله في عصرها مؤلف من عدة مواكب واحد لماشطها وآخر لحازنتها وآخر لكل من كبار اتباعها . أما موكبها الخاص فهو كوكبة فيها ٣٠ راحلة عليها القباب والهوادج (١)

وسكينة بنت الحسين بن علي وكانت معاصرة لعائشة بنت طلحة في المدينة وتسميان عميلتي قريش (٢) وكانت عفيفة برزة تجالس الاجل من قريش وتجتمع اليها الشعراء وتأذن للناس اذنأ عاماً حتى تغص الدار بهم فتأمر لهم بالطعمة ثم تلمح على الشعراء الاسئلة في الشعر والادب وتنتقد اقوالهم وتجيزهم وخبرها في ذلك مشهور (٣) وأسماء بنت أبي بكر المعروفة بذات النطاقين وهي أم عبدالله بن الزبير وفي رواية قولها لابنها هذا لما ينس من الفوز رهو محصور بمكة وجاء يستفتيها وتحريضها اياه على استقبال الموت بشرف دليل كاف على كبر نفسها وحزمها (٤)

ونبع في ذلك العصر عدة نساء بالشعر كليلي الاخيلية والحنساء المتقدم ذكرها والفارعة المربية واشتهر في البادية غير واحدة ممن كان يجتمع الرجال عندها للمناشدة أو المذاكرة على غير روية فاذا توسمت في احدهم انحرافاً منعتهم واحتجبت عنه . كما اتفق لابي دهل الجحجي مع عمرة الجحمية وكانت امرأة جولة يجتمع اليها الرجال لانشاد الشعر وكان ابو دهل من اشرف بني جحج وكان لا يفارق مجلسها وكانت تحبه وتعهد اليه في كتمان حبها فجاء نسوة كن يتحدثن اليها فذكرن لها شيئاً عن أبي دهل وأنه يقول أنها عاشقة له فرفمت مجلسها وتركت مجالسة الرجال ظاهرة وضربت حجاباً بينها وبينهم (٥) ولما نضح التمدن الاسلامي اشهر عدة نساء بالسياسة والصالح والدعاء وغير ذلك مما ذكرناه في الاجزاء الماضية

٢ - الاداب الاجتماعية في عصر الامويين

اصاب المناقب العربية في الدولة الاموية تغيير يختلف عما اصابها في عصر الراشدين

(١) الاغانى ٦٥ ج ١٠ (٢) المعتمد الفريد ٢٥٤ ج ٢ (٣) الاغانى ١١٣ ج ١٤

(٤) ابن الاثير ١٩١ ج ٤ (٥) الاغانى ١٦٥ ج ٦

باختلاف احوال الدولتين . فالامويون لما جعلوا همهم الرجوع الى ما كان لهم من السيادة في الجاهلية اغفلوا كل ما كانوا يخافون حيولته بينهم وبين ذلك المرمى واستبقوا ما يتوسمون منه نفعا لغرضهم — فالكرم رأوا فيه وسيلة لجمع الاحزاب فنشطوه وتسابقوا اليه فزادوا الاعطية وفرضوا الجوائز واقاموا بيوت الضيافة واكثروا من السخاء على رؤساء الاحزاب والشعراء ومن يخافون سطوتهم ولا يفوون على قلمهم على ما يبناه في باب السخاء

والشجاعة لم يكن لهم بدٌّ منها فمروا اصحابها . والعصبية كانت ملجأهم الاكبر في مناوأة اعدائهم من شيعة علي وغيرهم فبعد ان ضعفت في عصر الراشدين وقامت جامعة الدين مكانها اعادها الامويون الى نحو ما كانت عليه قبل الاسلام

اما الوفاء فكان عثرة في طريق اغراضهم لما كانوا يعلمونه من حق مناظرهم في الخلافة وقوتهم فلجأوا الى الغدر والفنك وكان معاوية زعيمهم ومؤسس دولتهم يفعل ذلك سرّاً ويموه غدره بالحلم والكرم والدهاء وحسن الاسلوب . فتدرج الخلفاء بعده من بني مروان الى الغدر جهاراً وأول من فعل ذلك عبد الملك ^(١) وجري عمالهم على هذه الحطة وافرطوا فيها فاشتهر بها منهم زياد بن ابيه وابنه عبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف وغيرهم

تفديد الامكار في المم بني أمية

أما الاستملال وحرية العول فجاهد الامويون في مقاومتها وقيدوا اللسنة بارادتهم تقييداً شديداً فكان ذلك عظيماً على الذين عاصروا الراشدين وتعودوا الحق والحرية فعاقبهم الامويون جزاء حريتهم واستملال افكارهم بالعذاب الشديد . ومن لم يستطيعوا مقاومته جهاراً قتلوه سرّاً - بدأوا بذلك من أيام عثمان قبل قبضهم على مقاليد الدولة في الشام وقد جرأهم عليه ضعف هذا الخليفة ورغبته في ارضاء اهله ونصرتهم ولولا ذلك ما استطاع معاوية اضطرهاد ابي ذر الغفاري ونفيه لانه جاهر باستبداد اهل الدولة باموال المسلمين ^(٢)

فلما افضت الخلافة الى معاوية لم يردّ من الضغط على افكار اهل الاستقلال والحرية واستعمل الشدة في ذلك فقتل حجر بن عدي وعمر بن الحمق واصحابهم لانهم قالوا ببحرية ضمير أن علينا لا يجوز لعهن على المنابر ^(٣) فاصبح الناس يخافون على ارواحهم واخذوا يتعودون السكوت عن الحق ثم لجأوا الى التويه والرياء حتى في المشهور الثابت كما فعل ذلك الرجل لما نصب معاوية ابنه يزيد لولاية العهد فاطرى عمل

معاوية حتى قال له « انك لو لم تول هذا امور المسلمين لاضعتها » ولكن الحرية كانت لا تزال حية في نفوس اهل الرئاسة ممن لم يكن يهمهم التزلف الى اهل الدولة وربما كانت الدولة احوج الى نصرتهم كالاحنف بن قيس التميمي فانه كان يقول الحق ولا يبالي وكان ممن شهد الاحتفال بتولية يزيد وسمع ما قاله ذلك المنافق فاكتفى بالسكوت عن المدح . وادرك معاوية فكره فاستفهمه عن سبب سكوته فلم يبال ان قال « اخاف الله اذا كذبت واخافكم اذا صدقت » (١)

واقعدى بمعاوية من عاصره من الامراء او جاء بعده من الحلفاء فنشأ جيل من العرب يهون عليهم السكوت عن الحق وكثر اهل الزاني والرياء وذهبت حرية الفول بتوالي الاعوام

النجدة والاربيعية في أيام بني أمية

أما النجدة والاربيعية فظلتا في العصر الاسلامي العربي متأصلتين في نفوس العرب وان اضطر الامويون الى الاغضاء عنها في بعض الاحيان . أما على العموم فقد كانتا مرجعتين حتى عند أشد بني أمية استبداداً وغلماً وفي أخبارهم كثير من أمثلة ذلك : منها انه جيء الى معاوية في يوم صفين بأسير من أهل العراق فقال معاوية « الحمد لله الذي أمكنني منك »

فقال الرجل « لا تغل ذلك يا معاوية »

قال « وأي نعمة أعظم من ان يمكنني الله من رجل قتل جماعة من أصحابي في ساعة واحدة ؟ اضرب عنه يا غلام »

فقال الاسير « اللهم اشهد ان معاوية لم يقتلني فيك وانك لا ترضى ببغتي وأنا يقتلني في الغلبة على حطام الدنيا فان فعل فافعل به ما هو أهله وان لم يفعل فافعل به ما أنت أهله » فقال له « ويحك لقد سببت فابلغت ودعوت فاحسنت . . . خليا عنه »

وكان معن بن زائدة قد امر بقتل جماعة من الاسرى فقام أصغر القوم فقال له « يا معن أقتل الاسرى عطاشاً » فأمر لهم بالماء فلما سقوا قال « يا معن أقتل ضيفانك » فأمر معن بابطالهم

وأتى الى الحجاج بأسرى من الخوارج فأمر بضرب أعناقهم فقدم فيهم شاب فقال « والله يا حجاج لن كنأ أسأنا في الذنب فمأ أحسنت بالغفو » فقال الحجاج « أف لهذه الحيف ما كان فيهم من يقول مثل هذا » وامسك عن القتل . وقس على ذلك (٢)

(١) ابن خلكان ٢٣٠ ج ١ (٢) العقد الفريد ١٤٠ ج ١ وابن خلكان ١١٠ ج ٢

وكثيراً ما كانوا يعرضون أنفسهم للقتل رغبة في حسن الاحدوث ولا سيما عند النساء كما فعل عيسى بن مصعب بن الزبير وهو مع أبيه في مقاتلة محمد بن مروان بالعراق سنة ٧١ هـ اذ تحقق مصعب انه مقتول فاعز الى ابنه عيسى ان يطلب النجاة فقال « والله لا تحدث نساء قريش اني خذلتك ورغبت في تسمي عنك » فقال « فاذهب أنت ومن معك الى عمك في مكة فاخبره بما صنع أهل العراق ودعني فاني مقتول » قال لا اخبر عنك قريشاً ابداً ولا يكن يا ابني ألحق بالبصرة فانهم على الطاعة أو ألحق بآبر المؤمنين » فقال مصعب « لا تحدث قريش اني فررت » وحاربوا حتى قتلوا^(١) وظلت الاربحية مرعية في أم ائيل الدولة العباسية فان الرشيد رفع القتل عن ربيعة بفضيدة رفعها اليه أحدهم استنض بها اربحيته في العفو عنهم^(٢) ولما عزم المأمون على قتل ابراهيم بن المهدي وكان مصمماً على قتله فشاور فيه احمد بن ابي خالد الوزير فقال « يا أمير المؤمنين ان قتلته فلك نظراء وان عفوت عنه فما لك نظير »^(٣) فعفاه

فلما ضعف العنصر العربي في الدولة العباسية بعد تسلط الاجناد الاتراك وتحولت الاغراض في أهل الدولة الى كسب الاموال بأية وسيلة كانت ذهبت الاربحية والنجدة على ان ذهابها بدأ من أيام أبي مسلم الخراساني . . . فكهم استمجدوه واستحنوه ولم يفعل الا ما يوصله الى غرضه ؛

والشيخوخة ظلت مرعية ومحترمة الى عصر العباسيين وما بعده ولا تزال حتى الآن

المرأة في عصر الامويين

بدأت المرأة بتبديل طباعها من أيام الامويين لان العفة والغيرة أعامها في ذلك العصر صدمة قوية بتكاثر الجوارح والفلان وانغماس بعض الخلفاء في الترف والقصف وانتشار العناء والمسكر فتجراً الشعراء على التشبيب والتغزل وتكاثر الخنثون في المدن وتوسطوا بين الرجال والنساء بالباطل . فاخذ الفساد يفشو بين الناس وضعفت غيرة الرجال وقلت عفة النساء . فقد رأيت ان المرأة كانت في الجاهلية وأوائل الاسلام تجالس الرجال ونحاط بهم وتذاكرهم والرب لا يرون ذلك منكراً^(٤) ولا تخامرهم فيه ربة واذا تومم رجل من رجل نظرة الى امرأته أو اخته ربة طلبه للتبارز أو التجالد أو المصارعة^(٥) (الد. بلو) فيتصارعان حتى يصرع احدهما صاحبه . وربما انتشب القتال

(١) الاغانى ١٦٣ ج ١٧ و ابن الاثير ١٥٩ ج ٤ (٢) الاغانى ٢٣ ج ١٢

(٣) ابن حلكان ٩ ج ١ (٤) الاغانى ١٨٣ ج ١ و ١٨٤ ج ٧

(٥) الاغانى ٢٦ ج ١٩ و ٥٤ ج ٦

بين القبائل غيرة على نظرة كما حدث يوم الفجار الثاني^(١) - حتى الشعراء فقد كانوا لا ينظرون النسب او العزل الا قليلا . ويقال ان امرء الهيس اول من شرب بالنساء^(٢) ومهما يكن من ضعف هذا القول فهو يدل على بعد العرب الجاهلية عن العزل لفرط غيبتهم على انهم قلما شربوا بعد ذلك الا بحبيب او خطيبة . وكانت مغازلة النساء نادرة فيهم فاذا اتفق لاحدهم شيء من ذلك اشتهر امره وذاع خبره كما اشتهر العشاق والمجانين في صدر الاسلام . وربما تعشق بعضهم ربة في شحذ قرائحهم الشعرية على ان تشيبتهم في كل حال لم يكن عن ربة أو فاحشة^(٣)

وكانوا يتفاخرون بالغة وامساك هوى النفس وقد مجتمع الحبيبان بعد طول البعد واحتدام الشوق فيجلسان وبعاتبان ويتجادلان ثم ينصرفان . واشهر الناس في ذلك بنو عذرة واكثر عشاق العرب منهم

الشبيب

فكان العرب الجاهلية قلما يشربون بغير خطيباتهم فاذا شرب احدهم بغاة قبل ان يحطها منعوه منها^(٤) وكان الخلفاء الراشدون حريصين على آداب القوم فجعلوا التشبيب ذنباً يستوجب العصا وكان عمر بن الخطاب لا يسمع بسائر سبب بامرأة الا جلده^(٥) ونظراً لئلا من يجسر على وصف النساء في شعره كان الشاعر اذا شرب بامرأة اشتهرت فتزوج ولذلك كان بعض الاباء يطلب من الشاعر ان يشرب بناته اينزوجن فالعرب على فطرتهم وطبيعة اقدسيهم وطرق معاشهم اهل عفة والنساء مجتمعن بالرجال في المجالس والاندية على غير ربة . حتى في الكعبة كانوا يدلفون معاً لا يرون بذلك بأساً لان العفة كانت غالبة على طباعهم فلما جاءهم الترف أخذوا بأطراف الحضارة وعمدوا الى التمرى والاستكثار من الجوارى تغيرت تلك الخبايا . فلما كانت امارة خالد القسري على مكة في خلافة سليمان بن عبد الملك الاموي بلغه قول بعض الشعراء :

يا حبذا الموسم من موقف وحبذا الكعبة من مسجد
وحبذا اللاتي يزاحمتنا عند استلام الحجر الاسود

فأمر بالتفريق بين الرجال والنساء في الطواف^(٦)

وفي ايام بني امية تجرأ الشعراء على التسبب بالنساء لا سيما في المدينة بعد انتشار الفناء فيها واقبال اهلها على القصف والهوى . وما زاد غضبهم لا شبيب ان الشاعر اذا

(١) الاغانى ٧٤ ج ١٩ (٢) الاغانى ٦٧ ج ٢ (٣) السعدي ١٢٢ ج ٢

(٤) الاغانى ١٨١ ج ٢٠ (٥) الاغانى ٩٨ ج ٤ (٦) السعدي ١١٦ ج ٢

نظم ابياتاً تفتي بها المغنون في مجالس الشراب . وأول من تجرأ على التشبيب من
الشعراء الفرسيون واسمهم الى ذلك ابن ابي عتيق ابن حفيد ابي بكر الصديق وكان من
اهل الطهارة والعفاف واما كان يشبب بن غير ريبة واقتدى به ابن ابي ريبة وهو
قرشي أيضاً وكان كثير النسيب والغزل ومن سمع كلامه ظنه من اجراء الناس على
فاحشة وهو لم يحل ازاره على حرام^(١) واقتدى به العرجي وهو من قريش أيضاً^(٢)
ونسخ شعراء آخرون من غير قريش واخذوا يشببون بالنساء رويداً رويداً

ولم يكن الحلفاء في اول الامر راخين عن ذلك لتغلب البدواة على اخلاقهم فأخذوا
يعاومون تيار الترف بكل قواعم ولكنهم كانوا يداورون الشعراء رغبة في اكتساب
الاحزاب على ايديهم فلا يمنعونهم من التشبيب الا اذا مس عرضهم ومع ذلك فالدعاة
منهم كانوا يتدخلون في دفتهم . ومن لطيف ما يخفى من هذا الميل ان عبد الرحمن
ابن حسان بن ثابت شبيب ابنة معاوية وهو خليفة في ابا ن مجده . وبلغ ذلك ابنه يزيد
فغضب ودخل على ابيه وقال « يا ابر المؤمنين اقل عبد الرحمن بن حسان »

قال « ولم »

قال ٢ شبيب باختي »

قال « وما قال »

قال « قال : (٣) »

طال الى موت كالحزون ومللت انواء في جيرون
قال معاوية « يا بني وما علينا من طول ليله وحزنه أبغده الله » قال « انه يقول :

فلذات اعتربت بانعام حتى ظن اهل مرجات الظنون

قال يا بني « وما علينا من ظن اهل » قال « انه يقول :

هي زهراء مثل لؤلؤة انواء ص ميزت من جوهر مكنون

قال « صدق يا بني » قال « انه يقول :

واذا ما نسبها لم نجد لها في سناء من المكارم دون

قال « صدق يا بني هي هكذا » قال « انه يقول :

ثم خاصرناها الى القبة الخضر راء تمشي في مرمر مسنون

قال « ولا كل هذا يا بني » وما زال يزيد يذكر له ما قاله فيها من التشبيب وهو

(١) كتاب الحيوان للجاحظ ٢٨ ج ١ (٢) الاعاني ١٥٤ ج ١

(٣) الافاني ١٤٩ ج ١٣ .

يدافعه ويظهر انه لا يرى فيه ما يستحق العقاب عليه . ثم كلفه بعض خاسته بشأنه واكبروا جسارته وقالوا « لو جعلته نكالا » فقال « لا ولكن أدأويه بغير ذلك » وانفق ان عبد الرحمن المذكور وفد على معاوية وكان يدخل في أخريات الناس . فاستقبله أحسن استقبال وأجلسه على سريره معه وأقبل عليه بوجهه وحديثه ثم قال « ان ابني الاخرى عاتبة عليك » قال « في أي شيء » قال في مدحك اختها وتركك اياها » قال « فلها العتي وكرامة انا ذا كرها وممدها » فلما فعل وباع ذلك الناس قالوا « فدكنا نرى ان تشييب حسان بابنة معاوية لسي . فذا هو على رأي معاوية وامره » وعلم من كان يعرف انه ليس له بنت اخرى انه انما خدعه ليشبب بها ولا أصل لها فعلم الناس انه كذب على الاولى لما ذكر الثانية . وشبب ابو دهبيل الجمحي أيضاً بابنة معاوية فعامله باللين وقطع لسانه بالعتاء (١)

ففس على ذلك سائر خلفاء بني أمية وأمرائهم مما يدل على غلبة طبائع البدو في الامويين مع أخذهم باطراف المدنية واختلاطهم بالانم الاخرى وقبرهم من اسباب القصف . وكان تلك الاسباب أخذت بعمول الشعراء فلم يكونوا يبعدون عن التشييب مع تعرضهم للخطر ولما كان يجسر على ذلك غير الفرشين واكثرهم جسارة عمر ابن ابي ربيعة المتقدم ذكره فانه كان يصطحب ابن سرخ المغني فيركبان على نجييين ويلقيان الحاج فيتعرضان للنساء وينشدان الاشعار لا يمانيان أن يكون فيهن بنت الحليفة أو امراته

والظاهر انهم لم يكونوا يفعلون ذلك الا لما يرون من اوتياح النساء اليه لان المرأة تقتخر بان يأتي الشعراء على جمالها وان لم يرض اهلها . فقد كان لعبد المالك بن مروان بنت ارادت الحح فخاف ان يشبب بها ابن ابي ربيعة فاستكتب الحجاج اليه ان هو فعل ذلك اصابه بكل مكروه . فلما قضت حجبها خرجت فمر بها رجل فمالت له « من انت » فقال « من اهل مكة » قالت « عليك وعلى اهل بلدك لعنة الله » قال « ولم ذاك » قالت حجبجت فدخلت مكة ومعي من الجوارى ما لم تر الاعين مثلن فلم يستطع الفاسق ابن ابي ربيعة ان يزودنا من شعره ابياتاً نلهوها في الطريق من سفرنا » قال « اني لا اراه الا قد فعل » قالت « فأنتا بشي » ان كان قاله ولك كل بيت عشرة دنانير » فضى اليه فاخبره فقال « لقد فعلت ولكن احب ان تكلم علي » وأئسده قصيدة قالها فيها (٢)

ومن أشهر بتمرضه للنساء والتشبيب بهن في ذلك العصر الاخص كان يشبب بنساء ذوات أخطار من أهل المدينة وشكوه الى سليمان بن عبد الملك فأمر بالقبض عليه وجلبه ثم نقاه^(١). ووخاخ ابن كان يشبب بام البنين امرأة الوليد بن عبد الملك وهم الوليد بقتله فتمعه ابنه عبد العزيز وقال « ان قتله فضحتني وحفت قوله وتوهم الناس ان بينه وبين امي ريبة » فامسك عنه على غيظ وحقق حتى باغته انه تعدى ام البنين الى أخته فاطمة بنت عبد الملك وكانت زوجه عمر بن عبد العزيز وقال فيها :

بنت الحليمة والحليمة جدّها اخت الحليمة والحليمة بعلمها
فرحت قوابلها بها وتباشرت وكذلك كانوا في المسرة اهلها

فاحتق وانسد غيظه وقال « اما لهذا الكلب مزدجر عن ذكر نساينا واخواتنا ولا له لنا مذهب ؟ » ثم دعا به فأحضر وأمر بيتر حفرت ودفنه فيها حياً^(٢). فسكات ايام بني امية من حيث العفة والغيرة عصر انتقل من البداوة الى الحضارة . فلما انقضى عصر الامويين ذهب ما بقي من سداجة البداوة في طبائع العرب واستسلم الناس لترف والرخاء . وضعفت العيرة وايسح التشبب وشاع على السنة الشعراء حتى صاروا يصدرون به قصائد المدح والفخر . وكان الخلفاء الاولون من بني العباس لا يزالون على مقربة من البداوة فانكروا ذلك ونهوا عنه . ومن اشدّهم غيرة المهدي ابن المنصور فان بناراً انشده مديحاً فيه تشبيب فنهاه عن التشبيب البتة فصار اذا مدحه بدأ بالمديح^(٣) فظال التشبيب مستهجن حتى اباحه الرشيد وألح في نظمه^(٤) قال ذلك طبعاً الى ضعف العيرة

— — — — —

الاداب الاجتماعية

في العصر العباسي

قد رأيت ما احاب المناقب العربية الفطرية من التغيير بعد الاسلام بما طرأ عليها من عوامل الحضارة والانغماس في الرخاء والقصف والاختلاط باهل المدن فغلبت عليهم الضمة وركنوا الى بسطة العيش والتنعم عطالب الحياة الحيوانية وزادهم العلم والفلسفة والطب تباداً عن البداوة وخنوتها وسداجتها وقضت سياسة العباسيين بمراعاة الفرس وغيرهم من نصوصهم في قيام دولتهم وتشببت شمل العرب فذهبت العصبية العربية.

(١) الاغني ٤٨ ج ٤ (٢) الاغني ٤٠ ج ٦ (٣) الاغني ٤١ و ٥٨ ج ٣

(٤) الاغني ١٦٠ ج ٣

واستلزمت رغبتهم في بقاء دولتهم العدول الى الفتك والغدر على ما فصلناه في الجزء الرابع فذهبت مناقب العرب ولم يبق من الوفاء والشجاعة والاستقلال والانفة والعصبية والنجدة الا آثار ضعيفة

المرأة في العصر العباسي

✓ وآل تكثر الجواري وشيوع التسمري الى ذهاب الغيرة من قلوب الرجال حتى صاروا يتهادون الجواري الروميات والتركيات والفارسيات وهن أجمل صورة وأشرق وجهاً من نساء العرب . فبعد ان كان الرجل لا يعرف غير امرأته والمرأة لا تكثر في غير زوجها وهي وانفة بامانته فاذا هو قد تشتت عواطفه بين عدة نساء فعلت غيرته عليها . ولما رآته مشغولاً عنها قلّت ثقته بها الا من عصمها عقلها وشرفها . فلم ينضج الذن في العصر العباسي حتى تنوسيت المرأة العربية في المدن وذهبت حريتها وغيرها وصارت هي نفسها تهدي زوجها الجارية وتحب اليه القرب منها لايهمها ذلك ولا تغاير منه (١) وبعد ان كان العرب في الجاهلية وصدر الاسلام اذا علموا بحب رجل فتاة منعوه من زواجها صاروا يساعدونه في الحصول عليها (٢)

✓ فافضى ذلك الى انحطاط المرأة وذهاب عزة نفسها واستغلال فكرها فانتقروها الرجل وساء الظن بها وصار يعدّها عدوة له ويرصي بعمم الاركان اليها في اشهرها على غلّ وسوء رأي يقفل عليها الابواب والنوافذ ويسد في وجهها الطرق والمسالك ، يمنعها من الخروج أو الكلام وهو صاحب الذنب في انحطاطها . فاصبح الطعن في طباع المرأة وسوء سريرتها شائعاً على ألسنة الناس حتى الفوا فيها الروايات والاقاصيص ونظموا فيها الشعر وتفتنوا في وضع الجمل الحكيم والعبارات البليغة في تحذير الناس من المرأة ودم الوثوق بها . وهذه قصة الف ليلة وليلة تمثل حال المرأة في الاعصر الاسلامي بالرسالة بعد شيوع التسمري وانفساس المسامين في الترف . وأما الاشعار فاليك ما قاله أبو العلاء المعري :

إذا بلغ الوليد لديك عشراً فلا يدخل على الحرم الوليد

وإن خالفتني وأضعت نصحي فانت وإن رزقت حباً بليد

ألا إن النساء حبال غيّرهن يضيع الشرف التليد (٣)

واصبح الكتاب اذا أراد تعزية صديق على فقد بنت له قال ما قاله أبو بكر

الخوارزمي اذ كتب الى رئيس بهراه يعزيه ببنته وهو قوله :

« ولولا ما ذكرته من سترها . ووقفت عليه من غرائب أمرها . اكنت الى

(١) الفرج بعد الشدة ١٨٣ ج ٢ (٢) تزيين الاسواق ١٢٢ (٣) ألف، باء ٧٧ ج ٢

التهنئة أقرب من التعزية . فان ستر العورات من الحسنات . ودفن البنات من المكرمات . ونحن في زمان اذا قدم احدنا فيه الحرمة . فقد استكمل النعمة . واذا ف كريمة الى القبر . فقد بلغ أمنيته من الصهر — قال الشاعر

ولم أرَ نعمة شملت كريماً كنعمة عودة سترت بقبر

وقال آخر

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً والموت اكرم زال على الحرم

وقال آخر

وددت بنبتي وودت أبي وضعت بنبتي في لحد قبر

وقال آخر

ومن غاية الجدد والمكرمات بهاء البنين وموت البنات

وقال آخر

سميتها اذ ولدت تموت والفبر صهر ضامن ويدت « (١)

هذا مثال من آراء أدباء المساميين وشعرائهم في المرأة بين القرنين الرابع والخامس

للهجرة

فلم يبق من المناقب العربية في العصر العباسي الا السخاء لانه كان لازماً لقوام الدولة وسلامتها وتأنيدها بل هو كان من أهم قواعد الارتزاق في ذلك العصر

- و- -

الارتزاق بالسخاء

ان الارتزاق في التمدن الحديث مبني على قواعد اقتصادية عمرانية تحفظ توازن الهوى وتناجها فينال الانسان من رزقه على مقدار كدّه وجدّه مع اعتبار درجة عقله وذكائه سواء كان ذلك بالتجارة أو الزراعة أو الصناعة أو غيرها . وقد وضعوا لكل من أبواب الرزق قواعد في تقدير الارباح لا تتعدها الا في أحوال خصوصية ترتفع فيها الاسعار فجأة كما حدث بمصر لهذا العهد . وفي كل حال فالصانع تقدر اجرته بمقدار عمله والتاجر يقدر ربحه بنسبة رأس ماله

أما في التمدن الاسلامي فقد كان الارتزاق يعرب من ذلك في طبقة العامة من المزارعين والباعة واهل الصناعات . وأما في الخاصة واتباعهم فكان على أسلوب آخر

لا مثيل له بين المتمدنين في هذا العصر ومداره « السخاء » المتسلسل من الخلفاء فالوزراء فما بعدهم ممن يعيشون حول البلاط ويرزقون من رجال الدولة . ومصدر هذه الارزاق بيت المال وهو في قبضة الخليفة أو من يقوم مقامه من الوزراء أو العواد أو الامراء على حسب اطوار النفوذ . والاموال تأتي بيت المال من جباية الخراج والجزية . وقد رأيت في الجزء الثاني من هذا الكتاب (صفة ٦٢ و ٦٧) ان متوسط جباية الدولة في العصر العباسي الاول بلغ نحو ٣٦٠ مليون درهم في العام لا ينفق منها على مصالح الدولة اكثر من ٥٠ مليوناً فالباقي نحو ٣٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم تبقى في بيت المال تحت تصرف الخليفة واكثرها من جباية الخراج وكان الخراج في العصر المذكور ثقيلاً لانهم كانوا يقاسمون الناس غلاتهم بالنصف أو الثلث وذلك في نظر اهل هذا الزمان ظلم ولكن اهل ذلك العصر لم يشعروا بثقله بل كانوا يعدونه رفعا لان العباسيين نقلوا الخراج من المساحة الى المعاشية فبعد ان كان الحكام قبلهم يمتصون خراج الارض زودت أم لم تزرع حصروا الخراج في الارض المزروعة وجعلوه شطراً من غلتها^(١)

سنة العرب في الارزاق

والاموال التي تبقى في خزانة الدولة يعطى بعضها رواتب لموظفيها ويفرق سائرها في من بقي من الخاصة بين جوائز ورواتب فتتسع أحوالهم بالجاء أكثر مما بالمال فيضطرون الى الانفاق لحفظ مقامهم . فينفقون على من يتعاقبهم فينتفل المال على هذه الصورة من الخليفة ووزرائه وعماله الى حواشيهم وأتباعهم ومن هؤلاء الى الباعة وأهل الاسواق فيعود الى العامة كأنه لم يؤخذ منهم . وهي سنة في الارزاق تظهر لأول وهلة انها من خصائص التمدن الاسلامي ولكنها كانت على نحو ذلك في التمدن القديم . فاهل أثينا وهم خاصة اليونانيين كانوا لا يعملون عملاً ولا بحترفون حرفة في سبيل الرزق وانما كانت أرزاقهم من خزينة الدولة يتناولونها رواتب في أوقات معينة أو هبات في أوقات غير معينة على مقتضيات الاحوال أو على ما يلحقهم من الغنائم ونحوها . ولم يكن لهم شغل غير سماع الخطب السياسية أو العلمية والتمثلي في حدائق المدينة وحضور الاحتفالات الرسمية ونحوها^(٢) . ولكن ذلك كان محصوراً في أثينا أو غيرها من العواصم الكبرى . أما المسامدون فتوسعوا فيه حتى شمل كل مدينة وكل طبقة لتمسك السخاء في نفس العربي ولان هذه السنة كانت شائعة عند العرب من أيام الجاهلية . فامير القبيلة كان يغزو بقبيلته فما وقع له من مال وماشية فرتقه في كبار رجاله وهؤلاء يغرفونه في اهلهم وأتباعهم ولذلك

ذكروا من سنن العرب في الارتزاق انهم «نهابون وهابون» ^(١) وكان العرب يكرهون اختزان الاموال ويعدون قبيحاً ^(٢)

والسبب في بقاء هذه السنة مع ذهاب غيرها من المناقب انها لازمة لبقاء الدول في تلك العصور وخصوصاً في الاسلام منذ طمع بنو امية بالخلافة واستخدموا الاموال في ابتغاء الاحزاب واسترضاء كبار الرجال فعوّدوا الناس العطاء فلما قام العباسيون لم يستطيعوا الرجوع عنه بل تجاوزوه من بعض الوجوه فصار السخاء ضرورياً لقيام الدولة والا فسد عليها حملتها وتمرد أهلها

وكان الصحابة في عصر الراشدين لا يرون اختزان المال جريئاً على سنة العرب أو عملاً يمدحونه رواه قيس بن عاصم بهذا المعنى وهو قول النبي «نعم المال الاربعون والاكثر الستون وويل لاصحاب المئين» ^(٣) ولذلك كان الخلفاء الراشدون لا يبقون في بيت المال شيئاً. على ان المسلمين في أيامهم كانوا مشغولين بما بين ايديهم من الغنائم وكانوا لا يزالون في دهشة النبوة والاخلاص في الجهاد والحراج في أيامهم معتدل فلم يكن يفيض منه شيء كثير فلما طمع الامويون بالملك اتخذوا كل وسيلة في جمع المال والاستكثار منه وزادوا اعطيات الجند وهبوا وأجازوا وضاعفوا رواتب أبناء الصحابة وغيرهم من القرشيين اصحاب النفوذ فكان هؤلاء يتوسعون في الانفاق ببناء القصور واقتناء الخدم والجواري ويهبون الشعراء والندماء والحاشية والانباغ فيذهب ذلك المال كما اني

كذلك كان يفعل عبيد الله بن عباس وعبد الله بن جعفر وسعيد بن العاص ^(٤) فيفقد احدهم على معاوية أو يزيد فيؤدي له عطاءه وربما اهداء هدية سنية فيعود الى بلده ويفرن المال جميعه في اهله وأعوانه ^(٥) وكان الخلفاء يرفقون ذلك ويمدون عطاءهم لهؤلاء عطاء لاهل المدينة ^(٦) وليس ذلك خافاً بقية منهم بل كان شاملاً الاكثرين حتى النساء من بنات الصحابة كسكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة وغيرهما فكانت عائشة هذه تفر على الخليفة وربما كانت في ضيق فتشكو اليه فراغ يدها فيأمر لها بمئة الف درهم مثلاً فلما تعود الى الحجاز يأتيها الشاعر أو الفارس فتعطيهم الالف بعد الالف حتى تستنفد ما جاءت به ^(٧) — حتى الشعراء كانوا يبذلون بعض جوازهم في من حولهم ولذا كانوا مع كثرة ما يصل الي ايديهم من المال لا يزالون مديونين ويموت اكثرهم فقراء ^(٨)

(١) ابن خلكان ١١٧ ج ٢ (٢) الاغانى ١٥٦ ج ١٢ (٣) الاغانى ١٥٢ ج ١٢

(٤) المقد الفريد ٨٥ ج ١ (٥) المسعودي ١١١ ج ٢ (٦) المقد الفريد ١١٠ ج ١

(٧) الاغانى ٦١ ج ١٠ (٨) الاغانى ١٧٠ ج ٥ و ١٥٦ ج ١٧

ولما افضى الامر الى العباسيين ساروا على هذه السنة في الاعطيات والجوائز وزادوا مفاديرها لتوفر الثروة في ايامهم . وكان اصحابها يفرقونها في الناس . فوسى الكاظم كان يقيم في المدينة ويغد على بغداد فبرده المهدي مثعلاً بالاموال فلما يصل الى المدينة يجعلها صرراً يفرقها في أهلها ^(١) وكانوا يفعلون ذلك مع العمال والكتاب والشعراء والمغنين وهؤلاء ينفقون المال بالسخاء على تفاوت في درجته وسائر احواله . وربما انفقوا بعضه في حاشية الخليفة او غلامه ^(٢) ليسهلوا لهم الدخول عليه

استرضاء العامة بالطعام

فكان الخلفاء أو الامراء يعدون السخاء على العامة والخاصة فرضاً يؤيدون به سلطتهم . اما العامة فكانوا يسترضونهم بأبسط ساليب السخاء وهو الضيافة فكانوا ينصبون لهم الموائد يدعونهم الى الطعام فيجتمع على مائدة الامير الوف من العامة يأكلون معاً صباحاً ومساءً — ذلك كان دأبهم من عصر الراشدين جروا به على سنة العرب ثم احتاجوا اليه بعد الاسلام في استرضاء القبائل المختلفة فبالنوا فيه حتى نصبوا الموائد على الطرق واول من فعل ذلك عبيد الله بن عباس ^(٣) واشتهر في صدر الاسلام غير واحد من الاجواد ممن كانوا يقبضون الاعطية الكبيرة من خلفاء بني امية فينفقونها في البذل والسخاء وقد تقدم ذكرهم

وجرى الدهاء من عمال الامويين على هذه السنة فنصبوا الموائد على الطرق فكان الحجاج يضع في كل يوم من ايام رمضان الف خوان وفي سائر الايام خمسمائة خوان على كل خوان عشرة انفس وعشرة الوان وسمكة مشوية طرية وارزة بسكر وكان يدور هو بنفسه على الموائد يتفقد ما يحملونه اليها في محفة وينتقلون به من خوان الى خوان فاذا رأى ارزة ليس عليها سكر امر الخباز ان يحمي بسكرها فاذا ابطأ حتى اكلت الارزة بلا سكر امر به فضر ب ٢٠٠ سوط وكذلك كان يفعل عمال الحجاج في سائر المدن فكان بعضهم ينصب الموائد مرتين في اليوم للغداء والعشاء ^(٤) وكان يوسف بن عمر عامل هشام ابن عبد الملك ينصب خمسمائة خوان ^(٥) وكان يزيد بن هبيرة يضع الف خوان يطعم الناس ^(٦) وقس على ذلك سائر العمال وغيرهم كابن طولون بمصر فقد كانت له موائد يحضرها الخاص والعام ^(٧) وربما فرقوا الطعام بلا موائد كما كان يفعل لؤلؤ الحاحب في

(١) ابن خلكان ١٣١ ج ٢ (٢) الاغانى ٨٤ ج ٥ و ٤٦ ج ٣ و ١١ ج ١٢

(٣) العقد الفريد ٨٣ ج ١ (٤) العقد الفريد ٦ ج ٣ وابن خلكان ٨٢ ج ١

(٥) العقد الفريد ٦ ج ٣ (٦) ابن خلكان ٢٧١ ج ٢ (٧) ابن خلكان ٥٥ ج ١

ايام الفاطميين بمصر فانه كان يفرق ١٢٠٠٠ رغيف مع قدر الطعام كل يوم واذا دخل رمضان اضعف ذلك ويغف هو بنفسه ليفرقه ^(١)

غير ما كانوا يبذلونه في استرخاء العامة من الاموال على سبيل الصدقة فكان لكل من الخلفاء والامراء والوزراء مال ينفعه صدقة كل يوم على ما قدمناه في الجزء الثاني من هذا الكتاب وربما فعل بعضهم ذلك لجرد الرغبة في الاجر او عملاً بمقتضى الارحية واطمام العامة على هذه الصورة لم يكن خاصاً بالمسلمين وانما هو ايضاً من سنن الاعصر العارة . فمد كان العامة في رومية يعيشون من اطعمة يفرقها فيهم اهل الدولة من الدقيق والالحاح وكان بعض ملوك الفرس ينصب ٥٠٠ مائدة يجعل على كل واحدة نصف شاة وجام حلوى او عسل وعشرة ارغفة وآنية شراب او لبن وسمكة مصنوعة ^(٢) والمسامون جروا على هذا الترتيب افنداء بالفرس مثل اقتدائهم بهم في كثير من آدابهم الاجتماعية

وأما الخادة أو من جرى مجراهم من الممرين غير الموظفين فكان الخلفاء يهونهم الهبات أو يعينون لهم الرواتب لتفديد ارادتهم ^(٣) كما تقدم ولذلك كان اهل الانفة يكرهون حالات الخلفاء ويمدون عن جوائزهم رغبة في الاستغلال واكثر ما يقع ذلك لاهل البادية الذين لم تذلهم الحضارة ولا سيما بعد نكبة البرامكة فقد طال حديث الناس يومئذ بامرهم وغلب على اعتقادهم ان من يثري من هبات الخلفاء تكون حياته في خطر - ذكروا أن بدوياً عبرته امرأته بفقره لبعده عن جوائز الخلفاء الى أن قالت « هذا فلان قد أخذ الاموال خلى نسائه وبنى داره واشترى ضياعاً وأنت ههنا كما ترى » وكانت امرأته باهلية فانشأ يهول :

تلوم على ترك الغنى باهلية	ذوى الفقر عنها كل طرف وتالد
رأت حولها النسوان يرفلن في الثرى	مفلدة اعناقها بالقلائد
أسرّك اني نلت ما نال جعفر	من العيش او ما نال يحيى بن خالد
وان امير المؤمنين اغصني	بفصهما بالمشرفات النوارد
رأيت رفيفات الامور مشوبة	بمستودعات في بطون الاسود
دعيني تحييني منيتي مطمئنة	ولم أتجشم هول تلك الموارد ^(٤)

الهبات والدين

على ان الفقهاء واهل التعموى كانوا في صدر الاسلام وأوائل دولة بني أمية يعدون

(١) القرطبي ٨٥ ج ٢ (٢) ترتيب الدول ١٢٠ (٣) الاغانى ١٥٤ ج ١٧

(٤) الاغانى ٩ ج ١٢

صلات الخلفاء رشوة ويترددون في قبولها فما لبثوا ان ذاقوا حلاوتها حتى صاروا يتفاخرون بنيلها - قال ذو الرمة :

وما كان مالي من راث ورثته ولا دية كانت ولا كسب مأثم
ولكن عطاء الله من كل رحلة الى كل محبوب المصادق حضرم^(١)

ثم صاروا يتزلفون الى اصحاب الاموال ويستجدونهم رغبة في الارتزاق . فبعضهم ينال رزقه صلة او جائزة وآخرون يقبضونه راتباً معيناً وهؤلاء على الغالب من اهل البأساء وايتامهم واراملهم^(٢) أو زعماء القبائل ورؤساء الاحزاب على ما يوافق مصلحة الخليفة أو الامير أو يتوسم فيه الاجر والثواب. فكان بعضهم يفرض القروض لاولاد الانصار والمهاجرين وغيره يعطي العلويين أو الطالبيين وغيره يعطي قریشاً أو اليمن وقس عليه . فكان علي بن عيسى وزير المقتدر يعطي الطالبيين والعباسيين وأبناء الانصار^(٣) وكان ابن الفرات يعطي الفقهاء والعلماء والفقراء وأهل البيوتات اكثرهم مائة دينار في الشهر واقلام خمسة دراهم وما بين ذلك^(٤) وكان لكافور الاخشيدي بمصر مال خاص يجري منه الارتزاق على من يأتيه نائماً على الخليفة ببغداد او غيره^(٥)

ولهذه الاسباب كان الخلفاء يستحلون اجازة الشعراء وغيرهم من بيت المال لانهم يعدون ذلك في سبيل مصلحة الدولة وان لم يصرحوا به دفناً عن انفسهم بل كانوا اذا سمعوا الانتقاد عليهم من اهل النفوذ الديني سكتوا واسترضوهم ودافعوا عن انفسهم كما فعل الرشيد والمهدي بسفيان الثوري^(٦)

ارتزاق الكبير من الصغير

ذلك ما يقال في ارتزاق الصغير من الكبير في التمدن الاسلامي اما ارتزاق الكبير من الصغير فهد كان بعضه بالسخاء ايضاً ولكن على سبيل الهدية فيعدون عطية الامير الى الصغير جائزة أو صلة ويسمون ما يقدمه الاصاغر الى الامير او الوزير هدية . وكانت الهدايا شائعة على الخصوص في العصر العباسي فاذا تولى الامير على بلد فاول ما يدخلها يبعث اهلها اليه بالهدايا من الاموال والجواري والدواب والثياب^(١) وهو يبعث الى الوزير الذي ولاه او الخليفة بالاموال بسبيل الهدية ايضاً واذا طال مقامه اصبحت تلك الهدايا فرضاً واجباً يبعث بها كل سنة فاذا امسكها سنة عدوا امساكهم تدراً^(٢)

(١) العقد الفريد ٧٨ ج ١ (٢) ابن الاثير ١٥٤ ج ٦ (٣) تاريخ الوزراء ٣٢٣

(٤) ابن خلكان ٣٧٢ ج ١ (٥) الفرج بعد الشدة ١٤٢ ج ٢

(٦) مرآة الملوك ٥٦ وراجع الجزء الثاني من هذا الكتاب صفحة ١٣٢ (طبعة ثالثة)

(٧) ابن الاثير ٥١ ج ٦ (٨) ابن الاثير ١٢١ ج ٧

فالسخاء كان سنة عامة في عهد ذلك التمدن لا يستثنى منه عصر او طائفة وان تفاوتت معاديره واختلفت صورته واشكاله باختلاف العصور . فكانت العطايا في اول عهد الامويين الابل والحيل والماشية فيأمر الخليفة او الامير لمن يستجديه بلمحة وخلفها وراعيها أو جارية وفرس غير ما فرضوه من الاعطيات فنها كانت تعطى عيناً أو ورقاً - ثم صارت في اواسط الدولة نخوت الثياب من الوشي ونحوه والوصائف فضلاً عن النفود وصارت في بني العباس البدر من الدناير وعمود الجوهر ونخوت الديقي والعصور والضياع وغيرها

الجمالة في المعاملة

الجمالة من الطباع الراسخة في نفوس المسلمين وغيرهم من مولدي العرب اليوم . وذهب بعض الباحثين أنها فطرية في أصل ارومهم وما هي كذلك وانما تولدت فيهم بتوالي الاجيال وتقلب الاحوال . لان العرب كانوا مفطورين على استقلال الفكر وحرية العول كما رأيت وظلوا على ذلك الى انقضاء عصر الراشدين ثم أخذت افكارهم بالانحباس وعمولهم بالتقيد من عصر الامويين لما اقتضاه طمع بني في الملك من الشدة والحيلة فاضطر الناس للمداجاة والتويه . وكان الحلفاء من الجهة الاخرى يداجون الناس ويحاملونهم رغبة في نصرتهم او قطع السنهم ويعثون ذلك « حلاً »

واشهر الحلفاء وأقدمهم معاوية بن أبي سفيان فقد ذكرنا في الجزء الرابع صفحة ٦٩ أنه كان يسمع طعن أهل البيت وغيرهم من رؤساء الاحزاب فيه وفي دولته ويفضي وربما أحسن الى الطاعنين . أو تظاهر بالاستخفاف كما فعل بشعبة بن غريز وكان في السكبة ومعاوية هناك فبعث اليه يدعوه فاتاه رسوله فقال « أجب امير المؤمنين » قال « أو ليس قد مننت امير المؤمنين » (يعني علياً) فقال له « اجب معاوية » فاتاه ولم يسلم عليه بالخلافة فقال له معاوية « ما فعلت أرضك التي بتياء » قال « يكسى منها العاري ويرد فضلها على الجار » قال « اتبيعها » قال « نعم » قال « بكم » قال « بستين الف دينار ولولا خلة أصابت الحلي لم أبعها » قال « لقد أغليت » قال « اما لو كانت لبعض أصحابك لاخذتها بستائة الف دينار ثم لم تبال » قال « اجل واذا بخلت بارضك فانشدني شعر أيك برني نفسه »

فانشده تلك الايات فاعجب بها معاوية وقال « أما كنت بهذا الشعر اولى من أبيك » قال « كذبت ولؤمت » قال « اما كذبت فتعم واما لؤمت فلم » قال « لانك كنت ميت الحق في الجاهلية وميته في الاسلام اما في الجاهلية فقاتلت النبي صلى الله عليه وسلم

والوحي حتى جعل الله كيدك المردود وأما في الاسلام فنمت ولدرسول الله الخلافة وما أنت وهي وانت طليق بن طليق « فقال معاوية « قد خرف الشيخ فاقيموه » فاخذ بيده فاقم

وكان معاوية اذا اعجزه اصطناع الاحزاب بالعطاء أو بالحلم أو بالسيف جهاراً عمد الى قتلهم غيلة وكان أنصاره يعرفون ذلك فيه وانه يصانهم ليغلب بهم فكانوا يصانونه طمعاً بمال أو منصب فكانت المصانعة والمداجاة أساس سياسة معاوية . وقد قواها واستثمرها بدهائه وحزمه ففاز وتحدث المسلمون بحلمه وسعة صدره وجموله قدوتهم والناس على دين ملوكهم . فكثرت الميل الى المصانعة في ذلك العصر وهي على الغالب بين الدولة ورجالها — على ان الارباحية كانت تحول دون تمكنها

فلما قام الفرس لمناهضة الامويين ونصرة العباسيين اغضى ابو مسلم عن الوفاء والارباحية وقتل على الهمة فاصبح الناس يخافون على حياتهم وان لم يفترقوا ذنباً . فرادت حاجتهم الى المصانعة . ولما فاز ابو مسلم بحربه وسلم مقاليد الدولة الى العباسيين كانت فوضى بينهم وبين العلويين فلما تقلدها المنصور وطمع باستخلاصها للعباسيين فتك بابي مسلم ثم قتل من قتله من العلويين وغيرهم فتضاغت القلوب بين العباسيين والفرس وبينهم وبين العلويين وهم لا يستغنون عن الفرس لنظام حكومتهم وحماية دولتهم فاستخدموهم على غل ولجأوا في الاحتراس منهم واتقاء اذاهم الى الجاسوسية فبثوا الارصاد على وزرائهم وعماهم يستطلعون أخبارهم ويبعثون بها اليهم سرراً والارصاد نوعان الاول اصحاب البريد في الاطراف والعمال يعملون انهم رقباء على اعمالهم . والثاني العيون الخفية يتخذونهم من الجوارى والغلمان مما يقدمه الخليفة هدية الى وزيره أو عامله فيولهم الوزير بعض شؤون منزله فيدخلون في جملة الدماء أو المغنين أو القيان أو اصحاب الشراب ويكونون رقباء عليه ينقلون أخباره سرراً الى الخليفة . وكان الوزراء يفعلون نحو ذلك بالخلفاء

فشيوع الجاسوسية على هذه الصورة مع المضاعفة والتحامد بعث على المصانعة والحجامة وازداد ذلك على الخصوص بعد ذهاب الارباحية وزوال الاتفة وعزة النفس من العرب على أثر تضعضع النصر العربي وتقلب العناصر الاعجمية مع تنافس اصحاب المطامع من هؤلاء في أواسط الدولة العباسية بابتزاز الاموال . واعتبر ما عقب ذلك من الاستبداد والظلم بعد ان فسدت الاحكام في الدول الاسلامية واستبد السلاطين والامراء غير العرب بمن أقام في ممالكهم من أهل اللسان العربي ويسمونهم عرباً وهم اخلاط من مولدي الامم الاخرى . فلجأ هؤلاء بطبيعة العمران الى الحجامة والمصانعة على نحو ما هو

حالم اليوم — الا الذين أوتوا السيادة وتوفرت لهم السطوة ونفوذ الكلمة أجيالاً متواليه

العائلة في التمدن الاسلامي

كانت العائلة في اواسط التمدن الاسلامي نحو ما هي عليه اليوم وقوامها المرأة وقد تعدم السلام عليها فلا نطيل القول في ذلك الآن وانما نقول كلمة في بعض خصائص العائلة الاسلامية كالحجاب وتعدد الزوجات والطلاق

١ — الحجاب

اذا كان المراد بالحجاب ستر العورة كالخمار ونحوه فهو ليس من محدثات الاسلام بل هو قديم كان شائعاً قبل النصرانية ولم تغير النصرانية شيئاً منه وظل معروفاً في أوروبا الى الاجيال الوسطى وما بعدها ولا تزال آثاره باقية في أوروبا الى الآن واذا أريد به حبس المرأة في بيتها ومنعها من مخالطة الناس فهو من ثمار التمدن الاسلامي لانه لم يكن شائعاً قبله . على انه لم يبلغ الحد الذي بلغ اليه من الشدة والدقة الا بعد نضح المدنية وتمكن الحضارة من نفوس المسلمين وإركانهم الى انترف والرخاء وقد رأيت في كلامنا عن المرأة البدوية انها كانت مساوية للرجل حتى نبغ من مضارب البادية نساء استمرن بالشجاعة والاقدام والحزم والرأي والتجارة والادب والشعر وغيرها. فلما انتشر الاسلام وكثرت الجوارى وشاع التسري في المسلمين اختلفت الظنون بين الرجل والمرأة ففعلت غيرته عليها وسا- كل منهما الظن في صاحبه والرجل صاحب العصمة ورب العائلة فضيق على المرأة الدروب واقام عليها الارصاد واليون من اوائل الدولة الاموية اذ اتخذوا الحصيان من العبيد ثم استفدوا الصفاية البيض

فالحجاب الضيق على نحو ما هو شائع في العائلات الاسلامية بالشرق سببه سوء ظن الرجل واستبداده باهل بيته واستثثاره بالملذات لنفسه وليس هو من مقتضيات الاسلام كما يتبادر الى الاذهان . ولو راجعت ما جاء في القرآن من هذا القليل لرأيت تفسيره أقرب الى ما يراد من رفع الحجاب . ولكن الناس تعودوا ان يفهموا الآيات الدينية بما يوافق عاداتهم أو اغراضهم أو اميالهم . اعتبر ذلك في كل دين تمدن أهله وعمدوا الى تفسير كتبه -- فكتب النصارى مثلاً ليس فيها نص صريح بمنع عاتتهم من التزوج بمرأتين فاكثروا ولكن الكنيسة رأت الاقتصار على امرأة أقرب الى سعادة العائلة ونظام الاجتماع وكان ذلك شائعاً في الدولة الرومانية فاستخرج رؤساء الدين ذلك من

بعض الفرائض بالنفسير والتأويل. والمسلمون لما استكثروا من الجوّاري وساءت الضنون بينهم وبين نسائهم ارادوا الحجر عليهم ولم يمدّوا تفسيراً يساعدهم على ما ارادوا فحبسوها وضيقوا عليها. واعتقدت هي تنوّالي الاجيال انه يحل للرجل ما لا يحل لها فصبرت عليه وخافته واكنّنها لم تحبه. خافها وحبسها وجعل بينه وبينها حاجزاً وعادها تجالس الخدم والعبيد والجوّاري وأصبح لا يؤاكلها ولا يجالسها ولا يتحدثها الا نادراً واعلن ارتيابه من اماتها واصبح يفتخر بانها لا تخرج من منزلها الا الى العبر

على ان ظلم المرأة على هذه الصورة واحتقارها مخالف لتعاليم القرآن لانه يأمر بالودّة والرحمة بين الزوجين وهذا نص الآية « ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم أزواجاً لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودةً ورحمة » وقوله « ولهنّ مثل الذي عليهن بالمعروف » وقوله « وعاشروهن بالمعروف » ولكن الرجل ابى الا الاستبداد والاستئثار ولا سما بعد انقضاء عصر العلم اذ اقتصر الفقهاء على النظر في الابحاث الدينية الجدلية وخيم الجهل على العمول كما احبب الحضرة في الاجيال المظلمة فاقخذوا يفسرون الآيات والاحاديث على ما يوافق اميالهم واهواءهم. وكانت الاحكام قد فسدت واستبدت بالحكام في الناس فعدت عاقبة ذلك على المرأة المسكينة

لان الرجل في طور السلم يتحمل بطش الحاكم وعنفه ويكظم ما في نفسه حتى اذا جاء منزله عامل أهله مثل معاملة الحاكم له انتقاماً لنفسه - تلك سنة من سنن العمران على اختلاف اطوار التمدن. فالبلاد التي يتولاها حاكم ظالم يقتدي به ارباب العائلات بظلم نسائهم وأولادهم وأما في الحكم العادل فالمرأة تنال حقوقها والرجل يعدل في حكومته. فالييت دولة صغيرة تمثل دولة الامة

وما زالت المرأة المسلمة في نحو ما تقدم الى أوائل هذه النهضة والمسلمون سكوت حتى تصدى بعض ارباب الانلام من المسلمين في أواسط القرن الماضي ونددوا بالحجاب وعواقبه وحرصوا اخوانهم على تركه. واقدم من فعل ذلك على ما نعلم المرحوم الشيخ أحمد فارس الشدياق فكنتب الفصول الضافية في الجواب بالاساتانة ثم كتب غيره فصولاً لا تسفي غيلاً. حتى ظهر كتاب نحرر المرأة في آخر القرن المذكور لصاحبه قاسم بك أمين فوفى الموضوع حقه ولم يترك مجالاً لسائل

٢ - تعدد الزوجات

ومن آفات العائلة الاسلامية تعدد الزوجات وهي أن يتخذ الرجل زوجتين الى أربع والشرع الاسلامي يبيح له ذلك بشرط اذا روعي حق رعايته لم يتخذ الرجل الا زوجة واحدة. لان الآية التي تحيز تعدد الزوجات تستلزم أن يعدل الرجل بينهم

فاذا خاف أن لا يعدل فيقتصر على واحدة وهذا نص الآية « فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم أن لا تعدلوا فواحدة » وفي محل آخر « ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة » فاذا جمعت بين اليتيمين رأيت فخواهما اقرب الى النهي عن تعدد الزوجات مما الى الامر به . ولذلك رأيت الغالب في العقلاء وأهل المرؤة أن يكفوا بوجة واحدة وكان ذلك سهلاً في عصر التسري اذ قد يأتي النسل من بعض الجوارى فلا يجد الرجل ضرورة للاضرار رغبة في النسل . على ان تعدد الزوجات ظل متبعاً حتى في أهل الفضيلة والتعلل الى اليوم ولكن على قلة . واذا أحصى المتزوجون بغير امرأة لا نظهم يزيدون على خمسة في المئة أو عشرة من مجموع المتزوجين وهم في الغالب من العامة واذا كانوا من الخاصة فانما فعلوا ذلك لاسباب قهرية

ومن اجاز تعدد الزوجات ذهب الى تفسير « العدل » بالعدل في النفقة لا في المحبة . على ان كثيرين من اهل الوجهة والشرف في الاجيال الاسلامية الوسطى كانوا يجمعون بين التسري وتعدد الأزواج والغالب أن تكون السيادة للمرأة الاولى وان اختلف ذلك باختلاف الاحوال — ولكن المرأة العاقلة النقية كانت تعد اهداء زوجها ما يرضاه من الجوارى الحسان فضيلة كما فعلت ام جعفر بالرشد لتشفله عن الجارية دنانير

وقد تساعد المرأة النقية زوجها في الزواج بامرأة أخرى تتوقع من مسماها في ذلك ثواباً — روى الشيخ الجبرتي المؤرخ المصري عن احدى أزواج ابيه قال انها كانت من الصالحات المصونات وكانت بارة بزوجها ومطبعة له . ومن جملة برها له انها كانت تشتري له من السراري الحسان من مالها وتنظمهن بالجلي والمالبس وتقدمهن اليه وتعتقد حصول الاجر والثواب لها بذلك وكان يتزوج عليها كثيراً من الحرائر فلا يسوءها فعله ولا يحصل عندها ما يحصل عند النساء من الغيرة ^(١)

٣ - الطلاق

ويقال عن الطلاق ما يقال عن تعدد الزوجات فالعقلاء يذهبون الى كره الطلاق بناء على بعض الآيات الواردة في هذا الشأن كقوله « وان خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من اهلها ان يريدوا اصلاحاً يوفق الله بينهما » وقوله « فان كرهتموهن فعسى ان تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » وفي الحديث « انقض الحلال عند الله الطلاق » ومع ذلك كان بعض كبار الصحابة يكثر من منه اكناراً مدهشاً كما فعل الحسن بن علي بن أبي طالب فانه تزوج ٢٥٠ امرأة وقيل ٣٠٠ وكان ابوه

يضجر من ذلك ويكرهه حياء من اهلهم وكان يقول في خطبه « ان حسناً مطلقاً فلا تزوجه » ويليه المغيرة بن شعبة فقد تزوج نحو هذا العدد ^(١) على ان الطلاق ما زال مكروهاً كما رأيت من كلام الامام علي . واهل الانفة والفضل لا يطلقون الا لاملة كبيرة او عذر شرعي . ولو احدثت حوادث الطلاق لرأيت اكثرها في طبقات العامة ومما ساعد على تكرار حوادث الطلاق المبالغة في الحجاب فيتزوج الشاب الفتاة وهو لم ير وجهها فاذا لم توافق هان عليه طلاقها لانه لم يرض الزواج على هذا الشرط الا لعلمه بسهولة التخلص من زوجته اذا لم تعجبه . وهذا التضيق ليس من الدين في شيء لورود عدة احاديث تحيى للرجل أن يرى خطيبته قبل الزواج واحاديث تأمر برؤيتها صريحاً ^(٢) فلو عملوا بذلك لعلت البواعث على الطلاق . على ان للطلاق في بعض الاحوال فوائد اجتماعية حرمتها الطوائف التي لا طلاق عندها

المعيشة العائلية

١ - الطعام

كان طعام العرب قبل الاسلام قاصراً على الابلان وما يستخرج منها كالسمن والزبدة والخبز ومن التمر والحبوب والاحوم يأكلونها على ابسط ما يكون من احوالها كما يفعل أهل البادية اليوم واكثر البائهم ولحومهم من الابل . وقد يصنعون منها اطعمة تتركب على نسب معينة كالتريد فانه يصنع من اللحم واللبن والخبز . ومنها ما يصنع من اللبن والدقيق فقط كالرغيدة والرهيدة والعصيدة أو يصنع من السمن والدقيق كالبسكالة أو من الدقيق والعسل والسمن كالوضيعة ولهم من امثال هذه الاطعمة نحو أربعين لوناً

ذلك هو طعام أهل اليسار منهم واحباب الضيافة وأما الفقراء فقلما يأكلون لحم الابل أو الضأن وانما كانوا يقتاتون بلحم الضب أو بالجراد أو الخنافس او العفارب واذا جاعوا اكلوا الملهز وهو وبر الابل يمونه بالحجارة في الدم فيطبخونه وكان حال الفرشيين قريباً من ذلك ^(٣) وربما اكلوا القرامه ونحاتة القرون والاطلاف والمناسب من برادتها أو القررة وهي الدقيق المختلط بالشعر وكانوا اذا عطشوا ولم يجدوا ماء شربوا الفظ وهو عصارة الفرث أو المجدوح وهو مصل دم الابل ^(٤)

(١) الف باء ٣٤٨ و ٢٤٩ ج ٣ (٢) مشكاة المصابيح ٢٦٩ (٣) ابن خلدون

١٧٠ ج ١ (٤) كتاب البخل ١٨٣

فاجاء الاسلام وافتتحوا العراق وقارس ومصر دهشوا لما شاهدوه من حضارة الروم والفرس ووقعوا على الوان من الاطعمة لم يعرفوها فاشكل عليهم أمرها وظفر بعضهم بحراب فيه كافور فاحضروا الى اعصابه فظنوه ملجأ فطلبخوا طعاماً ووضعوه فيه فلم يجدوا له طعاماً ولم يعلموا ما هو فرآه رجل عرف ما فيه فاشتره منهم بقميص خلق يساوي درهمين ^(١) ورأى بعضهم الخبز الرقاق فظنه رقاعاً يكتب عليها ^(٢) وشاهدوا الارز فظنوه طعاماً مسموماً ^(٣) ثم ما لبثوا ان أقاموا بين أولئك الاقوام حتى تعرفوا ما كلهم ولا سيما الفرس فاخذوها عنهم كما أخذوا اكثر مبادئ الحضارة وكثيراً من العادات والاداب وليس في الشرع الاسلامي ما يمنع متعمهم بالطيبات من الاطعمة الا ما جاء النص بتحريمه

فاخذوا باطراف الحضارة من ايام بني أمية واول من قلد الاعاجم باسباب الترف معاوية فتتم بما كاه ومشربه ^(٤) واقتدى به خلفاؤه وسائر الناس ولا سيما بعد ان كثرت الاموال بين ايديهم فاكلوا السكباخ وهو نوع من المرق كانوا يصنعونه من مرق اللحم والحل ويضعون فيه اللحوم المطبوخة كالدرج ونحوه وكانوا يسمونه سيد المرق. والقالودج وهو نوع من الحلوى وكذلك اللوزينج يحشى بالاوز والسكر والجوزاب والحشاف والحلاب وغيرها وتفننوا بمعالجة اللحوم بالابان والحضار والتوابل على اساليب شتى

١ - اللباس

لباس العرب الجاهلية

ولباس العرب كان بسيطاً مثل ثوبهم وسائر طرق معائشهم ولا يزال حتى الان في عرب البادية نحو ما كان عليه قبل الاسلام وهو عبارة عن الفميص والحلة والازار والشملة والعباءة والعمامة ولم يكن العرب في جاهليتهم يعرفون المراويل ولا الاقيية ^(٥) وانما هي فارسية وكذلك النعال والحفاف ولكن بعض الخاصة كان يلبسها. وكانوا يعلقون سيوفهم على عواتقهم ويأبهم على الاجمال قصيرة الى اسفل الركب ^(٦)

وافضل مثال للبسة العرب لباس النبي فقد ذكروا ان احب الالبسة اليه البرود والبياض والحبرة وهي ضرب من البرود فيه حمرة وكان كاه قصيراً الى الرسغ يلبس احياناً حلة حمراء وازاراً ورداء. والازار قصير الى اسفل الركبة ولبس الخلف والنعل ^(٧)

(١) الفخري ٧٤ (٢) ابن خلدون ١٤٤ ج ١ (٣) الهمداني ١٨٨ (٤) الدميري ٥٥ ج ١ (٥) البيان والتبيين ٥٣ ج ٢ (٦) سراج الملوك ٧١ (٧) تهذيب الاسماء ٦٠

وقد نهى عن الثوب الطويل الذي يحجر على الارض من الخيلاء ومن اقواله « فضل الازار في النار » ^(١) ولم يكن العرب يعرفون من الانسجة غير الفطن والصوف

على أن الذين كانوا يفدون على الشام أو العراق من اغنيائهم لتجارة أو زيارة كانوا يقدون أهلها بملابسهم الفاخرة فمن فعل ذلك اشتهر ذكره بين القبائل ولا سيما في أوائل الاسلام . ومن الماثور عندهم أن أول من لبس الحز الادكن من العرب عبد الله ابن عامر وأول من لبس الدراريح السود المختارين ابي عبيد وأول من لبس الطيلسان في المدينة جبير بن مطعم ^(٢) وقس عليه سائر ما اتخذوه من البسة الاعاجم بعد الاسلام . والعادة أن يبدأ الامراء بذلك ثم يقدمهم سائر الناس . وأول من أقدم على تقليد الاعاجم بامسياب البذخ معاوية وعماله . فزياد بن أبيه أمير العراق أول من قلد الفرس بلبس العباء الدياج ^(٣) وهو أول من لبس الحفاف الساذجة بالبصرة

ولما أترف بنو أمية لبسوا الحرير على أنواعه وتفتتوا بأنواع الانسجة واحبوا الوشي واكثروا من لبسه فقدم الناس في ذلك فراجت المنسوجات الموشاة في ايامهم . واتخذوا كثيراً من أبسة الروم ولسكنهم لرغبتهم في المحافظة على البداوة ظلوا يلبسون العمائم ويلقون السيوف على العواتق وكان الاحنف يقول « لا تزال العرب عرباً ما لبست العمائم وتقلدت السيوف » ^(٤)

اللباس في عصر الحضارة

فلما افضت الخلافة الى العباسيين واستساءوا للفرس وأخذوا نظامهم وآدابهم قدروهم بالالبسة وجعلوا ذلك بامر رسمي من أوائل دولتهم . فامر المنصور رجاله سنة ١٥٣ هـ أن يلبسوا الفلانس الفارسية الطويلة تدعم بعيدان من داخلها بدل العمائم او يعتصموا فوقها بعمامة صغيرة . وأن يملعوا السيوف في أوساطهم وأن يكون اللباس الاسود عاماً فيهم وهو شعار العباسيين كما كان البياض شعار الامويين . فلا بد للدخل على الخليفة العباسي من لبس حبة سوزاء يسمونها « السواد » تغطي سائر الثياب . والباسهم المنصور ذراريح كتب على ظهورها « فسيكفيكم الله وهو السميع العليم » ^(٥) وبعث الى عماله في سائر الافطار أن يأمرؤا رجالهم بمثل ذلك ^(٦)

فاقبل العرب من ذلك الحين على تقليد الفرس بالملابس ولا سيما أهل الدولة

(١) الكامل للمبرد ٢٦ (٢) المعارف لابن قتيبة ١٨٧ (٣) الاغانى ١٠٤ ج ١٤

(٤) الكامل للمبرد ١٠٠ (٥) الاغانى ١٢١ ج ٩ وان الاثير ٢٨٩ ج ٥ والمقد

الفريد ٧٤ ج ١ (٦) طغر بردي ٤٣٧ والمقرزي ٣٠٧ ج ١

ورجال الحكومة فلبسوا الاقبية والمراويلات والطيايسة والحفاف والجوارب وغيرها مع بقاء البسة العرب عند عامتهم . ثم اختصت كل طائفة أو طبقة بلبس خاص يميزها عن سواها . فالفقهاء والعلماء كانوا يلبسون عمامة سوداء بشكل خاص ومبطنة وطيلسان أسود^(١) وأول من غير لباس العلماء على هذه الصورة أبو يوسف قاضي الرشيد^(٢) وأما لبس القضاة فهو القلائس الطوال والطيايسة الرقاق ويختلف ذلك باختلاف الدول والاعصر بما لا محل لاستيفائه

أما عامة الناس فتختلف اشكال البستهم باختلاف صنائهم واحوالهم وطبقاتهم وباختلاف الاصقاع والاطوار مما لا يمكن حصره . وإنما يقال بالاجمال ان لباس الرجال العمامة والدراعة والمراويل والقميص والقباء والحلية والجوارب والنعال على نحو لباس المصريين والنسوريين في أوائل القرن الماضي وهو ما يلبسه جماعة المشايخ الان

ثياب المادمة والتطيب والحضاب

على ان رجال الدولة ومن جرى مجراهم من الخاصة كانت لهم البسة للمجالس الانس والشراب يسمونها « ثياب المنادمة » وهي انواب مصبغة بالالوان الزاهية الاحمر او الاصفر او الاخضر يصفلون بها حتى تلمع وتشرق ويتضمخون بالخلوق ويتطيون ولهم البسة تخففون بها في منازلهم واخرى يلبسونها في الاسفار وغير ذلك

اما التطيب ففد كان من دلائل الفنى والنبل عندهم ومن امثالهم « ثلاثة يحكم لهم بالنيل حتى يدري من هم . رجل رأته راكباً او سمعته يعرب كلامه او شممت منه طيباً »

والحضاب كان مستحسناً عندهم واصله هندي اخذه الفرس عن الهنود^(٣) ومنه انتقل الى بلاد العرب قبل الاسلام . ويقال ان اول من خضب بالسواد من اهل مكة عبد المطلب^(٤) وقالوا بل المغيرة بن شعبة . ولما ظهر الاسلام وانتشر العرب في الارض تعلموا فنون الحضاب فصاروا يخضبون بالحناء للحجرة وبالزعفران للصفرة فضلاً عن الحضاب الاسود وكانوا يبيضون شعورهم بالكبريت^(٥) واول من خضب لحية بالزعفران جرير الشاعر^(٦) وكان حسان بن ثابت يخضب لحية على اسلوب خاص فيلون شاريه وغفقه بالحناء دون سائر لحية فيدولاول وهلة كأنه اسد والنخ في الدم^(٧) وقس على ذلك تفنتهم بالحضاب للرجال والنساء ولا يزال ذلك شائعاً في الشرق الى الان والاكثر

(١) الاغانى ١٠٩ ج ٥ و ٦٩ ج ٦ وطبقات الاطباء ٤ ج ٢ (٢) ابن خلكان ٣٠٣ ج ٢

(٣) السمودي ١١٥ ج ١ (٤) لطائف المعارف ٨ (٥) الف باء ٣٤٤ ج ٢

(٦) المعارف لابن قتيبة ٩٩ (٧) الاغانى ٣ ج ٤

يخضبون بالسواد وبعضهم بالحناء ويندر الحضاب بالزعفران ولا نعرف أحداً يبيض شعره بالكبريت .

-----<5>-----

٣ ---- المأوى

مساكن العرب

كان العرب قبل الاسلام أهل خيام وأنعام يحملون منازلهم على ظهورهم الا من أقام منهم في مكة أو المدينة أو الطائف أو غيرها من مدن الجاهلية ولما نهضوا للفتح كانت البداوة من جملة أسباب تعليمهم . فلما فتحوا الامصار تحاشوا سكنى المدن ونصبوا مضاربهم في ضواحيها أو بنوا بيوتاً من القصب معسكراً لهم لا يفصل بينها وبين مقر الخلافة (المدينة) ماء كانهم محتلون الى أجل . وكانوا اذا فسد ما بنوه من القصب أو احترق استأذنوا الخليفة عمر في بنائها بالحجارة مثل المدن التي فتحوها بمصر والشام والعراق ولكنه لم يكن يرى تحضرهم خوفاً عليهم من الترف والرخاء ولهذا السبب أيضاً منعهم من الزرع . ثم أذن لهم بالبناء ولكنه اشترط الاقتصاد به فلما استشاروه في بناء الكوفة بالحجارة قال لهم « افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات ولا تطالوا في البناء والزموا السنة تزمكم الدولة » (١)

على ان ناموس العمران غلب على ما اراده عمر من بقاء المسلمين يقيمون في المعسكرات فما لبثوا ان تحضروا حتى تحولت تلك المعسكرات الى مدن عامرة ونزلوا المدن القديمة التي فتحوها وبنوا المنازل والفصور يقلدون بها أبنية الدول السالفة

اساليب البناء في الاسلام

وكانت اساليب البناء يومئذ تختلف باختلاف الامم ولكل منها نمط تولد عندها بتوالي الاجيال اما رأساً او اقتباساً . وأهمها النمط البيزنطي في الشام ومصر والفارسي في فارس وخراسان والقوطي في الاندلس وما يليها . فلما تحضر العرب وعمدوا الى تشييد المباني استخدموا في بنائها مهندسين من الروم والفرس فكانوا يخططونها على ما عرفوه من الاساليب التي ذكرناها . ثم أخذ العرب تلك الصناعة وأدخلوا فيها تغييراً يوافق الذوق الشرقي ويلائم الاسلام . فتولد نمط اسلامي خاص يعرف بالنمط العربي أو الشرقي يختلف باختلاف الاصقاع واختلاف العصور والدول وترجع تنوعاته الى ثلاثة أعصر كبرى :

(١) ابن خلدون ٢٩٩ ج ١

أولاً ﴿العصر العربي الرومي﴾ هو أقدم عصر البناء في الاسلام وأساسه النمط البيزنطي وتنوع في أثناء التمدن الاسلامي وتفرع الى خمسة أشكال (١) النمط السوري ومثاله الجامع الاقصى في القدس والجامع الاموي في الشام (٢) النمط المصري ومثاله جامع عمرو بالفسطاط (٣) النمط الافريقي ومنه جامع الفيروان (٤) النمط الصقلي في سبيليا بإيطاليا ومن أمثلته قلاع زيزا وكوبا وغيرها (٥) النمط الاندلسي ومنه جامع قرطبة وبعض الأثار العربية في طليطلة مما بني قبل انقضاء القرن العاشر للميلاد

ثانياً ﴿العصر العربي البحت﴾ وهو يشمل الاشكال التي تكيفت بين يدي العرب حتى بعدت عن الاصول التي نقلت عنها وهي قسمان (١) النمط المصري ومنه الابنية التي اقيمت في مصر بين القرن العاشر والخامس عشر وفي حملتها الجوامع التي بناها السلاطين المماليك كجامع الظاهر وجامع السلطان حسن (٢) النمط الاندلسي وهو ما بقي في الاندلس بعد القرن العاشر ومن أمثلته ابنية اشبيلية وغرناطة ولا تزال آثارها باقية الى الآن

ثالثاً ﴿العصر المختلط﴾ ويدخل فيه (١) النمط الاسباني العربي ويراد به ما بناه المسيحيون بعد استيلائهم على الاندلس وخروج المسلمين منها (٢) النمط الاسرائيلي العربي ومن أمثلته الأثار الباقية لليهود في طليطلة من أنقاض السكنائس (٣) النمط الفارسي العربي كالجوامع التي بناها الفرس بعد الاسلام ولا سيما في اصفهان (٤) النمط الهندي العربي وهو خليط من النمطين الهندي والعربي كبرج كتاب وهيكل بندرابند وباب علاء الدين (٥) النمط المغولي العربي كالابنية التي اقيمت في الهند باثناء سلطة المغول وأشهرها تاج محل وقصر الشاه وكثير من المساجد ونحوها (١)

فمساكن الناس في عهد التمدن الاسلامي كانت تختلف شكلاً باختلاف البلاد والعصور وتتفاوت سعة وقدرراً بتفاوت طبقات الناس من الاكواخ الحفيرة الى اقصور الفخمة وسنأتي بأمثلة من القصور وسائر الابنية الاسلامية الفخمة عند الكلام على الحضارة

حضارة المملكة الاسلامية

نريد بالحضارة ما تبلغ اليه الدولة من الثروة وبسطة العيش والتوسع باسباب الترف والرغد في أرقى درجات عمرانها . والدولة الاسلامية أدركت تلك الدرجات أولاً في العصر العباسي ببغداد من أواسط القرن الثاني للهجرة الى أواسط الرابع وفي العصر الاموي بالاندلس في القرن الرابع . وفي العصر الفاطمي بمصر من أواسط القرن الرابع الى أواسط السادس

وأسباب الحضارة في ما نحن فيه تنقسم الى قسمين كبيرين : الاول العمارة أي انشاء المدن وبناء المصانع والقصور . والثاني الثروة وبها يتم ما يقتضيه الترف من الانغماس في النعيم والرخاء وبسطة العيش . فتتكمّل اولاً عن المدن فالباني ثم نبين ما بلغت اليه الامة من الثروة وأسباب الترف والرفاه

عمارة المدن

ان المدن التي سكنها المسلمون وحوارها التمدن الاسلامي تعد بالآلاف وهي منتشرة في آسيا وأفريقيا وأوروبا ومنها ما كان عامراً قبل الاسلام ومنها ما بناه المسلمون لانفسهم . وقد نشرنا في الجزء الثاني من هذا الكتاب صفحة ١٦٩ فصلاً في المدن الاسلامية وما بلغت اليه من الحضارة والثروة في عهد التمدن الاسلامي واقتصرنا على اعظم تلك المدن البصرة والكوفة والفسطاط وبغداد . وأجلنا الكلام في ما بقي الى هذا الجزء فنقول :

القطر المصري

مساحة الارض الزراعية فيه

القطر المصري اليوم (سنة ١٩٠٦) في نهضة مالية تضاعفت فيها الثروة الى حد استغربه الناس وخافوا رد الفعل^(١) لانهم رأوا غلاء في الاسعار بغيّاً لم يعهّدوا مثله وزادت مساحة الارض الزراعية ستة أضعافها في قرن واحد . فبعد ان كانت مساحتها في أيام المماليك نحو مليون فدان وبعض المليون صارت ثمانية ملايين فدان . وبعد ان كان الفدان يباع ببضعة عشر جنيهاً يبيع بمئة جنيه او مئة وخمسين جنيهاً او اكثر . فكيف لو علموا ان مساحة الارض الزراعية في ابان التمدن الاسلامي زادت على ٢٥٠٠٠٠٠ فدان ؟ وقد ذكرنا ذلك في الجزء الاول من هذا الكتاب صفحة ١٠١ نقلاً عن ثقات مؤرخي العرب فاستغربه بعض الفضلاء وعدوه من قبيل الخرافة أو الاكذوبة على عادتهم في

(١) فصلنا ذلك بمقالات في « النهضة المالية المصرية » في السنتين ١٣ و ١٤ من الهلال

الاستخفاف بأقوال مؤرخي المسلمين . ولا نرى باعثاً على هذا الاستخفاف والمسلمون أو العرب من أكثر الأمم تحقيقاً في حوادث التاريخ لما تعودوه من التحقيق في المسائل الدينية بالاسناد ونحوه

على اننا لا نلومهم اذا استغربوا تلك الرواية لان الناس يقيسون الاشياء بما علموه من أشباهها . فثروة القطر المصري اذا قيست بما ألفناه من أحوال عمراتها في القرنين الماضيين لا نرى ما يسهل علينا تصديق قول العرب بمساحتها الزراعية الى ثلاثة أضعاف ما بلغت اليه اليوم . ولكن لو قيل لاهل هذا الجبل ان مساحة الارض الزراعية بمصر ستبلغ بعد عشر سنين عشرة ملايين أو ١٢ مليون فدان لهان عليهم التصديق لانهم شاهدوا تزايد هذه المساحة من مليون فدان الى ثمانية ملايين . أما لو قيل ذلك لاهل أواسط القرن الماضي لعدوه مستحيلاً . لان مساحة ارض مصر التي تقبل الزراعة لم تكن تقدر يومئذ بأكثر من ٧٠٠٠٠٠٠ فدان وهاك تقدير الدكتور كلوت بك سنة ١٨٤٠^(١) باعتبار الفدان

الجملة	غير مزروعة	ارض مزروعة
٣٨٠٠٠٠٠	١٥٥١٠٠٠	٢٢٤٩٠٠٠ مصر السفلى
١٦٢٠٠٠٠	٧٦٣١٧٤	٨٥٦٨٢٦ » الوسطى
١٥٩٤٠٠٠	٨٤٣٦٠٠	٧٥٠٤٠٠ » العليا
٧٠١٤٠٠٠	٣١٥٧٧٧٤	٣٨٥٦٢٢٦

فتكون مساحة الارض التي يمكن زرعها بمصر ٧٠١٤٠٠٠ فدان. فن كان هذا اعتقاده في اطيان مصر لا يصدق اذا قيل له ان مساحة هذه الاطيان ستزيد على عشرة ملايين فدان أو ١٢ مليوناً بعد بضع عشرة سنة
عدد السكان

ويقال نحو ذلك في عدد السكان فلو قيل في أواسط القرن الماضي ان القطر المصري سيبلغ عدد سكانه الى عشرة ملايين أو ١٢ مليوناً لعدوا قولنا من الخرافات أو كما قال الدكتور كلوت بك « من عادات الشرقيين في المبالغة » لان عددهم في أيامه لم يكن يزيد على ٣٠٠٠٠٠٠ نفس فكيف يصدق زيادته الى سبعة أضعافه — لا نقول ذلك تحكماً أو افتراضاً ولكننا نقول للقارئ قول الدكتور كلوت بك مؤرخ ذلك العصر في هذا الشأن - فقد بحث في كتابه عن سكان القطر المصري سنة ١٨٤٠ فبلغ عددهم

ثلاثة ملايين نفس فصدّر بحثه مقدمة عن احصائهم في الزمن القديم قال فيها ما معناه : « يؤخذ من احصاء مؤرخي اليونان ان سكان هذا القطر بلغ عددهم في زمن سيزوستريس والبطالسة نحو سبعة ملايين نفس الى ثمانية وأما مؤرخو العرب فزعموا أن عددهم في زمن عمرو بن العاص بلغ عشرين مليوناً وهو قول يدل على عادة الشرقيين في المبالغة بكتاباتهم ... لاتا لو قسنا مصر بما نعلمه في سواها من نسبة عدد الناس الى مساحة ما يتوطنونه من الارض لوصلنا الى نتيجة تنفي كل شك . فمصر مساحتها سدس مساحة فرنسا ومهما قلنا في خصب وادي النيل وما يمكن الوصول اليه من امتداد الزراعة وزيادة العمارة ولو سلمنا بإمكان استثمار البقاع الرامية - فمع كل هذه الوسائل لا يرجى زيادة عدد السكان على ثلث الاحصاء الذي ذكره العرب » (أي نحو ٦ ٣٣٣ ٠٠٠ نفس) - هذا هو رأيه وأنت ترى ان سكان مصر زاد عددهم اليوم على عشرة ملايين ولا يمضي بضع سنين حتى يناهز ١٥ مليوناً او ضعف ما ظنه الدكتور كلوت بك غاية ما يمكن الوصول اليه

وقياساً على ما تقدم لا يرى مانعاً من بلوغ سكان القطر المصري الى ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نفس . فلا غرابة اذا بلغوا هذا العدد في ابان التمدن الاسلامي - وأما أكر ابناء هذا الجيل ذلك استخفافاً برواية العرب مع أنها مبنية على احصاءات رسمية واقعية في ازمة معينة لاجل تعديل الجزية أو الخراج وليست من قبيل الحدس او الرجم بالغيب - الاحصاء الاول وقع في زمن الفتح على ايام عمر . ذكر المفريزي أنهم احصوا الرجال الذين تؤخذ عليهم الجزية فبلغ عددهم ٨ ٠٠٠ ٠٠٠ نفس فاذا اعتبرناهم ثلث الامة كان مجموعها ٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠ نفس . والاحصاء الثاني في ولاية الوليد بن رفاع سنة ١١٠ هـ ذكروا انه خرج ليحصى اهلها وينظر في تعديل الخراج فاقام في ذاك ستة اشهر بالصعيد حتى بلغ اسوان ومعه جماعة من الكتاب والاعوان يكفونه ذلك بحمد وتشمير . وثلاثة اشهر في الوجه البحري فاحصوا من القرى عشرة آلاف قرية في أصغر قرية منها ٥٠٠ جمجمة من الرجال الذين تفرض عليهم الجزية فتكون جملة ذلك على الاقل ٥ ٠٠٠ ٠٠٠ رجل وعلى متوسط ما يلحق ذلك من النساء والاطفال والشيوخ يكون المجموع نحو ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ نفس

مساحة الارض الزراعية

ويقال نحو ذلك في الارض الزراعية فانهم استخراجوا مساحتها بالاحصاءات الرسمية لاجل تعديل الخراج . منها احصاء لعبيد الله بن الحبحاب سنة ١٠٧ هـ بلغت مساحة الارض الزراعية بما يركبه النيل ٣٠ ٠٠٠ ٠٠٠ فداناً لم ينجحوا في اربعة أضعاف ما بلغت

اليه مساحتها اليوم مع اجتهد حكومتنا في تعميم وسائل الري ببناء الجسور والخزانات وما لدينا من آلات الحرث والزرع . فاذا سبق الى اذهانتنا الاستخفاف برواية العرب حكماً لاول وهلة وبلا تردد انها مكذوبة أما اذا نظرنا فيها نظر الناقد المحقق فلا نعدم الوصول الى الحقيقة

فالتقريزي وغيره من رواة هذا الاحصاء لم يعولوه عرضاً ولا تركوا في قولهم التباساً . وذكروا في امكنة أخرى ان الارض الزراعية نقصت في ايام ابن المدبرأي بعد قرن ونصف القرن الى ٢٤٠٠٠٠٠ فدان ولم يكتفوا بذكر المساحة ولكنهم ذكروا عدد العمال الذين كانوا يشتغلون بالحرث والزرع واشترطوا عدداً معلوماً منهم فاذا نقصت نقصت غلة الارض (١)

ولا يحل لنا وجه الصواب الا بعد معرفة البقاع التي كانت عامرة في ذلك العصر . فلو كانت حدود مصر الزراعية يومئذ مثل حدودها الان أي يحدها من الشرق والغرب الجبلان والصحراء الشرقية والبحيرة لحسبنا باستحالة زعمهم . لان مساحة مصر الجغرافية اليوم وفيها الواحات والبادية الواقعة بين النيل والبحر الاحمر والعريش نحو ٤٠٠٠٠٠ ميل مربع معظمها صحراء قاحلة أما الارض الزراعية فمساحتها ١٧٧٢٦ ميلاً مربعاً يخرج منها ٢٧٥٠ ميلاً مسطحات النيل والترع والمستنقعات والبحيرات ونحوها فالباقي ١٢٩٧٦ ميلاً مربعاً أي نحو ٨٠٠٠٠٠ فدان وهي الارض المزروعة الان (سنة ١٩٠٦) فلا سبيل الى المزيد

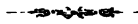
واكن يؤخذ مما نقله العرب عن أحوال مصر في ايام تمدنهم ومما جاء من اخبارها القديمة ان حدودها الزراعية كانت أوسع من ذلك كثيراً - ذكروا أنها كانت تمتد من الغرب وراء الصحراء الاسكندرية الى برقة (٢) وتتصل من الشرق بحدود السويس الى العريش . ومعظم المسافة هناك اليوم ومال قاحلة والسكنها كانت تزرع قديماً الزعفران والمصفر وفصب السكر وكان مأوها غزيراً . ولا تزال آثار العمارة باقية في تلك البقاع فان تحت الرمال تربة سوداء زراعية يعرفها من اختبر الارض بالمسبار

وكان الصعيد عامراً وامتد من جهة الشرقية الى البحر الاحمر وارااضي البجة (٣) وكانت اطيان القيوم ممتدة الى ما وراء العمارة المعروفة بمسافة بعيدة فاذا اعتبرنا ما ذكره من هذا القبيل وان النيل كان اكثر فروعاً وأنزر ماءً وأوسع فيضاناً مما هو عليه اليوم هان علينا قبول اقوالهم وان كنا لا نزال نستغربها لبعدها عن ما لوفنا .

(١) المقرئزي ١٠٠ ج ١ * (٢) المقرئزي ١٨٢ ج ١ (٣) المقرئزي ١٨٩ ج ١

ولعلنا متى رأينا الشمرات تعمل على احياء الصحاري المحيطة بوادي النيل شرقاً وغرباً
بنزع ما يغطيها من الرمال وارواؤها بالترع المتصلة اليها من النيل اربالاً بار الارتوازية ترى
أقوالهم معقولة . ولا نظن ذلك بعيداً ورجال الاعمال يدرسون أمثال هذه المشروعات
مدينة القاهرة

وأشهر مدن القطر المصري في الاسلام القسطنطية والقاهرة وقد ذكرنا عمارة
القسطنطية في الجزء الثاني . وأما القاهرة ففد بناها القائد جوهر في أواسط القرن
الرابع للهجرة معقلاً لمولاه المعز لدين الله الفاطمي وجنده . فظلت في أثناء دولة
الفاطميين لم تتسع عمارتها وإنما كانت العمارة للقسطنطية والفتايع . وذكر المفريزي أنه
كان في هاتين المدينتين غير القاهرة ١٠٠٠٠٠ بيت في بعضها مئة انسان ومئتان اذ
يكون البيت مؤلفاً من خمس طبعات او ست او سبع^(١) ومع ذلك فهي في تقديره
لا تزيد على ثلث بغداد فيكون تكون عمارة هذه . ولما افضت الدولة الى السلطان
صلاح الدين اذن للناس بسكنى القاهرة فاتصلت بمدينه القسطنطية وكانت القسطنطية تسمى
(مصر) فلما صارتا مدينة واحدة أطلقوا عليهما اسم « مصر والقاهرة » ثم قالوا « مصر
القاهرة » ولما خربت القسطنطية ظل هذا الاسم للقاهرة وحدها كما هو مشهور



الاندلس

لما فتح المسلمون الاندلس كانت عامرة أهلة فاقاموا في مدنها وزادوها عمراناً
وأشهر تلك المدن قرطبة وقد زادها المسلمون عظمة بما بنوه في ضواحيها من القصور
الكبيرة أشباه المدن الضخمة مما سنذكره

قرطبة

هي من أعمال اندلوسيا واقعة على الوادي الكبير تستقي ماءها منه وكانت عامرة
قبل الاسلام ويظن أنها من بناء الفرطيجيين ودخلت في حوزة الرومانيين سنة ١٥٢
قبل الميلاد وتوالت عليها أحوال شتى حتى فتح المسلمون الاندلس فزلوا طليطلة ثم جعلوا
مقر الامارة في قرطبة وزاد الامويون عمارتها بما أنشأوه فيها من القصور والمساجد
والجسور وغيرها فأتسعت مساحتها وكان يحيط المدينة الاصلية ٣٣٠٠٠ ذراعاً عليها
سبعة أبواب فنشأ حولها ٢١ رباطاً في كل رباط من المساجد والاسواق والحمامات

ما يقوم بأهله . فصار طولها ٢٤ ميلاً وعرضها ستة أميال أو ١٤٤ ميلاً مربعاً (ومساحة لندن ١١٧ ميلاً) وكل ذلك ديار وقصور ومساجد وبساتين على طول ضفة الوادي المذكور

وقد أحصوا مباني هذه المدينة وأرباضها في إبان عمرائها احصاءات مختلفة خلاصتها ان عدد الابنية فيها كما يأتي :

عدد	
١١٣٠٠٠	دور الرعايا
٢٣٠	» الفصر الكبير
٦٣٠٠	» أهل الدولة
٣٨٧٣	المساجد
٩٠٠	الحمامات
١٢٤٥٠٣	

وذكروا ان عدد الابنية بلغ في أيام ابن أبي عامر ٢٠٠٠ دار للرعية و ٦٠٣٠٠ دار لاهل الدولة و ٨٠٢٥٥ حانوتاً غير الحمامات والحنانات^(١) ولا يخلو هذا التقدير من مبالغة والاول أقرب الى الصواب . واذا اعتبرنا ما يلحقه من الحوانيت والحنانات زاد المجموع على ضعفي عدد ابنية القاهرة اليوم

على انك ترى في هذا التقسيم تمييزاً بين الخاصة والعامة في المساكن . وان دور الخاصة نحو ٦ في المئة من دور العامة -- على حين ان دور الاشراف في رومية لم يزد عددها في ابان عمرائها على ٢٠٠٠ دار^(٢) فمارة قرطبة بهذا الاعتبار فائقة الحد وأما سكانها فكانوا يناهزون المليونين وسيأتي الكلام على قصورها

﴿ غرناطة ﴾ وأما غرناطة فكانوا يسمونها دمشق الاندلس لسكثرة اثمارها وأشجارها وفاكهتها وتمتاز عن سائر مدائن الاندلس بنهر يتوزع على دورها واسواقها وحماماتها وارجائها الداخلة والخارجة وبساتينها كما يتوزع نهر بردى في دمشق . وبلغت غرناطة قمة مجدها في الدولة النصرية وأشهر ملوكها ابن الاحمر في أواسط القرن الثامن للهجرة وهو الذي بنى قصر الحمراء فيها كما بنى عبد الرحمن الناصر قصر الزهراء في قرطبة وتقدم الى ذكر القصور والمباني

القصور والمباني

قال ابن خلدون « ان المباني والمصانع في الملة الاسلامية قليلة بالنسبة الى قدرتها وبالفياض على من كان من الدول قبها » ولكننا اذا اعتبرنا ما انتاب المدائن الاسلامية من أسباب الخراب بما توالى عليها من الاحن والفتن ونظرنا الى ما بقي من أبنيتها في مصر والشام والعراق وفارس والهند والاندلس رأيناها اكثر مما خيل لمؤرخنا الفيلسوف . ولعل الذي بعثه على هذا القول ان كثيراً من هذه المباني شيد بعد عصره على عهد السلاطين الماليك في مصر ومنها لم يتصل علمه بها مما في بلاد فارس والهند وغيرها . فقد كان للخلفاء والامراء على اختلاف الدول والممالك عناية في بناء المساجد والمصانع والقصور يتأمنون في هندامها واتمانها فضلاً عن المتنزعات والحدائق مما ينفقون فيه الاموال الطائلة فيجلبون اليه الاعراس من اطراف المعمور ويتفتنون في تزيين مجالسهم بالاتساع والتصاوير المموهة بالذهب ويذهب رسوم الحيوانات والادميين والازهار وغيرها مما ستراه

١ - مباني الامويين في الشام

لم يصلنا من أخبار مباني الامويين في الشام ما يستحق الذكر الا الجامع الاموي الذي جدد بناءه الوليد بن عبد الملك بدمشق وكان قبل الاسلام كنيسة على اسم القديس يوحنا فلما فتح المسلمون دمشق صالحوا اهلها على ان تسم الكنيسة مناحفة المسيحيون يصلون في نصفها الغربي والمسلمون في النصف الشرقي . فلما أفضت الخلافة الى الوليد بن عبد الملك أخذ النصفين جميعاً وجدد بناء الجامع فاستقدم نحو ١٢٠٠ صانع من بلاد الروم تأمنوا في بنائه فآثروا جدرانها كلها بفصوص من الفسيفساء خلطت بأنواع الاسبغة الغريبة فثلث اشجاراً وقرعت أغصاناً منظومة بالفصوص بيدائع الصنعة الانيمة . فاتفق في ذلك نحو ١١٢٠٠٠٠ دينار . وكان طول الجامع من الشرق الى الغرب ٣٠٠ ذراع وعرضه ٢٠٠ ذراع قائم على ٦٨ عموداً . وأعظم ما فيه قبة مصنوعة من الرصاص متصلة بالحراب عظيمة الاستدارة والارتفاع . وقد زاره ابن جبير الرحالة الاندلسي في القرن السادس للهجرة . وصفه وحققاً مطولاً وذكر تاريخه الى ايامه مما يضيق عنه المقام ^(١) ولا يزال هذا الجامع قائماً الى الآن وبعد من آخر أبنية المسلمين

(١) رحلة ابن جبير ٢٦٣

وبنى الحجاج بن يوسف قبة الاسلام في واسط وكانت من انجم الابنية وفيها يقول الشاعر

بنى قبة الاسلام حتى كأنما أتى الناس من بعد الضلال رسول^(١)

٢ --- مباني العباسيين

اول من شاد الابنية منهم المنصور فبنى القبة الخضراء ليجول اذهان الناس عن الكعبة اليها وبنى الجامع والحصون والقصور في بغداد كقصر الخلد وقصر باب الذهب وغيرها واخذ الخلفاء بعده في تشييد المصانع واقتدى بهم وزراءهم وأمراؤهم فقاموا قصوراً فخمة تعرف غالباً باسماء بانها كقصور البرامكة في الشامية وقصر ابن الخصيب وقصر أم حبيب بالجانب الشرقي من بغداد وقصر بني خلف بالبصرة وقصر عيسى بن علي وهو اول قصر بناء الهاشميون في أيام المنصور وقصر وضاح بنه رجل اسمه وضاح للمهدي العباسي وقصر الرشيد وقصر الامين وقصر ابن الفرات وقصر ابن مقله غير ما اطلقوا عليه نفث الدار كدار الشجرة الاتي ذكرها ودار القرار وهي قصر زبيدة زوج الرشيد وغير ذلك . وأخذت رغبتهم في بناء القصور تنزايد كلما تقدموا في المدينة وأغرقوا بالترف والرخاء . على ان بعض خفافهم كانوا يحبون العمارة وينشطونها واولهم المعتصم بالله فقد كان كلفاً بالبناء فبنى سامراً لأراكه واقطعهم فيها العطائم . والمتوكل على الله كان مغرمًا بالعمارة يبذل فيها الاموال الطائلة فاحدث أساليب من الابنية لم تكن معروفة قبله منها النمط الحيري والسكن ذات الاروقة . وبنى ثلاثة أبنية تعرف بالهاروني والجوسق والجعفرى بذل في بنائها جميعاً أكثر من ١٠٠٠٠٠٠ درهم^(٢) أنفق منها على القصر الجعفري أكثر من ٢٠٠٠٠٠٠ دينار^(٣) أو نحو ٤٠٠٠٠٠٠٠ درهم ثم صار تشييد المباني عادة جرى عليها الخلفاء فضلاً عن المتنزعات فبنى اسماعيل بن علي منزهاً أنفق فيه ٥٠٠٠٠٠٠ درهم^(٤)

قصر التاج وقصر التريا

وكان المعتضد بالله محباً للعمارة ايضاً فبنى قصراً في الجانب الشرقي من بغداد سماه « قصر التاج » لم يتم في أيامه قائمه ابنه المكتفي . وكان في مكانه قصر بناه جعفر البرمكي ثم سكنه الحسن بن سهل فسمي القصر الحسني . فلما تولى المعتضد سنة ٢٧٩هـ

(١) الكامل للمبرد ٢٨٧ (٢) السعدي ٢٧٩ ج ٢ (٣) ابن الاثير ٣٣ ج ٧

(٤) ابن الاثير ٢٨ ج ٦

أضاف اليه ما جاوره فوسعه وكبره وأدار عليه سوراً واتخذ حوله منازل كثيرة ودوراً واقطع من البرية قطعة عمالها ميداناً . وأخذ في بناء قصر التاج فاتفق خروجه الى آمد فلما عاد رأى الدخان يرتفع الى الدار فكرهه وابتنى على ميلين منه قصرأ سماه « قصر الزيا » طوله ثلاثة فراسخ انفق فيه ٤٠٠ ٠٠٠ دينار ^(١) وصاه بالقصر الحسيني وابتنى بين القصرين على مسافة ميلين سرداباً تمشي فيه جواريه وحرمه وسراريه وما زال باقياً الى الفرق الاول الذي صار بيغداد . وفي قصر الزيا يقول ابن المعتز :

سلمت امير المؤمنين على الدهر فلا زلت فينا باقياً واسع العمر
حلات الزيا خير دار ومنزل فلا زال معموراً وبورك من قصر
جنان واشجار تلاقت غصونها واورقن بالثمار والورق الحضر
ترى الطير في اغصانها هوائاً تنقل من وكر لهن الى وكر
وبنيان قصر قد علت شرفاته كمثل نساء قد تربعن في ازر
وانهار ماء كالسلاسل فجرت لترضع اولاد الرياحين والزهري
عطايا إله منعم كان عالماً بأنك اوفى الناس فيهن بالشكر

ولما توفي المعتضد قام ابنه المكتفي سنة ٢٨٩ هـ فاتم بناء قصر التاج وكان وجهه مبنياً على خمسة عقود كل عقد على عشرة اساطين في خمسة اذرع ^(٢)

دار الشجرة

وبني المقتدر بالله في اول القرن الرابع داراً فسيحة ذات بساتين مونة عرفت بدار الشجرة لشجرة كانت فيها مصنوعة من الذهب والفضة في وسط بركة كبيرة امام ايوانها وبين شجر بساتينها لها ثمانية شجر غصناً من الذهب والفضة لكل غصن منها فروع كثيرة مكللة بانواع الجوهر على شكل الثمار . وعلى اغصانها انواع الطيور من الذهب والفضة اذا مر الهواء عليها ابانت عن عجائب من ضروب الصغير والهدير . وفي جانب الدار من يمين البركة تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً . ومثله عن يسار البركة قد البسوا انواع الحرير المدبج مقلدين بالسيفوف وفي ايديهم المطارد يتحركون على خط واحد فيظن الناظر اليهم ان كل واحد منهم يقصد صاحبه ^(٣)

وفي دولة آل بويه بنى معز الدولة قصره المعروف بالدار المعزية انفق في بنائه ١٠٠٠ ٠٠٠ دينار وموّه سقفه بالذهب — ذكروا انهم لما ارادوا هدمه بذلوا في حث الذهب من سقفه ٨٠٠٠ دينار ^(٤) ولم يبق لهذه القصور او الدور اثر الان

(١) المسعودي ٣٢٨ ج ٢ (٢) معجم ياقوت ٨٠٦ و ٩٢٤ ج ١ (٣) معجم ياقوت ٥٢٠ ج ٣

(٤) ابن الاثير ١٤١ ج ٩

٣ - مباني الامويين بالاندلس

اما الاندلس فقد بنى بها آل مروان مصوراً سارت بذكرها الركبان ولا يزال بعض آثارها باقياً الى اليوم واكثرها في قرطبة وغرناطة - فمنها في قرطبة :

القصر الكبير

وهو آية من آيات الزمان شرع بينائه عبد الرحمن الداخل في اواسط القرن الثاني للهجرة وآتته من جاء بعده وبنوا القصور في داخله. وقد رأيت عند ذكر ابنية قرطبة ان القصر المذكور مؤلف من ٤٣٠ داراً بينها قصور ضخمة لكل منها اسم خاص كالكمال والمجدد والحز والروضة والمعشوق والمبارك والرسق وقصر السرور والبديع . وقد غلوا في زخرفها واتقانها واشأوا فيها البرك والبحيرات والصحاريج والاحواض وجلبوا اليها الماء في قنوات الرصاص على المسافات البعيدة من الجبال حتى اوصلوه اليها ووزعوه فيها وفي ساحاتها ونواحيها في تلك القنوات تؤديها الى المصانع صوراً مختلفة الاشكال من الذهب الابريز والفضة الخالصة والنحاس المموه الى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصحاريج الغريبة في احواض الرخام الرومية المنقوشة ينصب فيها الماء من انابيب من الذهب او الفضة بصور الحيوانات الكاسرة او الطيور الجميلة على اشكال بديعة (١)

مسجد قرطبة

ومن عجائب قرطبة مسجدها الشهير ذكروا انه لم يكن في بلاد الارلام اعظم منه ولا أعجب بناء وكان في مكانه كنيسة للانصارى شاطروهم عليها المسلمون عند الفتح كما فعلوا بالجامع الاموي في دمشق ثم أخذوا في توسيعه والزيادة فيه بانقاض الكنائس على توالي الاجيال . وأعجب ما فيه صومته أو المأذنة قالوا لم يكن في مساجد المسلمين صومعة تعدلها بنيت بضخام الحجارة فلما طولها الى مكان موقف المؤذن ٥٤ ذراعاً والى أعلى الرمانة الاخيرة ٧٣ ذراعاً وعرضها في كل تربيع ١٨ ذراعاً

وتدور الجامع بالاتساع بتوالي التجديد فيه حتى بلغت مساحته في ايام الخليفة الناصر ٢٢٥ ذراعاً في ٢٠٥ أذرع وزاد الحكم في طوله مئة ذراع وخمسة أذرع فصار طوله ٣٣٠ ذراعاً وزاد ابن أبي عامر في عرضه ثمانين ذراعاً فصار ٢٨٥ وارضه مرصعة باحدى عشرة بلاطة الوسطى عرضها ١٦ ذراعاً وعرض كل واحدة من اللتين تليانها غرباً واللتين تليانها شرقاً ١٤ ذراعاً وعرض كل واحدة من الست الباقية ١١ ذراعاً وزاد ابن أبي عامر ثمانى بلاطات عرض كل واحدة عشرة أذرع . وكان سقفه قائماً على

١٢٩٣ سارية من الرخام وعدد ثرياته ٢٨٠ ثريا . منها ثريات المتصورة من الفضة الخالصة . وكان في وسط الجامع تنور نحاس يحمل الف صباح . وكان للجامع تسعة أبواب مصفحة بالنحاس الاصفر الا باب المتصورة فانه من الذهب وكذلك جدار المحراب وما يايه وقد أجري فيه الذهب على الفسيفساء . وفي رأس الصومعة ثلاثة تفافيج دهر كل تفاحة ثلاثة أشبار ونصف اثنتان من الذهب الأبريز وواحدة من الفضة . وبنت كل تماحة وفوقها سوسنة قد هندست بأبداع صنعة ورمانة ذهب صغيرة على رأس الزيج . وكان في بيت المنبر مصحف الحليفة عثمان وعليه حلية الذهب مكانا بالدر والياقوت فوقه أغنية الدياج . وهو موضوع على كرسي من العود الرطب بمسار الذهب . وقد أفاض صاحب نقح الطيب في وصف هذا الجامع وما كان ينفق فيه من الزيت والشمع فأبراجه هناك ^(١) وتحول الجامع المذكور بعد دخول قرطبة في حوزة الأفرنج الى كنيسة ولا زال على بنائه الاسلامي وعليه النفوش الشرقية والكتابة العربية

قصر لرهاء

ومن قصورهم في قرطبة « الزهراء » بدأ بإنشائها الحليفة الداصر سنة ٣٢٥ هـ على أربعة أميال من المدينة وأتمها ابنه الحكم فاستغرق البناء أربعين سنة . وهي عبارة عن بلد كبير طوله من الشرق الى الغرب ٢٧٠٠ ذراع وعرضه ١٥٠٠ وعدد أعمدته أو سواريه ٣٠٠ سارية بعضها حل الى قرطبة من رومية وأفريقية وتونس وبعضها أهدها صاحب العسطنطينية وفيها الرخاء الأبيض والاخضر والوردي والمجزع . وكان في الزهراء مسجد نفيم وعدة قصور وحدائق على نحو ما تقدم في وصف القصر الكبير . وفيها البحيرات تسبح فيها الاسماك بألوانها وأنواعها واحواض الرخام المنقوش على أشكال شتى من مذهب وغير مذهب في بساتينها حوض منهوش بهائم الانسان جيء به من العسطنطينية ونصبه الناصر في بيت الشام للجلوس الشرقي المعروف بالثونس وجعل عليه ١٢ تمثالا من الذهب الاحمر مرصعة بالدر النفيس العالي مما صنع بدار الصناعة في قرطبة بصورة أسد بجانبه نزال الى جانبه تمساح يقابله ثمان وعقاب وفيل . وفي المجنبتين حمامة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدادة وتمر وكلها من ذهب مرصع بالجوهر يحجري اناء من أفواهاها ^(٢)

ووكل الناصر النظار في بناء هذه القصور الى ابنه الحكم بعده وذكروا ان الناصر كان ينفق عليها ثلث جباية الدولة وكانت ٦٠٠٠٠٠٠ دينار فينفق منها ٢٠٠٠٠٠٠

(١) نقح الطيب ٢٦٠ ج ١ (٢) نقح الطيب ٢٤٨ و ٢٦٧ ج ١ وابن خلكان ٢٩ ج ٢

دينار كل سنة على ذلك البناء . وقد تقدم انهم واصلوا العمل فيه ٤٠ سنة فلو فرضنا انهم كانوا ينفقون هذا القدر في نصف هذه المدة فقط لبلغ مجموع ما أنفق على الزهراء اكثر من ٥٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار ولكن يظهر ان الاتفاق السنوي لم يكن يبلغ ثلث جباية المملوك الا في بضع سنين وأما في سائر مدة البناء فكانت النفقة أقل من ذلك كثيراً

وقد ورد في مكان آخر ان الناصر كان ينفق على بنائها في ايامه ٣٠٠ ٠٠٠ دينار في السنة فاذا حسبنا ما أنفقه ابنه الحكم في ما بقي من الاربعين سنة على هذه النسبة مع ما أنفقه هو غير المقدار السنوي المذكور - كان مجموع ما دخل في بناء هذا القصر الفخم نحو ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار على الأقل . ولا غرابة في ذلك لاتنا اذا أعدنا النظر في تفاصيله رأينا فيه ما يفوق الحصر من المرصعات والمذهبات وقد أدخلوا فيه شيئاً كثيراً من الذهب حتى جعلوا بعض قمريده منه . وقد كان يتصرف في بنائه من الخدم والقلعة عشرة آلاف رجل و ١٥٠٠ دابة . وأغرب من كل ذلك ان الناصر اتما عمداً الى بناء الزهراء مرضاة لمخضية له كان اسمها « زهراء » طلبت اليه أن يبني مدينة باسمها وتكون خاصة بها ^(١)

الزاهرة

واقضى بالحليفة الناصر المنصور بن أبي عامر فابتنى سنة ٣٦٨ هـ قصرأ لاقامته سماه « الزاهرة » ليكون معماراً له يحميه من أعدائه فاقامه في طرف البلد على نهر قرطبة الاعظم وحشد له الصناع والقلعة وبالع في رفع أسواره وجعل فيه أبنية كثيرة من جملتها أهراء ودواوين وأقناع ما حولها لوزرائه وكتابه وقواده فابتنوا الدور والقصور وغرسوا الحدائق فقامت الاسواق وتنافس الناس بالنزول فيا كنفاتها تقريباً من صاحب الدولة حتى اتصلت أرباضها بأرباض قرطبة واتصلت بها الزهراء من الجهة الاخرى فاصبح الناس يمشون بين هذه المدن عشرة أميال على ضوء المبرج

قنطرة قرطبة

ويجدر بنا في هذا المقام الاشارة الى القنطرة الفخمة التي أقامها المسلمون على نهر قرطبة وكانت بنية قبل الاسلام ثم سفت قاعد المسلمون بناءها على يد عبد الرحمن الغافقي وطولها ٨٠٠ ذراع وعرضها عشرون ذراعاً وارتفاعها ٦٠ ذراعاً وعدد حناياها ١٨ حنية وأبراجها ١٩ برجاً ^(٢)

(٢) نفع الطيب ٢٢٦ ج ١

(١) نفع الطيب ٢٤٨ ج ١

قصر الحمراء وامثاله

الحمراء قصر شهير في غرناطة لا يزال شكله محفوظاً الى الآن يفصده السياح من كل مكان بناء ابن الأحمر في أواسط القرن الثامن للهجرة كما تقدم في ارض مساحتها ٣٥ فداناً على مرتفع فسيح . ويقال انها سميت « الحمراء » نسبة الى لون قرميدها . وفي هذا القصر كانت بركة السباع وفي وسطها تائيل أسود تمذف المياه من أفواهاها على شكل جيل

وبنى المنصور بن الاعلى قصرأ فخماً في بجاية أنشأ فيه بركة على حافتها أسود يجري الماء من افواهاها وعلى البركة أشجار من ذهب وفضة ترمي فروعها في الماء وعلى أغصانها أطيار من أشكال شتى بالوان بديعة وصنع عجيب على مثال الشجرة التي ذكرنا أنها نصبت في قصر المقتدر العباسي عند كلامنا عن ابنية العباسيين . وقد نظم ابن حمديس الشاعر الاندلسي قصيدة يصف بها بركة هذا القصر وخروج الماء من أفواه الاسود قال منها :

وضرباغم سكنت عرين رياسة	تركت خرير الماء فيه زئيرا
فكأنما غشى النضار جسومها	واذاب في افواهاها البلورا
أسد كأن سكونها متحرك	في النفس لو وحدث هناك مثيرا
وتذكرت فتكتها فكأنما	اقعت على أديارها لتثورا
وتخالها والشمس تجلولونها	ناراً وألسنها الماواחס نورا
فكأنما سلت سيوف جداول	ذابت بلا نار فعدن غديرا
وكأنما نسج النسيم لمائه	درعاً ففقد سردها تقديرا ^(١)

وقس على ذلك قصر المأمون بن ذي النون الاندلسي فانه اتفق في بنائه بيوت الاموال وكان من عجائبه انه صنع فيه بركة ماء كأنها بحيرة وبني في وسطها قبة وساق الماء تحت الارض حتى علا فوق رأس القبة بتدبير احكم المهندسون فكان الماء ينزل من أعلى القبة وحواليها محيطاً بها متصلاً ببعضه ببعض فكانت القبة في غلالة من ماء سكباً لا يفتر والمأمون قاعد فيها^(٢)

٤ — مباني مصر

مباني آل طولون

انشأ بنو طولون في مصر أبنية ضخمة أشهرها الجامع الذي بناه أحمد بن طولون لا تزال آثاره الى الآن بالهاهرة . والعصر الذي بناه في الهطائع وجعل له ميداناً كبيراً ولما توفي أحمد زاد فيه ابنه خوارويه وجعل الميدان كله إستاناً زرع فيه أنواع الرياحين واصناف الشجر ونقل اليه الودى المطيف الذي ينال ثمره العالم منه ما يتناوله الجالس من أصناف خيار النخيل . وحمل اليه كل صنف من الشجر المطعم العجيب وأنواع الورد وزرع فيه الزعفران وكما اجسام النخل نجاساً مذهباً حسن الصنعة وجعل بين النحاس واجساد النخل مزاريب الرصاص وأجرى فيها الماء المدبر فكان يخرج من تضاعيف قائم النخل عيون الماء فتجدر الى فساق معمولة ويفيض منها الماء الى مجاري تسقي سائر البستان . وغرس فيه من الریحان المروع على نموش معمولة وكنابات مكتوبة يتهدها البستاني بالمعرض حتى لا تزيد ورقة على ورقة . وزرع فيه النبلوفر الاحمر والازرق والاصفر والجنوي العجيب . وأهدي اليه من خراسان وغيرها كل اصل عجيب وطعموا له شجر المشمش باللوز واشباه ذلك من كل ما يستظرف ويستحسن . وبني فيه برجاً من خشب الساج المنموش بالنقر النافذ ايموم مقام الاقفاص وزوقه باصناف الاسباع وبلط ارضه وجعل في تضاعيفه انهاراً لطافاً جداولها يجري فيها الماء مدبراً من السواقي التي تدور على الآبار العذبة ويسقى منها الاشجار وغيرها . وسرح في هذا البرج من أصناف الهاري والدباسي والنونيات وكل طائر جميل الشكل حسن الصوت فكادت الطير تشرب وتغسل من تلك الانهار الجارية في البرج وجعل فيه أوكاراً في قواديس لطيفة ممكنة في جوف الحيطان لتفرخ الطيور فيها وعارض لها فيه عيداناً ممكنة في جوانبه لتقف عليها اذا تطايرت حتى يجابوب بعضها بعضاً بالصياح . وسرح في البستان من الطير العجيب كالطواويس ودجاج الحبش ونحوها شيئاً كثيراً

وعمل في داره مجلساً برفاقه سماء بيت الذهب طلى حيطانه كلها بالذهب المجاول بالالزورد المعمول في احسن نقش وأطرف تفصيل وجعل فيه على مقدار قامة ونصف صوراً في حيطانه بارزة من خشب معمول على صورته وصور حنالياده والمغنيات اللاتي تغنيه بأحسن تصوير وأبهج تزويق وجعل على رؤوسهن الاكليل من الذهب الخالص الابريز الرزين . والسكودان المرصعة باصناف الجواهر وفي آذانها الاجراس التفال الوزن المحكمة الصنعة وهي مسمرة في الحيطان ولونت اجسامها اشباه الثياب من الاصباغ العجيبة فكان هذا البيت من أعجب مباني الدنيا

وجعل بين يدي هذا البناء فسقية ملاًها زيتقاً . وذلك انه شكا الى طبيبه كثرة السهر فاشار عليه بالتغميز فأنف من ذلك وقال « لا أقدر على وضع يد احد علي » فقال له « تأمر بعمل بركة من زيتق » فعمل بركة يقال انها خمسون ذراعاً طولاً في خمسين ذراعاً عرضاً وملاًها من الزيتق فأنفق في ذلك أموالاً عظيمة . وجعل في أركان البركة سككاً من الفضة الحالصة وجعل في السكك زنانير من حرير محكمة الصنعة في خلق من الفضة وعمل فرشاً من ادم يحشى بالرج حتى ينتفخ فيحكم حينئذ شده ويلقى على تلك البركة وتشد زنانير الحرير التي في حاقة الفضة بسكك الفضة وينام على هذا الفرش فلا يزال الفرش يرتج ويحرك بحركة الزيتق ما دام عليه . وكانت هذه البركة من اعظم ما سمع به من الهمم الملوكية يرى لها في الليالي المقمرة منظر بهيج اذا تألف نور القمر بنور الزيتق (١)

مباني الفاطميين

ولما أفضى الامر الى الفاطميين بنوا في القاهرة الجامع الازهر وهو عامر الى اليوم وقصوراً اشهرها القصران الشرقي والغربي وانفقوا على الاخير منهما ٢٠٠٠ ٠٠٠ دينار (٢) فقس على ذلك ما أنفقوه في سائر القصور والدور كدار الفطرة ودار الديباج وغيرها . ولما استبحر عمرانهم تفتنوا في بناء المقاصير والمناظر على ضفة الخليج وشاطئ النيل كمنظرة الجامع الازهر ومنظرة اللؤلؤة على الخليج ومنظرة الغزالة بجانبها ومنظرة السكره ومنظرة الدكة ومنظرة المقس ومنظرة التاج ومنظرة باب الفتوح ومنظرة البعل ومنظرة دار الملك غير المتنزعات العظيمة والقصور الفخمة في الجزيرة والروضة كالقصر الذي بناه الأمر بأحكام الله لمحبوته البدوية وصماه الهودج وكانوا يتأقنون في زخرفة تلك المناظر والقصور تأثقاً عظيماً يدل على مبلغ حضارتهم وتفننهم . فمنظرة بركة الحبش كانت مصنوعة من خشب مدهون صور فيها الشعراء كل شاعر وبلده وعند رأس الشاعر أبيات نظمها في ذكر المنظرة وبجانب كل صورة رف لطيف مذهب فاذا دخل الخليفة وقرأ الاشعار أمر ان يحيط على كل رف صرة مختومة فيها خمسون ديناراً فيدخل الشاعر ويأخذ صرته (٣)

مباني الايوبيين والمماليك

ولما انتقلت الدولة الى الاكراد كان أعظم آثارهم البنائية قلعة القاهرة بناها السلطان صلاح الدين ايعتصم بها من الشيعة ولا تزال قائمة الى اليوم

(١) المقرئ ٣١٦ ج ١ (٢) المقرئ ٤٥٧ ج ١ (٣) المقرئ ٤٨٦ ج ١

ومعظم ما في مصر الان من الآثار البنائية انما هو من أعمال السلاطين المماليك ولا سيما المساجد كجامع السلطان حسن وجامع المؤيد وقايتباي وقلاوون وغيرهم . ومن آثار قبور الخلفاء خارج القاهرة فلها لهم وان نسبت الى الخلفاء بالاسم . غير ما اندثر من قصورهم وكانوا يقدون الفاطميين في زخرفها كالرفرف ، الذي بناه الاشرف خليل ابن قلاوون عالياً يشرف على الجزيرة كلها وصوّر فيه امراء الدولة وخواصها وعقد عليه قبة على عمد وزخرفها وكان السلطان يجلس فيه . وقصر يلبغا بناه الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٣٨ هـ لسكنى الامير يلبغا حيث مدرسة السلطان حسن تجاه القلعة وغيرها

الثروة والرخاء

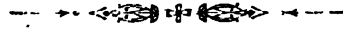
واشتغال الخلفاء والامراء بانشاء المدن وبناء القصور والمنزهات انما هو من ثمار الثروة وتكاثر النقود في بيوت الاموال فتنتقل الى رجال الدولة وغيرهم على ما يبناه في نظام الاجتماع ولذلك كان الخليفة اكثر الناس مالا لانه قابض على يدت المال بليه الوزراء والكتاب والعمال فبنوهاشم فالاتباع والنجار وغيرهم . واليك أمثلة من ذلك

ثروة الخلفاء واهلهم

لما كان الخلفاء يتولون شؤون الدولة بايديهم كانوا اكثر الناس ثروة فلما غهدوا بها الى الوزراء تحولت الثروة اليهم واصبح الخلفاء أحياناً مثل سائر الفقراء (١) والاصل في ثروة بيت المال ان تكون للدولة تنفق في مصالحها وللخليفة يدت مال خاص به ولكن الخلفاء تصرفوا باموال الدولة أولاً لاعتبارهم انفاقها مساعداً على تأييدها ثم انفقوها في الجواز والهدايا مثل هذه الغاية وتدرجوا الى بذلها في ملذاتهم وسائر اسباب تنعمهم . وكان يبقى مع ذلك في بيوت الاموال شيء كثير . وقد بينا في الجزء الثاني من هذا الكتاب مقدار ما بقي منها في خزائن الخلفاء الاولين من بني العباس المنصور والمهدي والمعتمد والمستعين والمكتفي وغيرهم (صفحة ١١٤) وما صار اليهم من الضياع الكثيرة (صفحة ١٢٤) وذكرنا ما بلغت اليه ثروة امهات الخلفاء ولا سيما الخيزران أم الرشيد وقبيصة أم المعتز وغيرها (صفحة ١٢٦) فلا حاجة الى التكرار . وانما نأتي ببعض التفصيل على سبيل المثال — ذكروا ان المكتفي خلف ١٠٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار هذا تفصيلها (٢)

دينار

٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠	من العين والورق والاواني المعمولة
٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠	» الفرش
٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠	» الكراع والسلاح والغلمان
٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠	» الضياع والمغار والاملاك
٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠	» الجواهر والطيب وما يجري معهما



ثروة رجال الدولة وغيرهم

وذكرنا في الجزء الثاني أيضاً صفحة ١٥٥ سبب ثروة الوزراء ومقادير الاموال التي حصلها الحسن بن الفرات والمارداني وابن كلس والافضل وابن شهيد واليك أمثلة أخرى :

اول من أرى من الوزراء البرامكة في عهد الرشيد فكثرت ضياعهم « الابعديات والحفالك » حتى بلغت غلة يحيى وابنه جعفر فقط ٢٠ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار في السنة . ولما نكبوا وقبضت اموالهم باع مقدار ما قبض منها ٣٠ ٦٧٦ ٠٠٠ دينار غير الضياع والدير والرياش ^(١) وبشبهه الوزراء ينفد الكسب بمصر وقد أرى منهم جماعة كبيرة كالمارداني في اواسط القرن الثالث للهجرة فلما أحدهم محمد بن علي المارداني ما قيمته ٣ ٠٠٠ ٠٠٠ دينار من الضياع بالشام ومصر والامتنعة مع كثرة ما كانوا ينفقونه على الناس من الرواتب . وكانت غلته ٤٠٠ ٠٠٠ دينار في السنة ^(٢) وهو مع ذلك لا يعد شيئاً بالنظر الى البرامكة . ومثلهم آل المغربي وآل الكتامي بمصر أيضاً

أما العمال والامراء فقد كانوا يحشدون الاموال الكثيرة ولا سيما المفوضين منهم ويسهل ذلك عليهم لاطلاق ايديهم في مصادر الحياة فيجمعون ما شاؤوا وكيف شاءوا . وقد أثروا وكثرت اموالهم من أيام بني أمية قبل زمن الوزراء خلف عمرو بن العاص سبعين بهراً من الدنانير والبحار أردبان بالمصري ذهباً ^(٣) وبلغت غلة خالد القسري ١٣ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم ^(٤) وصاروا في عهد بني العباس أوفر ثروة ولا سيما بعد ان طمعوا بالاستقلال خلف يعقوب بن الليث الصفار في بيت ماله ٥٠ ٠٠٠ ٠٠٠ درهم

(١) المقد الفريد ٢٢ ج ٣ (٢) المقرئ ١٥٥ ج ٢ (٣) المقرئ ٣٠١ ج ١

(٤) ابن الاثير ١٠٣ ج ٥

و ٤٠٠٠٠٠٠ دينار^(١) وقس على ذلك أموال السلاطين الممالك بمصر ورجالهم . وكانت مخلفاتهم من الجواهر والحلي تقدر بالارطال والقناطير والصناديق - مثال ذلك ما خلفه الامير سيف الدين يتكز التستري منها ١٩ رطلاً من الزمرد والياقوت وستة صناديق جواهر وفصوص الماس و ١٢٥٠ حبة لؤلؤ كبار مدورة مما زنته درهم الى مثقال و ٢٤٠٠٠٠ مثقال ذهب و ١٠٠٠٠٠٠٠ درهم فضة وأربعة قناطير مصرية من المصاغ والعقود ونحوها كالخلق والاساور وستة قناطير فضيات و ١٢٠٠٠٠٠ دينار . فقس عليه ثروة الخلفاء الفاطميين والسلاطين الممالك وغيرهم من سلاطين المسلمين وملوكهم

غير ثروة الحواشي والاتباع ممن أترى بالصناعة والادب او التجارة فقد ذكرنا ثروة بعض التجار في ما تقدم فاعتبر ذلك في سواهم من الاطباء والمغنين والشعراء فان ابراهيم الموصلبي مغني الرشيد توفي عن ٢٤٠٠٠٠٠٠ درهم^(٢) وذكرنا في باب الرواتب من الجزء الثاني صفحة ١٤٠ ما كان يقبضه جبرائيل بن بنحيشوع طيبه

تناجج الثروة

من قواعد العمران اذا تكاثرت الاموال في ايدي الناس ان يتوسعوا بالانفاق ويتمتعوا بمعيشتهم فيتأنقون بالطعام والشراب والسماع وغيرها من المذات الجسدية ويتمتعون باللبسة الثمينة والرياش الفاخر . ثم يطلبون المذات المعنوية من التفاخر باقتناء المجوهرات والعقارات ويلتمسون سعة الشهرة فيقربون من يضمن لهم ذلك كالشعراء ورواة الاخبار في ذلك العهد كما يفعل بعض اغنياء زماننا بالتقرب من ارباب الصحافة . ونقسم الكلام في هذا الباب الى فصول :

١ - التأنق في الطعام

قد رأيت في كلامنا عن أطمعة العرب انها كانت ساذجة قليلة ثم تعددت بعد الاختلاط بالاعاجم ولا سيما الفرس . والعرب قلدوا الفرس في اكثر اسباب الحضارة فضلاً عن نظام الحكومة . فكانوا اذا احوجهم الاحتفال بعيد او عرس أو ختان سألوا عما يفعله الفرس في مثله وقلدوهم فيه - هموا بذلك من عهد الامويين وكان الصحابة قبلهم يتحاشون التعمق اقتداءً بخلفائهم الراشدين مع غلبة البدادة على طباعهم.

(١) المسعودي ٣١٤ ج ٢ وابن النكاح ٣١٩ ج ٢ (٢) سير الملوك ١١٣

قابو موسى الاشعري كان يتجافى عن اكل الدجاج لانه لم يهداها للعرب . وكانوا يتجنبون الاكثار من اكل اللحوم ويمتقدون اضرارها نحو ما يعتقد النبايون اليوم تمثلاً بما قاله عمر بن الخطاب « مدمن اللحم كدمن الخمر » . فلما حكم الامويون ومالوا الى التمتع كان الفرس احسن مثال لهم . وأراد غير واحد من أمراء العراق تقليدكم في ذلك ولكن البداوة كانت تغلب عليهم فيرجعون . ذكروا ان الحجاج ابن يوسف أولم لختان أحد اولاده فاستحضر بعض الدهاقين ليسأله عن ولائم الفرس وقال « اخبرني بأعظم صنيع شهدته » فقال « شهدت ايها الأمير بض مرازية كمرى وقد صنع لاهل فارس صنيعاً احضر فيه صحاف الذهب على اخونة القضة أربعاً على كل واحد وتحمله اربع وصائف ويجلس عليه اربعة من الناس فاذا أطعموا اتبعوا اربعتهم المائدة بصحافها ووصائفها » فلما سمع الحجاج ذلك اكبره وغلبت عليه البداوة فقال « يا غلام انحر الجزر واطعم الناس »^(١)

على أنهم ما لبثوا ان رضخوا لتيار الترف حتى تكيفوا موافقة البيئة التي تحف بهم فبعد ان كانوا يحسبون الكافور ملحاً والرز طعاماً مسموماً والخبز المرقق كاعداً وبعد ان اكلوا العلهز والحنافس والعقارب وعجنوا الخنطة بنجالتها^(٢) فاقوا الفرس والروم في التائق والتمتع فتفننوا في معالجة اللحوم واصطناع التوابل المنبهة لشهوة الطعام التماساً للمزيد من اللذة . فكان الخلفاء والملوك من بني هاشم اذا جلسوا الى الطعام يقف الاطباء بين ايديهم ومعهم البراني بالجوارشانات الهاضمة المسخنة الطابخة المقوية للحرارة الغريزية في الشتاء على اصطلاحهم في ذلك العصر . ويقفون في الصيف ومعهم الاشربة الباردة والجوارشانات الموافقة لذلك الفصل^(٣) واقتدى بهم سائر الامراء واهل الدولة فكانوا يستشيرون الاطباء ويستعينون بهم في حفظ صحتهم حتى في اثناء الطعام وهم على المائدة وكان سيف الدولة اذا حضر الطعام جلس معه على المائدة ٢٤ طبيباً اذراقهم جارية

وغالى الخلفاء في استحضار ما اشتهر بطيبه من ألوان اللحوم والطيور والفاكهة ولو بعد مكانه فيحملونه على البريد ينفقون في ذلك الاموال الكثيرة^(٤) وكانوا يربون الطيور الداجنة على أطعمة مغذية يتوهمون انها تزيد في لذة طعمها او نفعها او تسهل هضمها . فكانوا يملفون الفراريج الجوز المفشر ويسقونها اللبن الحليب^(٥) وتقن الطهارة

(١) ابن خلدون ١٤٥ ج ١ (٢) ابن خلدون ١٧٠ ج ١ (٣) طبقات الاطباء ١٧٥ ج ١

(٤) لطائف المعارف ٩٥ وابن بطوطة ج ٣ (٥) طبقات الاطباء ١٤٠ ج ١

في اصطناع الاطعمة التي يظنون فيها الغذاء الكثير أو النفع الصحي وربما فعل بعضهم ذلك مغالاة بالاحتفاء كما فعل ابراهيم بن المهدي في زيارة زاره فيها الرشيد فاصطنع له اطعمة بينها جام سمك مقطع فاستصغر قطعه فسأله الرشيد عن ذلك فقال « يا أمير المؤمنين هذه ألسنة السمك » وقدّرت نفقة ما في ذلك الحام بألف درهم^(١) وقس عليه تفننهم في اصطناع الفالودج بدهن الفستق والمخ المعقود بالسكر والطبرز والعسل

فانتست مطابخ الخلفاء والامراء لتعدد الوان الاطعمة والتوسع في النفقة عليها حتى صار لكل صنف منها خدم عليهم رئيس . فكان عندهم لتربية الطيور ادارة قائمة بذاتها عليها رئيس وبلغت علوفة البط وحدها على ايام المقتدر العباسي ٣٠ قفيزاً من الشعير كل شهر^(٢) فاعتبر كم يحتاج اليه احدهم اذا اراد نقل مطبخه من الدواب لحمله . ذكروا ان عمرو بن الليث الصفار كان مطبخه يحمل على ٦٠٠ جمل^(٣) وكان للخليفة المقتفي العباسي ثمانون جملاً تحمل الماء من دجلة لشرب عياله^(٤) وأما مقدار المطبوخ من كل طعام فلا قياس له على أنهم كانوا يجعلونه اضعاف ما يحتاجون اليه مخافة ان يطرقهم اضياف فكانت الاطعمة تفيض بمقادير كبيرة يحملها الخدم ويبيعونها ويرتفقون بأعمالها^(٥)

فتنتج من الانغماس في الاكل والتفنن في التشويق اليه كثير من علل القناة الهضمية تواتت على أهل الترف في ذلك العهد كالفولنج وتلبك المعدة والدوزنطاريا وغيرها من عواقب الزهم في اللحوم كالنقرس والروماتزم ونحوها . وتسلمت السويداء على أمزجتهم وتولتهم حدة المزاج فجرهم الغضب الى سرعة الفتك والقتل من تغلب السويداء كما يتضح من مراجعة اخبارهم . وعلة ذلك في الغالب فساد الهضم . واشتهر من الخلفاء والامراء غير واحد من الاكلة منهم في أيام بني أمية معاوية بن أبي سفيان وعبيد الله بن زياد والحجاج بن يوسف وسليمان بن عبد الملك واشتهر من بني العباس محمد الأمين^(٦)

٢ - البذخ في الالبسة

كان المسلمون في صدر الاسلام يتوخون الحشونة في العيش والتعفف بالمطعم والملبس فكان الخليفة من الراشدين يمشي في الاسواق وعليه القميص الخلق المرقوع الى نصف ساقه او ثوب من كرباس غليظ وفي رجله نعلان من ليف وحائل سيفه من ليف وفي

(١) المسعودي ١٩٩ ج ٢ (٢) تاريخ الوزراء ٣٥١ (٣) الفجري ٢٣٢

(٤) الفجري ٢٧٦ (٥) التبريزي ٣١٨ ج ١ (٦) المسعودي ٢٦٧ ح ٢ والفرج

يده درة يستوفي الحد بها ^(١) . وكان عملهم في مثل حالهم اذا وفد احدهم على الخليفة لبس جبة صوف وتعم بعمامة دكناء واحتذى خفين مطارقين ودخل عليه ^(٢) وأول من اتخذ الملوكة من أمراء المسلمين معاوية منذ كان أميراً في الشام . وقدم عليه عمر ابن الخطاب في اثناء ذلك فلما رآه في ابهة الملك أنكرها عليه وقال له « أكرسوية يا معاوية ؟ » ^(٣)

ثم تحضروا وكثرت الاموال بين أيديهم وخالطوا اهل الترف من الاعاجم فاضطروا بطبيعة المدنية الى التبسط في العيش والتعم باللباس . وأحب الامويون الوشي كما تقدم واكثرهم رغبة في لبسه هشام بن عبد الملك فاجتمع عنده ١٢٠٠٠ قميص وشي و ١٠٠٠٠ تسكة حرير . وكانت كسوته اذا حج يحمل على ٧٠٠ جمل ^(٤) وفي أيامهم تسابق الصناع الى اعادة الوشي . وزاد المسلمون بذخاً في أيام بني العباس ورغب اهل التجارة في حمل اصناف المنسوجات الحريرة والصوفية بين موسى ومطرز ومحوك بالذهب او الفضة والمرصع بالحجارة الكريمة على اختلاف البلاد التي يصنع فيها على نحو ما بيناه في كلامنا عما يحمل من اصناف التجارة الى بغداد

ومن أهم المنسوجات الثمينة الخز وهو نسيج ناعم يصنع من الحرير ومن وبر الخرز وهو ذكر الارانب ^(٥) . والابرسم حرير خالص والدياج نسيج حريري موسى بالقصب باشكال الحيوانات ونحوها . والبز نسيج قطني ثمين وغير ذلك من اصناف الحرير والسكنان والاداري والملحم والمعلم والمنير ومنسوجات الشعر او الوبر او الصوف وما يلاحق ذلك من انواع السمور والقاقم وغيره — يصنعون منها الاقيسة والدراريع والطيايسة والحبب والعمائم والابراد والغلائل والملاحف والازر والسرراويلات والشاشيات والنيكك وغيرها

وكان الصناع يتبارون في اتقان هذه الصنائع ويقالون في ترفيعها لما يلاقونه من البذل في اتياعها لتوفر الثروة بين ايدي الناس ولا سيما الخليفة واهل دولته فكان هؤلاء يتهافون على اقتناء الالبسة لا يبالون كم يكون ثمنها حتى بلغت قيمة العمامة من الديقي خمسمائة دينار وهم مع ذلك بكثيرين من اقتنائها . وربما لبس الواحد اقية كل قباء بلون خاص المغاخرة في البذخ . وقد تزيد على اضعاف حاجتهم اليها فيجتمع عند احدهم عشرات او مئات او الوف من القطعة الواحدة ولا سيما الخلفاء — مثاله ما خلفه المسكني بالله من الالبسة وهو :

(١) الفخري ٢٥ و ٦٦ (٢) المقد الفريد ٦ ج ١ (٣) ابن خلدون ١٦٩ ج ١

(٤) المستطرف ٤٠ ج ٢ والمقد الفريد ٢٦٦ ج ٢ (٥) الف باه ١٨٧ ج ٢

عدد	
٤٠٠٠ ٠٠٠	من الثياب المقصورة سوى الخفامات
٦٣٠٠٠	» الاثواب الخراسانية المروية
٨٠٠٠	» الملائات
١٣٠٠٠	» العمام المروية
١٨٠٠	» الحلل الموشاة البمانية وغيرها منسوجة بالذهب
١٨٠٠٠	» البطائن التي تحمل من كمران في انايب القصب
١٨٠٠٠	» الابسة الارمنية

وتوفي ذو اليمينين وفي خزائنه ١٣٠٠ سراويل لم يستعملها ووجدوا في كسوة بختيشوع الطيب ٤٠٠ سراويل ديبقي . ولما قتل برجوان خادم الوزير بمصر وجدوا في تركته الف سراويل ديبقي بالف تكة حرير وغالوا في البذخ حتى كسوا دوابهم المنسوجات الحريرية الموشاة وكان الفاطميون يلبسون الفيلة أجلة من الحسرواني الاحمر المذهب . وكان في القاهرة دار يصنع فيها الديباج ونحوه . وكان عند الفاطميين خزانة لثياب يسمونها دار الكسوة يصطنعون فيها جميع أنواع الثياب والبز ويكسون بها الناس على اختلاف أعناقهم كسوة الشتاء وكسوة الصيف . وقد فصل المقرئزي مأخوذة تلك الدار من الالوان والاشكال ^(١) ولما جهز خارويه ابنته قطر الندى الى الحايقة المعتضد العباسي كان من جملة الجهاز الف تكة ثمن الواحدة عشرة دنانير ^(٢) وقس عليه سائر الملابس

٣ - الاناث والرياش والمجوهرات

كان الخلفاء الراشدون يجلسون على الارض مثل سائر الناس وكذلك عمالهم فكان عمرو بن العاص بمصر يجلس في قصره على الارض مع العرب ويأتيه المقوقس ومعه سرير الذهب محمول على الايدي لجلوسه شأن الملوك يومئذ فيجلس عليه وهو على ما تقدم وفاة له بما اعتقد معهم من الذمة اطراحاً لابهة الملك . فلما لبس المسلمون ان تحضروا واثروا حتى اتخذوا الاسرة الذهب والعاج وفاقوا الاكاسرة والقياصرة قبلهم . وأول من اتخذ السرير في الاسلام معاوية بن أبي سفيان ويريدون بالسرير المقعد أو الكرسي الكبير . ولم يقدم معاوية على ذلك الا بعد استئذان المسلمين واعتذر بثقل جسمه فزعم انه بدن فاذنوا له فاتخذوه واقتدى به من جاء بعده من الخلفاء ^(٣)

(١) المقرئزي ٤٠٩ ج ١ (٢) المقرئزي ٣١٩ ج ١ (٣) ابن خلدون ٢١٧ ج ١

اللائث والرياش عند الفرس

لما خرج المسلمون للفتح في زمن الراشدين كان أكثر ما لقوه من القرش الفاخر والمجوهرات الثمينة في فارس عند فتح المدائن فدهشوا منه ولم يعرفوا قيمته . ذكروا بدويّاً ظفريوم المدائن بحجر من الياقوت كبير يساوي مبلغاً عظيماً فلم يدر قيمته فاشتراه منه بعضهم بالف درهم ثم علم أنه كان يساوي أضماف ذلك المبلغ فلأمله أصحابه على تفریطه به فقال « لو عرفت عدداً أكثر من الالف لطلبتّه »^(١)

وكان في جملة ما عثروا عليه في المدائن كثير من الآنية والحلية الذهب المرصعة بالجواهر وفيها تاج كسرى نفسه والبسة من الديباج المنسوج بالذهب المنظوم بالجواهر . وظفر آخرون بسفطين في احدهما فرس من ذهب بسرج من فضة وعلى ثفره ولبانه الياقوت والزمرد المنظوم على الفضة وفارس من فضة مكمل بالجواهر . وفي الآخر ناقة من فضة عليها شليل من ذهب مكمل بالجواهر . ووقع لهم بساط يسمونه القطيف طوله ٦٠ ذراعاً في ٦٠ مطرز بالصور وعليه فصوص كالانهار أرضها مذهبة وخلال ذلك فصوص كاللر وفي حافاته كالارض المزروعة والارض المبقة بالنبات في الريح والورق من الحرير على قضبان الذهب وزهره الذهب والفضة ونمره الجواهر . وحمل هذا البساط الى عمر في المدينة فقطعه وفرقه في اصحابه مثل سائر الغنائم^(٢)

وكان عمر اذا جاءته الغنائم من العراق وفيها الجواهر بكى لما كان يخافه من مصير المسلمين الى الترف الآيل للسقوط . وكذلك ابو بكر وله سبق في نصرة الاسلام والفضل في تأييده فلما حضرته الوفاة وبّخ المهاجرين وخوّفهم وقال « والله لتتخذن نضائد الديباج وستور الحرير » والنبي قبلها نهي عن لبس الحرير واتخاذ آنية الذهب^(٣) فلم ينفعهم ذلك كله فأكادوا يأخذون باطراف الحضارة حتى اتمسوا باسباب التمتع بالقرش الوثير والرياش الفاخر

بدأ بذلك الامويون لما تقدم من رغبتهم في الدنيا وتحويالهم الخلافة الى الملك فأكبر خلفائهم المسرفون ولا سيما الوليد بن يزيد من العقود الجواهر يغيرها في كل يوم كما تغير الثياب وكان يجمعه من كل وجه ويغالي فيه حتى اغلاه^(٤) على أنهم اقتصروا من اسباب الحضارة على مثل ذلك لرغبتهم في البقاء على البداوة . الا ما اتخذوه من الستائر المطرزة التي كانت تصنع لهم في مصر كما تصنع للروم من قبل عليها طراز باليونانية مفاده البسمة عند التصارى^(٥) فابدها عبد الملك بالطراز العربي بصورة التوحيد . غير ما استعملوه من الوسائد المزركشة

(١) القفري ٧٤ (٢) ابن الاثير ٢٥٥ ج ٢ (٣) الف باء ١٨٧ ج ٢ (٤) الاغانى ١٢٩ ج ٦ (٥) الديري ٥٨ ج ١

الاثاث والرياش عند العباسيين

لما انتقلت الخلافة الى العباسيين اشتغل السفاح والمنصور بتأسيس الدولة وتأييدها فلما تأيد سلطانهم مالوا الى الترفه فاخذوا بتقليد الدول السابقة لهم عملاً بناموس العمران فاقنوا الاسرة انذهب المرصعة بالجواهر أو الابنوس المنزل بالعاج واتخذوا المقاعد والتمارق والكراسي ونصبوا منار الذهب أو قدوا فيها الشموع من العنبر وعلقوا الستور المطرزة والموشاة وافتروشوا البسط والطنافس المزركشة والحصر المنسوجة بالذهب المسكلة بالدر والياقوت^(١) وغالوا في اقتناء آنية الذهب والفضة يأنون من كل بلد باحسن مصنوعاته وأنما . فحملوا الستور المعلمة من فسا والبسط والمصليات من تستر وبخارا والحصر من عبادان والمقاعد من دشت - على ان أحسن اصناف الفرس المذهبة بطراز الذهب كانت تأتيهم من ارمينية . والطائف الارمني وهو عشرة مصليات بمخادها ومساندها ومطارحها وبساطها يساوي خمسة آلاف دينار^(٢) وكانت اطباق الحشب لانية الطعام تأتيهم من طبرستان والزجاج والحزف من البصرة واكثره وارد في الاصل من بلاد الصين على ما فصلناه في كلامنا عن التجارة من هذا الجزء . ولكن الزجاج الرقيق كان يحمل اليهم من الشام وكان يضرب به المثل بارقة والصفاء فيقال أرق من زجاج الشام واصفى من زجاج الشام^(٣) - اتخذوا ما تقدم من الانية والمفروشات تقليداً للفرس والروم على ما كانت عليه عندهم ثم عربوها فحملوا ما ينقش عليها من الكتابة باللغة العربية بين امثال وأشعار وحكم ينفشونها على الستور ويعلموها بمساعير الذهب والفضة^(٤) ويزركشون البسط والطنافس فيرسمون في اواسطها اشكالا وصوراً بما في البر والبحر ويطرزون حواشيها بالذهب أو القصب أبيضاً من الشعر وربما طرزوا دور البساط بقصيدة^(٥) وغالوا في الزخرفة حتى نقشوا الاشعار على آنية البلور واطباق الطعام وعلى جدران القاعات وفوق أبوابها - متفاوت ذلك شكلاً ومقداراً بتفاوت طبقات الناس من المطرز بالحريز الى المزركش بالقصب فالحلى بالذهب فالمرصع بالجواهر - كاللبساط الذي كان لام المستعين وعليه صورة كل حيوان من جميع الاجناس وصورة كل طائر من ذهب واعينها يواقيت وجواهر انفقت في صنعه ١٣٠٠٠٠٠ درهم^(٦)

واحدث العباسيون في عهد الرشيد اشكالا من الفرش وقنونه لم يسبقهم اليها أحد منها ما ينسبون اختراعه الى زوجته زبيدة فقد ذكروا انها أول من اتخذ القباب من الفضة والابنوس والصندل وكلايهما من الذهب والفضة ملبسة بانوشي والسمور والديباج

(١) ابن خلدون ١٤٥ ج ١ (٢) الفرج بعد الشدة ١٠٣ ج ١ (٣) لطائف المعارف ٩٥ (٤) الاثنيدي ٩٨ (٥) الاغانى ٤١ ج ١٥ (٦) المستطرف ١٣٤ ج ١

وأواع الحرير الاحمر والاصفر والاخضر والازرق^(١)

واخترع العباسيون المذاب وهي نوع من المرواح لم تكن معروفة قبلهم^(٢) وتفتنوا في زينتها وكتابة الاشعار عليها مما يناسب المرادها أو يشار به الى غرض . كما فعل أبو العتاهية في طلب الجارية عتبة من الرشيد وكان يخاف ان يرده فاهدى اليه ثلاث مرواح كتب على كل منها بيتاً هذا مجموعها :

ولقد تنسجت الرياح لحاجتي فاذا لها من راحتيه شميم
أعلقت نفسي من رجائك ماله عنق يحث اليك بي ورسم
ولربما استأسيت ثم اقول لا ان الذي ضمن النجاح كريم^(٣)
على ان كتابة الاشعار على المرواح كانت معروفة في ايام بني أمية^(٤)

المجهرات عند العباسيين

تعالى الخلفاء العباسيون في افتناء المجهرات ولا سيما الدر وهو اللؤلؤ الكبير . والياقوت الاحمر القاني . ويسمى البهرماني . ويتلوه الاحمر المشرق الرماني ثم الازرق الغميق وتشوب زرقته حمرة . ويسمى الاسمانجوني . وبمده الاصفر . وهو الفاقع اللون وبمده الذهبي . ولكل من هذه الاشكال قيمة تختلف باختلاف الصفاء والحجم . ومنها الزمرد واحسنه يعرف بالذبابي لقرب لونه من لون الذباب الكبير المائل الى الخضرة . والماس كانوا يفضلون منه ما يشوب لونه حمرة يسيرة — هذا أهم ما كانوا يتفاخرون باقتنائه من الحجارة الكريمة وأما الفيروز والمرجان والعقيق والجزع فقلما كان الملوك يفتنونه لكثرة

واكثر ما تناقله المسلمون من الحجارة الكريمة في أوائل دولتهم مأخوذ من غنائم الفرس لانهم غنموا ما يفوق الحصر من الجوهر التي قضى الفرس اجيالاً وهم يجمعونها ويتوارثونها فقبضها العرب صفقة واحدة ولم يعرفوا قيمتها كما ينناه آنفاً . واصابوا نحو ذلك لما حاربوا الاكراد فانهم غنموا سقطاً فيه جوهر حملوه الى عمر في جملة الغنائم فامر ببيعه وقسمته منه في المسلمين فباعه وقسمه وكان القص يباع بخمسة دراهم وقيمة عشرون ألفاً^(٥)

ولما تحضروا صاروا يشترون الجواهر بالآثمان الغالية فاشترى الرشيد فص ياقوت احمر بأربعين ألف دينار وكان قديماً يعرف بالجبل والملوك تصونه فنقش عليه الرشيد اسمه^(٦) واشترى فصاً آخر بمائة وعشرين ألف درهم^(٧) وعرض احد تجار المصوغات

(١) المسعودي ٣٦٦ ج ١ (٢) الاغانى ٨١ ج ١٢ (٣) المسعودي ١٩٦ ج ٢
(٤) العقد المرید ١٨٤ ج ٣ (٥) ابن الاثير ٢٤ ج ٣ (٦) المسعودي ٣٠٠ ج ٢
(٧) الاتليدي ١٤١

يغداد على يحيى بن خالد سفت جوهر فساومه على ثمنه بسبعة ملايين درهم^(١) وكثيراً ما كانوا يستخدمون الجواهر بدلاً من المبالغ الكبيرة فإذا عزم أحدكم على سفر طويل يستغرق نفقة عشرة آلاف دينار مثلاً فبدلاً من أن يحمل ذلك المال ذهباً أو فضة استبدله بمجوهرة أو عدة جواهر يسهل حملها في الحيب . فإذا وصل الى البلد المقصود باع الجواهر واتفق من ثمنها كما يفعل الناس اليوم بتحويل المصارف المالية أو البنك نوط

وكان الامويون يرغبون في المجوهرات ايضاً وقد رصعوا بها الحلبي وبعض الانية واصطنعوا منها العقود للبسم ولبس نسائهم وجوارهم . اما العباسيون فبالغوا في ذلك حتى نظموها في عصائب نسائهم كما فعلت اخت الرشيد^(٢) ورصعوا بها خفافهن كما فعلت أم جعفر زوجته^(٣)

فكان الخلفاء العباسيون يقتنون من الانية والفرش والمجوهرات والثياب ما لا يعلم مقداره الا الله يدلك على ذلك ما قدمناه مما خلفه المكتفي وغيره وما اخرجوه من خزائهم في فتنه البساسيري في أواسط القرن الخامس من جلته ٧٥٠٠٠ قطعة ديباج و ١١٠٠٠ كزاعند و ٣٠٠٠٠ سيف وهو بمض ما كان في دار الخليفة ومع ذلك فهو لا يقاس بما كان عند الفاطميين كما سترى

وقد أنكر ابن خلدون ترف بني العباس في ملابسهم وزيفتهم وسائر متاولاتهم لما كانوا عليه من خشونة البدواة^(٤) واستشهد بالمسمودي والطبري . ولا ينطبق رأيه في ذلك على ما ذكره هذان ولا على ما قاله هو نفسه . لان المسمودي هو الذي اخبرنا بنظم الجواهر في خفاف أم جعفر وهي من اقرب الناس للتقوى . والطبري أورد اخباراً كثيرة تدل على ترف العباسيين في عصر الرشيد غير ما ذكره غيرهما من ثقات التاريخ والادب المتقدمين كاصحاب الاغاني والعقد الفريد والمبرد والمعارف ولطائف المعارف وغيرهم . ونقل المؤرخون عنهم ذلك ولم يكبروه ولا اعترضوا عليه — حتى ابن خلدون نفسه فقد ذكر في مقدمة تاريخه « ان المأمون اعطى بوران في مهرها ليلة زفافها الف حصاة من الياقوت وقد اوقد الشموع العنبر في كل واحدة مائة من وثلاثين وبسط لها فرشاً كان الحصر منها منسوجاً بالذهب مكللاً بالدر والياقوت^(٥) ويلوح لنا ان ما كانوا يخافون عنه في صدر الدولة العباسية انما هو الركوب بحلية الذهب وأول من ركب فيها

(١) الطبري ١٨٩ ج ٢ (٢) الاغاني ٨٣ ج ٩ (٣) المسمودي ٣٦٦ ج ٢

(٤) ابن خلدون ١٥ ج ١ (٥) ابن خلدون ١٤٥ ج ١

منهم المعتز بالله ^(١) مؤرخنا الفيلسوف شديد الرغبة في تنزيه العباسيين عن الترف وهم من اعرق الخلفاء فيه

بدخ الفاطميين

كان العباسيون قدوة لمن قام بعدهم من الدول الاسلامية في مصر والشام والمغرب والاندلس . فالفاطيون بمصر كانوا يناظرون العباسيين في كل شيء حتى في اسباب الحضارة وكان التمدن الاسلامي قد نضج والدولة العباسية اخذت بالتفهم ففاقوهم في كثير من اسباب البذخ والترف ولا سيما من حيث الأناث والرياش والثياب فقد رأيت ان العباسيين رصموا عصائب نسائهم وخفافهن بالجواهر ولكن الفاطميين رصموا بها آنية المطبخ واتخذوا كوز الزبر من البلور مرصعاً بالجواهر وكلوا المزينة بحب اللؤلؤ النفيس وتأنقوا في المصوغات حتى اتخذوا منها التماثيل المرصعة للرينة في مجالسهم . فاذا جلس الخليفة في إحدى المناظر للراحة او تبديل الثياب وضعوا بين يديه الصواني الذهب على اشكال الصور الآدمية والوحشية من الفيلة والزرافات ونحوها معمولة من الذهب والفضة والعنبر والمرسين المشدود والمظفور عليها المسكل بالؤلؤ والياقوت والزبرجد ومن الصور الوحشية ما يشبه الفيلة بينها عنبر معجون كخلفة الفيل وناباه فضة وعيناه جوهريان كبيرتان في كل منهما مسبار ذهب مجري سواده وعلى الفيل سرير منجور من عود بمتكات فضة وذهب وعليه عدة من الرجال ركبان عليهم اللبوس تشبه الزرديات وعلى رؤوسهم الخوذ وبأيديهم السيوف المجردة والدرق وجميع ذلك فضة . ثم صور السباع منجورة من عود وعينا السبع ياقوتتان حراوان وهو على فرسته واشكال من سائر الوحوش . واصناف تشد من المرسين المسكل بالؤلؤ شبه الفاكهة ^(٢) وكان للفاطميين في القاهرة دور يختزنون بها أدوات الترف والبذخ بسمونها خزائن بعضها للفرش والبعض الآخر للجواهر وآخر للعنبر وآخر للبندود وآخر للسلاح وآخر للسروج او الدرق او الكسوات او الادم او الشراب او التوابل او الخيم . وكان الخليفة يذهب الى مجالس خاصة له في تلك الخزائن . والمجلس عبارة عن دكة عليها طراحة ولها فراش يخدمها وينظفها ليجلس الخليفة عليها اذا زار تلك الخزانة . وقد توسع القرظي في وصف هذه الدور وما حوته من الآلة والرياش والثياب والجواهر والاطياب مما يضيق عنه هذا المقام فليراجع في مكانه ^(٣) ونأتي بشيء من ذلك على سبيل المثال :

(١) السمودي ٣٠٥ ج ٢ (٢) القرظي ٤٧٢ ج ١ (٣) القرظي ٤٠٩-٤٢٥ ج ١

الملي والجواهر عند الفاطميين

فما أخرجوه من خزانة الجوهر في أيام الشدة على عهد المستنصر بالله (توفي سنة ٤٨٧ هـ) صندوق فيه سبعة امداد زمرد سألوا الصياغ عن قيمتها فقالوا انما نعرف قيمة الشيء اذا كان مثله موجوداً . واستخرجوا خريطة فيها وية جوهر قال الصياغ ان لا قيمة له واصل ثمنه ٧٠٠٠٠٠ دينار يبيع يومئذ بعشرين الف دينار . ووجدوا ما لا يحصى من ابداح البلور المنقوش والمجروح وصحوناً من الميناء منها ما يساوي مئات من الدنانير وفي مكان آخر ١٨٠٠٠ قطعة من بلور تتراوح اثمانها بين عشرة دنانير والف دينار كل قطعة . وصوان من الذهب المجرة بالميناء وغير المجرة المنقوشة بأنواع النقوش و١٧٠٠٠ غلاف خيار مبطن بالحرير محلاة بالذهب . ونحو مئة كأس بادزهر واشباهها على اكثرها اسم هرون الرشيد

غير ما وجدوه هناك من الصناديق المملوءة بالسكاكين المذهبة والمفضضة وانصافها من الجواهر المختلفة وصناديق مملوءة دوى (جمع دواة) على اختلاف الاشكال من الذهب والفضة والصنديل والعود والابنوس والعاج محلاة بالجواهر مما يساوي الف دينار الى بضعة آلاف كل دواة . وعدة ازيار مملوءة كافوراً وعدة جهاجم عنبر ونوافج المسك التيتبي وشجر العود وغيره

ومما خلفته رشيدة بنت المعز وحفظ هناك ما قيمته ١٧٠٠٠٠٠ دينار من جملتها ١٢٠٠٠ من الثياب المصمت الواناً و١٠٠ قاطر ميز مملوءة كافوراً قيصورياً ومعمات بجواهر من ايام المعز . وبيت هرون الرشيد الخزائن الاسود الذي مات فيه بطوس . ومثل ذلك مما تركته عبدة بنت المعز ايضاً ويطول شرحه . وخزائن مملوءة بأنواع الصيني تساوي القطعة منها الف دينار وحصير من الذهب وزنه عشرة أرتال يظن انه الحصير الذي حملت عليه بوران بنت الحسن بن سهل لما زفت الى المأمون كما تقدم وصوان من الذهب كان ملك الروم اهداها الى العزيز بالله

ووجدوا أنواعاً من الشطرنج والنرد مصنوعة من الجواهر والذهب والفضة أو العاج أو الابنوس وعدد كبير من الزهريات ونحوها . ومن تماثيل العنبر ٢٢٠٠٠ قطعة اقل تماثيل منها وزنه ١٢ مثناً ومن تماثيل الخليفة ما لا يحصى . والكلوة المرصعة بالجواهر قيمتها ١٣٠٠٠٠ دينار فيها من الجوهر ١٧ رطلا . وطاووس من ذهب مرصع بنفيس الجوهر عينا من ياقوت احمر وريشه من الزجاج المينا المجري بالذهب على الوان ريش الطاووس . وغزال مرصع بنفيس الدر والجواهر بطنه أبيض قد نظم من در رائق . ومائدة من الجزع يقعد عليها جماعة قوائمها مخروطة . ونخلة ذهب مكللة بالجواهر

وبديع الدر في اجانة من ذهب تجمع الطلع والبلح والرطب بشكله ولونه وعلى صفته
وهياته من الجواهر لا قيمة لها . وكوز زير بلور مرصع يحمل عشرة ارباطل ومزيرة
مكللة بحب لؤلؤ نفيس وقس على ذلك عشرات من امثاله
الفرش والاثاث عند الفاطميين

ووجدوا في خزان الفرش من اصناف الاثاث والرياش ما يعد بالالوف . من ذلك
١٠٠٠٠٠ قطعة خسرواني اكثرها مذهب ومراتب خسرواني وقلموني ثمن الواحدة
٣٥٠٠ دينار واجلة معمولة للفيعة من الخسرواني الاحمر المذهب و ٣٠٠٠ قطعة
خسرواني احمر مطرز بابيض من هديهما لم يفصل من كساء البيوت كاملة بجميع آلاتها
ومقاطعها وكل بيت يشتمل على مسانده ومخاضه ومساوذه ومراتبه وبسطه ومقاطعه
وستوره وكل ما يحتاج اليه . ومثل ذلك من الخمل والديباج والحز وسائر انواع الحرير
وعليها اشكال الصور من كل شيء . ونحو الف من الستور الحرير المنسوجة بالذهب على
اختلاف ألوانها وأطوالها فيها صور الدول وملوكها ومشاهيرها وعلى صورة كل واحد
اسمه ومدة أيامه وشرح حاله و ٤٠٠٠ رزمة خسرواني مذهب في كل رزمة فرش
مجلس ببسطه وتعليقه وسائر آلاته منسوجة في خيط واحد . ومن جملتها مقطع من
الحرير الازرق التستري غريب الصنعة منسوج بالذهب وسائر ألوان الحرير كان المعز
لدين الله أمر بعمله وفيه صورة أقاليم الارض وجبالها وبحارها ومدنها وأهارها
ومساكنها شبه الخارطة الجغرافية . وفيه صورة مكة والمدينة ومكتوب على كل مدينة
وجبل وبلد ونهر وطريق اسمه بالذهب والفضة او الحرير وقد كتب في آخره « مما
أمر بعمله المعز لدين الله شوقاً الى حرم الله واشهاراً لعالم رسول الله في سنة ٣٥٣ هـ »
فاعتبر ما تدل عليه هذه الآثار من رقي المدينة والحضارة وكما تكون قيمتها لو

وجدت الان وكما يدفع المتمولون من المبالغ في الحصول عليها
وقس عليه ما كان في سائر الخزائن من التحف ففي خزانة السلاح سيف الحسين
ابن علي ودرقة حمزة بن عبد المطلب وسيف جعفر الصادق ومئات الالوف من الدروع
والسيوف والقسي والرماح وغيرها . ففي خزانة السروج ألوف من السروج الثمينة
ومنها ما يساوي الف دينار الى سبعة آلاف دينار . وفي خزانة الخيول انواع الفساطيط
والمضارب والمسطحات والحصون والقصور والشراعات والمشارع العمومية من الديبق
والخلل والخسرواني والديباج المسكي والارمني والبهنساوي والكردواني وغير ذلك
على اختلاف الالوان والقش من المقيط والمسبح والخيول والمطوس والمطير وغيرها من
أشكال السباع والطيور والادميين مما ينصب على أعمدة ملبسة بالفضة . ومن هذه

الفساطيط ما يبلغ طوله ٦٥ ذراعاً كبيراً يحمله مع ملحقاته مثة حمل . وفي خزانة البنود كثير من الرايات والاعلام الساذجة والمطرزة وغيرها ومن أدلة الترف والاسراف في هذه الدولة ان السيدة للشريفة ست الملك أخت الحاكم بامر الله أهدت أخاها هذا هدايا من حملتها ثلاثون فرساً براكبها ذهباً منها مركب واحد مرصع ومركب من حجر البلور وتاج مرصع بنفيس الجواهر وبستان من الفضة مزروع من انواع الشجر

وقد يتبادر الى الذهن ان ما تقدم ذكره لا يخلو من مبالغة أو هو من قبيل الاحاديث الخرافية . ولكن مصر اشتهرت في العصر الاسلامي الوسطى بالثروة مثل شهرة بغداد في ابان حضارتها واشهر المصريون بالترف والغنى حين كان الناس يشكون الضيق ^(١) ولذلك قالوا « من دخل مصر ولم يستغن فلا أغناه الله » وقد تواتر ذكر هذه التحف واثالثها في كتب الثمات وبعضهم شهد الامر بنفسه ورأى هذه التحف رأي العين ومنهم ابن الاثير المؤرخ الشهير فقد ذكر في حوادث سنة ٥٦٧ هـ التي اقام فيها السلطان صلاح الدين الخطبة بمصر للدولة العباسية واستولى على ما كان باقياً في قصور الخلافة من التحف والجواهر بعد ما اصابها من النهب في فتنه المستنصر وغيره - قال « وحمل الجميع الى صلاح الدين وكان من كثرته يخرج عن الاحصاء وفيه من الاعلاق النفيسة والاشياء الغريبة ما تملو الدنيا من مثله ومن الجواهر التي لم توجد عند غيرهم فنه الحبل الياقوت وزنه سبعة عشر درهماً او ١٧ مثقالاً انا لا اشك لاني رأيته وه زنته والؤلؤ الذي لم يوجد مثله ومنه التصاب الزمرد الذي طوله اربع اصابع في عرض عقد كبير » ^(٢)

بذخ الاندلسيين

واقندى بالعباسيين في الترف والبذخ الاندلسيون ولكنهم لم يبلغوا مبلغ المصريين فهما . على ان بعضهم تفان بذلك على شكل لم يسبقه احد الى مثله فالتصور بن أبي عامر في أواخر القرن الرابع قدم عليه رسول ملك الروم وهو أعظم ملوك النصارى في ذلك الزمان ليطلع على أحوال المسلمين وقوتهم . فاراد المنصور ان يفتنه بما يطلعه عليه من عز الدولة وثروة المملكة فامر ان يفرس في بركة عظيمة ذات اميال نيلوفر ثم امر باربعة قناطير من الذهب وأربعة قناطير من الفضة فسبكت قطعاً صفراً قدر ما تسع النيلوفرة وملا بها جميع النيلوفر - بعث الى الرسول فحضر عنده قبل الفجر في مجلسه بالزاهرة فاجلسه بحيث يشرف على موضع البركة . فلما قرب طلوع الشمس جاء الف من الصقالة عليهم الاقية والمناطق من الذهب والفضة وبيد ٥٠٠ منهم اطباق من ذهب

وبيد ٥٠٠ أطاق من فضة فتعجب الرسول من جمالهم ولم يدر الغرض من محبتهم .
حين أشرقت الشمس ظهر النيلوفر في البركة وبادروا لاخذ الذهب والفضة منه وكانوا
يجمعون الذهب في أطباق الفضة والفضة في أطباق الذهب حتى التقطوا جميع ما فيها
وجاءوا به فعرضوه بين يدي المنصور حتى صار كوماً فتعجب الرسول من ذلك وأعظمه
وطلب المهادنة . واصطنع المنصور هذا قصرأ من فضة أصبح أم هشام وحمله اليها
على رؤوس الرجال استجلاباً لحبها^(١)

وأغرب منه ما فعله المعتمد الاندلسي لام اولاده الرميكية الملقبة اعتماد وقد رأت
ذات يوم نساء البادية باشبيلية يععن اللبن في العرب وهن رافعات عن سوقهن في
الطين فقالت « ياسيدي أشتهي ان أفعل انا وجواري مثل هؤلاء النساء » فامر
المعتمد بالغنير والمسك والكافور وماء الورد وصبر الجميع طيناً في القصر وجعل لها
قرباً وحبالاً من الابريسم وخرجت هي وجواربها تحوص في ذلك الطين^(٢)

وقس على ذلك سائر ملوك الاسلام في عصر الترف ففسد كان عند سنجر ابن
ملكشاه ١٠٣٠ رطلاً من الجوهر ولم يسمع بمثله عند الموك . وكانوا يقيسون
الاسراف أحياناً بما ينفقونه من الشمع في الاضواء فذكروا ان وظيفة كل من ابن
بقية وعز الدولة الف من شمع في الشهر^(٣) واشتهر محمد الامين بكر شمع . ولم
يكن ذلك الترف قاصراً على الخلفاء والملوك والامراء ولكنه كان يتناول سائر رجال
الدولة ومن برزق منهم وأما العامة فربما كانوا في أشد الضيق - راجع الجزء الثاني
من هذا الكتاب ١٦٨ طبعة ثالثة

٤ - التسري

هو اقتناء الجواري للتمتع بهن أو استيلادهن . وقد علمت ما كان من تكثرهن
والاتجار بهن وتربيتهن وتهاديهن في ذلك العصر . وتتكلم هنا عما بهت عليه الترف من
تسريهن . وكثيراً ما يعقب التسري الزوج فاذا ولدت الجارية لاحدهم تزوجها . وكان
العرب يكرهون الزوج بالجواري فمع كثرتهم في صدر الاسلام لم يتزوج الراشدون
جارية^(٤) ولكن المسلمين كانوا يتسرونهن للفراش . فتوفي الامام علي عن اربعة نسوة
و١٧ سرية^(٥) وكانت تلد الجارية لاحدهم فيبيعها كما يبيع سائر الجواري فنهى عمر
عن بيع أمهات الاولاد^(٦) وكانت العرب في كل حال تحتقر أبناء الجواري حتى نبغ

(١) نفع الطيب ٧٣١ و ٧٣٢ ج ٢ (٢) نفع الطيب ٢٠٨ ج ١ (٣) ابن خلكان ٨٧ ج ١
و ٦٣ ج ٢ (٤) ابن الاثير ٢٦ و ٩٢ ج ٣ (٥) الف باء ٣٤٧ ج ٢ (٦) ابن الاثير ٢٩ ج ٣

منهم ثلاثة من كرام الرجال أمهاتهم من بنات يزدجرد^(١) فرغب الناس في التسري وليس المسلمون أول من اقتنى السراري فالتسري كان شائعاً عند الرومانيين والسرية عندهم أحط منزلة من الزوجة ولكن علاقتها مع الرجل كانت شرعية . وكانوا في أول أمرهم كالعرب يكرهون التسري حتى تقدمهم فيه اثنان من كبار امرأهم فمكفوا عليه^(٢)

وزادت رغبة المسلمين في التسري في ابان الحضارة حتى أصبح أكثر أبناء الخلفاء من اولاد الجواري^(٣) وأكثر نساء أهل الدولة منهن^(٤) واقتدى بهم سائر الوجهاء والاغنياء . فعمدوا الى اقتناء السراري ومن ولدت له زوجها أو أعتقها . فبلغ عددهن عند بعض الخلفاء عدة آلاف ذكروا أنه كان للمتوكل العباسي ٤٠٠٠ تجارية وطهن جميعاً^(٥) وعلم الامراء برغبته فيهن^(٦) فتقربوا اليه بالهدايا منهن^(٧) فاهداه عبد الله بن طاهر ٤٠٠ وصيفة^(٨) وكان لنصر الدولة صاحب ميافرقين ٣٦٠ سرية على عدد ايام السنة^(٩) غير ما كانوا يقتنونه من الجواري للفناء فقد كان عند الرشيد ٢٠٠٠ جارية^(١٠) منهن ٣٠٠ قينة للفناء والضرب على آلات الطرب^(١١)

واصبح الاستكثار من الجواري عادة مألوفة حتى صار النساء يقتنهن للزينة . فكان عند أم جعفر البرمكي ٤٠٠ وصيفة بخدمتها^(١٢) وقد رأيت ما اتخذته زيدة من الجواري المقدودات وكيف البستهن ملابس الغلمان فقلدتهن الوجيهات من أهل اليسار فاتخذن الجواري المطمومات أو الغلاميات ثم تبارى الخلفاء وسائر الكبراء في ذلك حتى ألف القاهرة بالله العباسي جوقاً من الجواري بقدر واحد البسمن القراطق والاقبية والطرر والاقفية والمناطق من الذهب أو الفضة كنهن^(١٣) الغلمان^(١٤)

وقس على ذلك سائر دول المسلمين في المشرق والمغرب وقد قال الفاطميون سواهم في الاكثار من الجواري ايضاً فكان في قصر الحاكم بامر الله ١٠٠٠٠ جارية وخادم^(١٥) وكان عند اخته السيدة الشريفة ست الملك ٨٠٠٠ جارية منها ١٥٠٠ من البنات الابكار^(١٦) ولما قبض صلاح الدين على قصورهم وجد في القصر الكبير ١٢٠٠٠ نسمة ليس فيهم فحل الا الخليفة وأهله وأولاده غير الخدم والغلمان والامتعة والتحف وأطلق صلاح الدين البيع فيهم فاستمروا يبيعون عشر سنين^(١٧) ويقال نحو ذلك في السلاطين

(١) ابن خلكان ٣٢٠ ج ١ (٢) Gibbon II. 205 (٣) الجزء الرابع ١٦٤

(٤) السعدي ٢٧٩ ج ٢ (٥) الاغانى ١٣٣ ج ١٩ (٦) ابن خلكان ٥٧ ج ١

(٧) الاغانى ٨٨ ج ٩ (٨) الاتليدي ٦٧ (٩) السعدي ٢٠٨ ج ٢

(١٠) السعدي ٣٦٦ ج ٢ (١١) القرظي ٣٦ ج ١ (١٢) القرظي ٤٨٥ ج ٢

(١٣) القرظي ٤٩٧ ج ١

الممالك بمصر وبني أمية في الاندلس مما يطول شرحه ولا يزال مثاله عند بعض امراء الشرق وملوكه الى اليوم

أثمان الجواري

والاستكثار من الجواري في أوائل الاسلام لم يكن يحتاج الى نفقة كبيرة لكثرة السبايا فلما نضج التمدن صاروا يبتاعونهم ويفالون في رفع أثمانهم وكانت أسعارهم تنضاعف اذا جتمع بين الجمال ورخامة الصوت وصناعة الغناء. ويختلف ثمن الجارية من بضع مئات الى بضعة آلاف أو مئة ألف دينار. وأول من بذل في هذا السبيل الى هذا المقدار سعيد اخو سليمان بن عبد الملك فابتاع الزلفاء الجارية الشهيرة بمليون درهم^(١) (نحو ٧٠.٠٠٠ دينار)

وابتاع الرشيد جارية بمئة ألف دينار^(٢) وجارية أخرى اشتراها من ابراهيم الموصلبي بمبلغ ٣٦.٠٠٠ دينار فباتت عنده ليلة ثم ارسلها الى الفضل. وطلب محمد الامين الى جعفر بن الهادي ان يبيعه جارية له اسمها بذل فأبى فامر فاقروا قاربه ذهباً فبلغت قيمة ذلك ٢٠.٠٠٠.٠٠٠ درهم^(٣) أي أكثر من مليون دينار — وهذا اذا صح كان أعظم ما بلغ اليه بذلهم في اثمان الجواري

وأما ما خلا ذلك فقد اشترى يزيد بن عبد الملك الاموي سلامة المغنية بعشرين ألف دينار وبيعت الجارية ضياء بخمسين ألف دينار واشترى جعفر البرمكي جارية باربعين ألف دينار وابتاع الواثق بالله جارية مولدة للغناء اسمها الصالحية بعشرة آلاف دينار. وقس عليه ما دون ذلك وما فوقه واعتبر مقدار ما كانوا ينفقونه من الاموال في اقتنائهم

٥ — السخاء

علمت مما تقدم انطباع العرب على السخاء من أيام جاهليتهم وانهم اضطروا للمحافظة عليه بعد الاسلام حتى أصبح من قواعد الارزاق في من يحومون حول الخليفة واهل الدولة فلما توافرت الاموال في ايدي هؤلاء وتمتعوا بالحاجيات والكماليات من الملاذ الجسدية تطلبوا الملاذ المعنوية بحسن الاحدوة وهم اهل اريحية يستفهم الاطراء والاستنجاد فوجدوا في السخاء باباً واسعاً لتلك الملاذ فبذلوا الاموال على الشعراء والتدما والمغنين والمستجدين من سائر الطبقات لما في ذلك من لذة الفخر أو توقع الاجر

(١) العقد الفريد ٢٠٣ ج ٣ والمستطرف ١٣٢ ج ٢ (٢) الطبري ١٣٣٢ ج ٢

(٣) العقد الفريد ٤٣ ج ٣ والاغانى ١٤٥ ج ١٥

ملغ السخاء على العموم

وقد ذكرنا في كلامنا عن الارزاق بالسخاء ما الذي بعث على بقاء هذه المنقبة الجاهلية حتى صارت سنة مرعية . وتدرج المسلمون فيها بتدرجهم في الحضارة والمدنية وزادت جوائزهم بزيادة الثروة واتساع الارزاق فكان الامويون يعطون بالالف درهم أو بضعة آلاف يلحقونها ببعض الماشية أو الكسوة أو الخيل وإذا توسعوا في العطاء مصلحة جعلوا الصلة عشرة آلاف أو عشرات الالوف أو مئة الف أو مئات الالوف كما فعل معاوية في استرخاء الناس واكتساب بني هاشم الى حزبه فانه جعل صلات ابناء الصحابة ملايين يبذلها رواتب كل عام . وهو أول من فعل ذلك من المسلمين غير ما كان يصلهم به من الهدايا لسبب أو لغير سبب كما فعل لما ولد لعبد الله بن جعفر غلام فبذل له ١٠٠٠٠٠ درهم على ان يسميه معاوية فرضي ولكنه اعطى تلك الصلة للذي بشره بالغلام (١)

واقضى معاوية من خلفه من الامويين وامرائهم واشتهر من هؤلاء آل المهلب بالسخاء في الدولة الاموية كما اشتهر البرامكة في الدولة العباسية (٢) ومن أسخياء عمالهم خالد القسري والحجاج بن يوسف اذا مست الحاجة الى السخاء . فالحجاج أعطى للذي توسط في زواجه بهند بنت أساء ثلاثين غلاماً مع كل غلام عشرة آلاف درهم وثلاثين جارية مع كل جارية تحت من ثياب وغير ذلك (٣) وكان سعيد بن العاص لا يرسل الى أحد هدية مع عبد الا كان العبد في جملتها (٤)

أما العباسيون فكانت الثروة في أيامهم اوفر فبلغت اعطياتهم عشرات الملايين من الدراهم وأول من أعطى هذا القدر منهم المنصور (٥) ثم صاروا يهبون الضياع وخراج البلاد او يوقرون الزوارق ذهباً أو فضة أو يهدون الغلمان بمحلول بدر المال او يرسلون الجائزة على مئات من الدواب أو يولون الولايات والاعمال وتزداد جوائزهم اذا استخفهم الطرب او استفزهم الاطراء فقد ولي السفاح رجلاً الاهواز بقصيدة (٦) والغالب ان يكون سخائهم لغرض سياسي يعود نفعه على الدولة كما فعل المنصور اذ اعطى في يوم واحد عشرة ملايين درهم فرقها في اعمامه ووجوه قواده ليقطع السنهم عن مقاومته . ولما تولى ابنه المهدي استكتب اسماء اولاد المهاجرين والانصار وجلس مجلساً عاماً فرق فيه ٣٠٠٠٠٠٠ درهم وقرر لكل واحد من اهل بيته ٦٠٠٠ درهم كل سنة (٧)

(١) الاغانى ٧١ ج ١١ (٢) ابن خلكان ٢٦٦ ج ٢ (٣) الاغانى ١٣٠ ج ١
 (٤) الفرج بعد الشدة ٣٣ ج ٢ (٥) اطائف المعارف ١٦ (٦) فوات الوفيات ٢٠ ج ١
 (٧) سير الملوك ٦٥ و ٦٦

واعطى المغيرة بن حبيب الف فريضة يضعها حيث شاء^(١). وفرق الرشيد في يوم واحد ١٣٥٠٠٠٠ دينار^(٢) وطرب يوماً فتر على الناس ٦٠٠٠٠٠٠ درهم^(٣) واعطى الهادي لعبد الملك بن مالك صاحب شرطة ابيه مالا أرسله اليه على ٢٠٠ بغل موقرة دراهم^(٤) واعطى الامين الى سليمان بن ابي جعفر مليون درهم^(٥) واختص الامين من اساليب السخاء بأنه كان يأمر بايقار زورق الطالب ذهباً او فضة وكان قصره على شاطئ دجلة فاذا جاءه شاعر او طالب في زورق واخذته الريحية او استخفه الطرب قال « اوقروا زورق هذا ذهباً او فضة » وقلما كانوا يفعلون ذلك والعالم ان يعوضوا عنه بمبلغ من المال كما فعلوا بأبي محمد التيمي فانه مدح الامين بقصيدة اطربته فأمر الفضل بن الربيع ان يوقر زورقه مالا فقال « نعم يا سيدي » فلما طالبه التيمي بذلك قال له الفضل « انت مجنون من اين لنا ما يملأ زورقك ؟ » ثم صالحه على ١٠٠٠٠٠ درهم^(٦) واجاز المأمون طيبه بمليون درهم والف كر حفظة^(٧) وفرق المأمون في ساعة ٢٦٠٠٠٠٠ درهم ومدحه اعرابي فأجازه بثلاثين الف دينار^(٨) وكان المتوكل يهب الفطائع جوائز على المدح^(٩) وقس على ذلك هدايا سائر الخلفاء وأما ذكرنا اعظمها لبيان مبلغ ذلك في ابان التمدن فلما اقتقر الخلفاء العباسيون في اواسط الدولة صاروا يهبون الرتب الاسمية والعاب الشرف يسترضون الناس بها . وهذه ابيات يقولون ان ابا بكر الحواري نظمها بهذا المعنى :

ما لي رأيت بني العباس قد فتحوا من الكنى ومن الالهاب أبوابا
ولقبوا رجلاً لو عاش أولهم ما كان يرضى به للحنس بوابا
قل الدراهم في كفي خليفة هذا فانفق في الاقوام العبابا

سخاء البرامكة

على ان العصر العباسي الاول أما زها بالبرامكة وهم الذين رغبوا الخلفاء بالسخاء وأولهم خالد بن برمك وزير المنصور والثروة لم تنضح في أيامه ومع ذلك قالوا فدون على الخلفاء للاستجداء كانوا يسمونهم السؤال فقال خالد « هذا والله اسم استمله لطالاب الخير وارفع قدر الكريم عن ان يسمى به امثال هؤلاء المؤمنين لان فيهم الاشراف والاحرار

- (١) الاغانى ٩٨ ج ١٧ (٢) المستطرف ١٣٥ - ١ (٣) الاغانى ٨٨ ج ٩
و ١٢٤ ج ١٧ (٤) ابن الاثير ٤٢ ج ٦ (٥) المستطرف ١٣٣ - ١ (٦) الاغانى ١١٨ ج ١٨
(٧) طبقات الاطباء ١٢٨ ج ١ (٨) فوات الوفيات ٢٤٠ ج ١
(٩) الاغانى ٣ ج ١١

وأبناء النعم ومن لعله خير ممن يقصد وأفضل ادباً ولكننا نسيمم الزوار « وكان
ممن شهد مجلسه وسمع قوله بشار بن برد فقال :

حذا خالد في فعله حذو بركم فوجد له مستطرف وأصيل
وكان ذوو الآمال يدعون قبله بلفظ على الاعدام فيه دليل
يسمون بالسؤال في كل موطن وان كان فيهم نابةً وجليل
فسماع الزوار سترأ عليهم فاستاره في المهدين سدول

فأعطاهم خالد عن كل بيت ألف درهم ^(١)

وكان ابنه يحيى بن خالد اذا ركب اعطى كل من تعرض له ٢٠٠ درهم ^(٢) ويروون
من اخبار سخائه ما هو أشبه بالخرافات منه بالحقائق نذكر حادثة تواتر ذكرها في
كتب التاريخ والادب وهي تمثل سخاء يحيى أحسن تمثيل . وذلك ان البرامكة لما
نكبوا منع الرشيد الناس من ذكرهم او رؤيتهم فمن ذكرهم انما يذكرونهم سرّاً .
وظلوا على ذلك في ايام الامين والمأمون . فسمع المأمون بميخ يأتي خرابات البرامكة
ويكي ويتجب طويلاً ثم ينشد شعراً يرثيهم به وينصرف فبعث في طلبه فله احضرا نهره
الخليفة وسأله من هو وبما استحق البرامكة منه ما يصنع فقال الرجل وهو غير هائب
« للبرامكة عندي أياذ خضرة فان امر امير المؤمنين حديثه يبعثها » فقال « هات »
فقال « اما المنذر بن المغيرة الدمشقي نشأت في نعمة فزالت حتى وصلت الى بيع داري
وابلقت الى غاية فأشير عليّ بقصد البرامكة فخرجت الى بغداد ومعي نيف وعشرون
امراً وصيلاً فدخلت بهم الى مسجد ببغداد ثم خرجت وتركتهم جيعاً لا نفقة لهم
فررت بمسجد فيه جماعة عليهم احسن زي فجلست معهم أردد في صدوي ما أخطبهم به
فتجيد نفسي عن ذل المسألة واذا خادم قد ازعج القوم فقاموا فقامت معهم ودخلوا داراً
كبيرة فدخات فاذا يحيى بن خالد على دكة وسط بستان فجلسوا وجلست وكنا مائة
رجل ورجل فخرج مائة خادم في يد كل خادم منهم بحجرة ذهب فيها قطعة عنبر فتبخروا
واقبل يحيى على الماضي وقال : زوج ابن عمي هذا بابنتي عائشة . فخطب وعند النكاح
واخذنا النثار من فئات المسك وبنادق العنبر ومائيل الند فالتقط الناس والتقطت . ثم
جاءنا الخدم في يد كل واحد منهم صينية فضة فيها ألف دينار مخلوطة بالمسك فوضع
بين يدي كل واحد واحدة فاقبل كل واحد يأخذ الدنانير في كفه والصينية تحت ابظه
ويخرج فبقيت وحدي لا اجسر افعل ذلك فغمزني بعض الخدم وقال خذها وقم .

فاخذتها وقت وجملت أمشي وألثفت خوفاً من أن تؤخذ مني ويحيي يلاحظني من حيث لا أظن . فلما قاربت السر رُددت فينست من الصينية فحُمته فامرني بالجلوس فجلست فسألني عن حالي فحدثته عن قصتي فبكي ثم قال: علي بموسى . فجاءه فقال يا بني هذا رجل من اولاد النعم قد رمته الايام بصرفها نخذه اليك فاخاطه بنفسك فاخذني وخلق علي وأمرني بحفظ الصينية لي فكنت في الدعيش يومي وليتي . ثم استدعى أخاه العباس وقال : ان الوزير قد سلم اليّ هذا وأريد الركوب الى دار امير المؤمنين فليكن عندك اليوم فكان يومي مثل امس فاقبلوا يتداولوني وأنا قلقٌ بامر عيالي ولا أتجاسر ان اذكرهم . فلما كان في اليوم العاشر ادخلت على الفضل بن يحيى فاقمت عنده يومي وليتي فلما اصبحت جاءني خادم فقال : قم الى عيالك وصبيانك . فقلت : انا لله ذهبت الصينية وما فيها فليت هذا كان من اول يوم . وقت والخدام يمشي بين يدي فاخرجني من الدار فازداد ما بي ثم ادخلني الى دار كان الشمس تطلع في جوانبها وفيها من صنوف الآلات والفرش فلما توسطتها رأيت عيالي رنمون في الديباج والستور وقد حمل اليهم مائة الف درهم وعشرة آلاف دينار وسلم اليّ الخادم سكاً باسم ضيعتين جيليتين وقال : هذه الدار وما فيها والضياع لك فاقمت مع البرامكة في اخفض عيش الى الان . ثم قصدني عمرو بن مسعدة في الضيعتين والزممني من خراجهما ما لا يفي به دخلهما فكلما لحقني نائبة قصدت دورهم فبكيت »

فاستدعى المأمون عمرو بن مسعدة وامره ان يرد على الرجل ما استخرج منه ويقرر خراجه على ما كان في ايام البرامكة . فبكي الشيخ بكاء شديداً فقال له المأمون « ألم استأنف بك جميلاً » فقال « بلى ولكن هذا من بركة البرامكة » فقال « امض مصاحباً فان الوفاء مبارك وحسن العهد من الايمان » (١)

وعلى ذلك شب جعفر والفضل ابنا يحيى وسائر البرامكة وتوسعوا في السخاء حتى عينوا الرواتب لاهل الحاجات . فقد ذكرنا في ما تقدم ان غلثهم بلغت ٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار في السنة فلما قتل جعفر وقبضت اموالهم وجدوا ١٢٠٠٠٠٠٠٠ دينار في بدر مختومة وعليها صكوك لاناس على سبيل الرواتب او الصلات او نحو ذلك (٢) . ومن فنون سخائهم ان الفضل بن يحيى كان يكتب رقاعاً بخطه فحواها « امض الى فلان الصيرفي وخذ منه كذا وكذا ديناراً » حسبما يجريه الله على يده ويركب في الليل او في القاعة ويحترق شوارع البلد وينثرها فيها . ونسئل عن ذلك فقال « اردت ان يصل بري

(١) الفرج بعد الشدة ٢٢ ج ٢ وسير الملوك ١١١ والالتيدي ١٣٢

(٢) العقد الفريد ٢٢ ج ٣

الى من لا يصل اليّ ولا اعرفه ولا يعرفني » فاذا وجد احد رقعة من هذه الرقاع مضى بها الى الصيرفي فيأخذها منه ويعطيه ما فيها وعند الصيرفي امين جالس لئلا يصلحه على بعضها . ولا يعطي لاحد غير رقعة واحدة ولا يسأل عنه ولا يثبت اسمه وربما جاءت بيد الصبي والمرأة والذي فيأخذ ما فيها ^(١)

واشتهر من وزراء الدولة العباسية بالسخاء بعد البرامكة آل الفرات في ايام المقتدر فكانوا يفرضون الرواتب للعلماء والادباء والفقهاء وأهل الفاقة وقد نكبوا كما نكب البرامكة ولكن شهرة البرامكة غلبت على سواهم فأصبحوا مضرب الامثال في الكرم . ولا يزال الناس يتدالون أخبارهم ويتمثلون بسخائهم ويستحثون اربحية العظماء على السخاء بما يروون من أحاديثهم حتى ظنوا بعضهم موضوعاً لهذه الغاية . ولا يبعد أن تكون رغبة الناس في الاستحثاث بعثت على المبالغة في بعضها ولكنها صحيحة على أجمالها — قال السلطان العادل الايوبي مرة وقد جرى ذكر البرامكة وامثالهم من الكرماء « هذا كذب مخناق من الوراقين ومن المؤرخين يقصدون بذلك ان يحركوا هم الملوك والاكابر للسخاء وتبذير الاموال »

فقال بعض الحضور « ياخوند ولاي شيء ما يكذبون عليك ؟ » ^(٢)

السخاء على الشعراء والمغنين

واعتبر ذلك في سخائهم على الشعراء فقد كانت اجازة الشعراء قاعدة عامة من أوائل الاسلام لاسباب تقدم ذكرها ويشبه ذلك ماتنفقه بعض الدول اليوم على الصحافة لتنصرها أو تأخذ بيدها في نشر مبدأ أو رأي . وتعودوا ان يسموا ما يعطى للشاعر جائزة أو صلة كما يسمون ما يعطى للصحف اعانة أو راتباً . على ان بعض الخلفاء كانوا يفرضون للشعراء رواتب يتناولوها مشاهرة أو مساهمة وربما عدوا الجائزة راتباً يناله الشاعر اذا وفد على الخليفة أو الامير في يوم من السنة . وقد تكلمنا عن الشعر وسائر أحواله في ما تقدم ونحن ذا كرون سخاء الخلفاء على الشعراء في ابان الحضارة أول من جاد على الشعراء في الاسلام بنو أمية واسخاهم الوليد بن يزيد وهو أول من عد أبيات الشعر وأعطى على كل بيت الف درهم ^(٣) واقتدى به من جاء بعده منهم . أما العباسيون فزدوا القيمة وأعطوا على القصيدة في مدحهم ١٠٠ ٠٠٠ درهم وأول من نال هذه الصلة منهم مروان بن أبي حفصة وصله بها المهدي على قصيدة مدحه بها مطلعها :

(١) ترتيب الدول ٢٢ (٢) نفع الطيب ٤٧٢ ج ١

(٣) ابن الاثير ١٣٧ ج ٥ والاغانى ١٢٨ ج ١٧ و٣٩٩ ج ٩

« طرقتك زائرة فحيّ خيالها » ^(١) ومدحه سالم الخاسر بقصيدة مطالعها :

« حضر الرحيل وشدتّ الاحداج »

فأراد ان ينقص له من جائزة مروان خلف انه لا يأخذ الا ١٠٠٠٠٠٠ درهم ويقال انه أعطاه إياها ^(٢) والغالب انه أعطاه ١٠٠٠٠٠ فقط وإنما أضيفت الالف الاخرى خطأ من النساخ

وكان المتصور قبله بخيلاً على الشعراء اذا أحب ان يعطي شاعره أبا دلامة فرض على الهاشميين دينارين دينارين ليعطيها له ^(٣)

أما الرشيد فاعطى مروان كما كان يعطيه المهدي أي مائة ألف درهم ^(٤) وأعطاه مرة ٥٠٠٠ درهم وعشرة من الرقيق وكان يعطي أبا العتاهية راتباً سنوياً مقداره ٥٠٠٠٠ درهم غير الجواز والمعاون ^(٥) وفاقهم المتوكل في ذلك لانه أعطى حسين ابن الضحاك ألف دينار عن كل بيت من قصيدة قالها وهو أول من أعطى ذلك ^(٦) وكان المتعمم اذا أعجبه قول الشاعر ملاً فنه جوهر أ وقد سبقه الى ذلك يزيد بن عبد الملك ^(٧) وتشبه الوزراء والامراء بالخلفاء فكان خالد القسري يجلس للشعراء في يوم معين ويحيزهم . وكذلك آل المهلب فانهم فرضوا لهم الاعطية والجواز ^(٨)

أما في الدولة العباسية فالبرامكة لم ينفخروا وسعاً في اجازة الشعراء وخصوصاً الفضل بن يحيى وقد قال فيه بعضهم :

ما لقينا من جود فضل بن يحيى ترك الناس كلهم شعراء ^(٩)

وكان أبوه يحيى اذا لفه شاعر ولم يكن معه مال أعطاه دابته ^(١٠) وقد فاق البرامكة الخلفاء في اجازة الشعراء فقال شاعرهم ابن اللاحقي على قصيدة واحدة مثل ما قاله مروان بن ابي حفصة من الرشيد كل عمره ^(١١) وقس على ذلك سخاء سائر الوزراء والامراء فان يزيد بن مزيد أعطى نصف ماله لشاعر ^(١٢)

ويقال نحو ذلك في سخائهم على المغنين فقد أعطى المهدي دحمان المغني في ليلة واحدة ٥٠٠٠٠ دينار لانه أطربه . وأعطى الامين اسحق الموصل ١٠٠٠٠٠٠ درهم

(١) ابن خلكان ١١٢ ج ٢ (٢) ابن خلكان ١٩٨ ج ١ (٣) الاغاني ١٢٨ و ١٣١ ج ٩

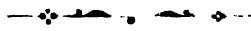
(٤) الاغاني ١٩ ج ١٢ (٥) الاغاني ١٥٧ ج ٣ (٦) الاغاني ١٨٤ ج ٦

(٧) الاغاني ١٧٤ ج ٦ و ١٤٧ ج ١ (٨) الاغاني ١٦٤ ج ١١ (٩) ابن

خلكان ٤١١ ج ١ (١٠) الاغاني ٨ ج ٥ (١١) الاغاني ٧٣ ج ٢٠

(١٢) ابن خلكان ٢٨٦ ج ٢

لانه غناه شعراً في مدحه فحملها الى داره مئة فراش^(١) وكان الهادي يجري على ابراهيم الموصلي عشرة آلاف درهم في الشهر سوى صلاته . أما الرشيد فكان اذا طرب وهب وجاد حتى ولى اسماعيل بن صالح مضر لانه أطربه بفنائمه^(٢) وأخبار الشعراء والمغنين كثيرة لا يحل لها واقتدى بسخاء العباسيين ورجال دولتهم سار رجال الدولة الاسلامية وان لم يبلغوا شأوهم



٦ — المسكر

كان المسكر شائعاً قبل الاسلام في الشام والراق وفارس ومصر وجزيرة العرب وغيرها وكان ملوك الفرس يقولون على اللذات والمسكرات . ويقال ان الرومانيين لم يعودوا المسكر الا بعد فتحهم آسيا . على ان عقلاء الناس كانوا يجرمون شربه حتى في جاهلية العرب فان جماعة منهم حرموه على انفسهم وأهلهم واذا عرّبوا احدثهم بالسكر وتكرر ذلك منه خلع قومه ونقوه . فلما جاء الاسلام ورد النص بتحريمه وأقيمت الحدود في منعه بالجلد والحبس وحلق الرأس او اللحية والشارب او قطع العطاء وعاقبوا بانهيه وكسروا اوانيها ولا سيما في عصر الراشدين وأوائل ايام بني أمية حتى عنف عمر بن الخطاب خالد بن الوليد على تدلّسه في الحمام بغسل فيه خمر وقال له « ان الله حرم ظاهر الخمر وباطنها ومسها فلا تمسوها بجسادكم » ومع ذلك فاختلاط المسلمين باهل البلاد المفتوحة عودهم إليها حتى شربها جماعة من الصحابة وابنائهم فوقعوا تحت طائلة لعقاب . وأول من عوقب على شربها وحشي بن حرب قاتل حمزة^(٣) ثم عوقب غير واحد منهم ومن ابنائهم وفيهم جماعة من السكباء كالوليد بن عتبة ويزيد بن معاوية وعبد الله بن عمر بن الخطاب وأخويه عبد الرحمن وعاصم والعباس بن عبد الله بن عباس وقدامة بن مظعون وعبد العزيز بن مروان وعبد الرحمن ابن عبد الله الثقفي القاضي وابي محجن الثقفي وغيرهم^(٤)

ومما ساعد على نشر الخمر بين المسلمين ان بعض الخلفاء الامويين كانوا يشربونها كيزيد بن معاوية وعبد الملك بن مروان ويزيد بن عبد الملك والوليد بن يزيد^(٥) والوليد

(١) الاغانى ٩٩ و ١٤٢ ج ٥ (٢) حلية الكدّيت ٦٣ و ٦٤ (٣) المعارف لابن

قتيبة ١١٢ (٤) المقد الفريد ٣١٤ ج ٣ (٥) الاغانى ١٥٤ ج ١٩ و ١٥٧ ج ١٣

والمقد الفريد ٣١٤ ج ٣

هذا أرل من وصف الخمر وتغزل بها فسرق الشعراء معانيه وأدخلوها في اشعارهم . وتهتك الوليد في المسكر حتى حدثته نفسه أن سكر فوق الكعبة يخوفه أجنابه من الناس فامسك . وقد أفسده وغلمه الخلاعة . مؤدبه عبد الصمد بن عبد الاعلى^(١) على ان رجال الحكومة كانوا يشددون في منع الخمر والحد عليها حتى كثيراً ما كانوا يمنعون بيع العسل لئلا يصنعوها منه^(٢) وأشهر من شدد في منعها من الخلفاء عمر بن عبد العزيز الاموي والمهتدي العباسي وهي لا تزداد الا انتشاراً باتساع أسباب الحضارة وذهاب دهشة الدين واشتغال الناس بالغناء والجواري . حتى صاروا يشربونها جهاراً . واشتهر بشربها غير واحد من الخلفاء وأهالهم ورجال الدولة مع التهلكة في مجالس الشرب . فعمد بعض المتعلمين من الفقهاء ورجال الدين الى اتحال المسوغات لشربها فاختدوا يحنون في الفرق بين انواعها وميزوا بين الحلال والحرام منها فاجعوا على تحريم الخمر واختلفوا في تحريم النبيذ وفي اي أنواعه حلال واياها حرام ويقال بالاجمال ان اهل العراق كانوا يستحلون النبيذ وأهل الحجاز يحرمونه^(٣)

والنبيذ يصنع من اكثر أنواع الفاكهة ولا سيما العنب والتمر والزبيب والتفاح والمشمش ومن الذرة . ويختلف باختلاف البلاد باختلاف طرق استحضاره وهو عصير بعض هذه الثمار او منقوعها كما ينفع الزبيب اليوم (الحشاف) وقد يضيفون اليه العسل او الدبس او يصنعونه من احدهما مع الحب على النار^(٤) وكانوا اذا قبلوا على شربه صفوه وتناولوه بالاقذاح الكبيرة وربما صنعوا الخمر منه واذا صفي في الفناي صعب تمييزه من الخمر او منقوع الزبيب أو مذوب العسل^(٥) فمن احب الشرب استحل تناوله على انه نبيذ فاذا اكثر من شربه فعل فعل الخمر . وبعضهم كان يحمل قليل الخمر ويحرم كثيرها وآخرون يحللون شرب الخمر إلا اذا ادت الى السكر^(٦) . ولكن الاكثرين حكوا بحرمتها ولهم في ذلك اقوال يطول شرحها تراها مبسوطه في كتب الشرع

فالخلفاء العقلاء الذين بلغنا أنهم سكروا في بعض مجالسهم كانوا يستحلون شرب النبيذ وهو حلو منمش خيكثرون منه حتى يسكروا . ويؤيد ذلك أنهم كانوا يشربونه بالارطال . واذا طال مكث النبيذ قبل شربه دب فيه الاختمار وتولد الكحول ولو قليلا .

(١) ابن الانبير ١٢٤ و ١٣٦ ج ٥ (٢) تقريري ٢٩٧ ج ٢ (٣) ابن الانبير ٣٦ ج ٦ وابن خلدون ١٥ ج ١ (٤) كتاب البخل ٥١ (٥) الاغانى ٤ ج ٥ و ١١٢ ج ٤ و ٣٥ ج ٣ (٦) العقد الفريد ٣٠٩ و ٣١٨ ج ٣ و ٢٧٠ ج ٢ والف باء ٨١ ج ١

وقد يطول مجلس الشراب فيسكر الشاربون ويعربدون . وربما أتوا في سكرهم بما لا يأتيه غير المجانين وافضع ما يروى من هذا القبيل ان الملك الناصر ابن الملك المعظم الايوبي كان اذا سكر يقول « اشتهي ان ارى غلامي فلاناً طائراً في الهواء » فيرى ذلك المسكين بالمنجنيق ويراه في الهواء فيضحك ويشرب ويقول « اشتهي ان اسم رائحة فلان وهو يشوى » فيحضر ذلك الرجل ويقطع لحمه ويشوى ^(١) وكتب التاريخ والادب مشحونة باخبار مجالس الشراب وهي في الغالب مجالس الغناء ويندر ان يرفع خليفة او وزير عنها ومن اكثر العباسيين رغبة فيها الهادي والرشيد والامين والمأمون والمعتمد والواثق والمتوكل واكثرهم نفوراً منها المنصور والمعتدي واشتهر من الفاطميين بالتهتك بها المستنصر ^(٢) واشتهر بمقاومتها الحاكم بامر الله وكثيراً ما امر باراقه الخوارج ورافقة العسل حتى لا تصنع منه

أما العامة فانهم سوا في المسكر وشربوه على انواعه شأنهم في كل زمان وان لم يشربه حكامهم فكيف اذا كانوا يشربون . والغالب في شاربي النبيذ ان ينبذوه في بيوتهم وبعضهم يشربه عند اخوانه وآخرون يتناولونه في الحانات وكانت كثيرة واكثر اصحابها من اليهود وقد يشربون الخمر في الاديار وخمرها مشهورة بمجودتها

٧ - التهتك

وطبيعي في ما قدمناه من الحضارة والترف ان يعتمدها شيء من التهتك والفحشاء وإن كان ذلك لا يخلو منه قومٌ مهما بلغ من بعدهم عن الحضارة ولكنه يكثر غالباً في المتحضرين لسكون خواطرهم وتوافر اسباب الرغد والتنعيم عندهم . كان في جاهلية العرب جماعة من البغايا هن رايات ينتحيها القتيان وكان بعض الناس يكرهون اماءهم على البغاء يبتغون عرض الدنيا ^(٣) ولكن ذلك شأن الحضرة منهم لان البدو اقرب الى صحة الاداب . فاعتبر كم تكون اسباب التهتك اوفر في المدن الكبرى حيث تتراحم الاقدام وتتوفر الثروة وتكثر الجوارى ويتفشى الفناء والمسكر كما كان شأن بغداد وقرطبة والقاهرة والفسطاط في ابان ذلك التمدن فلا غرو اذا تفشت الفحشاء فيها ولا سيما في العصور الوسطى حتى صار البغاء صناعة عليها رئيس يحتكم اليه البغاةون عند الحاجة ^(٤)

(١) فوات الوفيات ١٥٧ ج ١ (٢) المزيدي ١٦٤ ج ٢ (٣) العقد الفريد ٢ ج ٣

(٤) الفرج بعد الشدة ١٤٣ ج ٢

وتفتنوا في ترويج تلك البضاعة بتصور النساء على جدران الحمامات ^(١) واصبح اهل القصف من الاغنياء يصورون حضاياهم على جدران منارهم كما فعل ابن طولون . وكان الحكام العقلاء يـذلون جهدهم في منع الفحشاء ويقاومون تيارها بما في امكانهم ^(٢) ولما عجزوا عن كفاها بالقوة ضربوا عليها ضربا ثيب يدفعها اصحابها مثل سائر التجارات ^(٣) واتبع ما ظهر من التهلك في اثناء هذا المدن مغازلة الغلمان وتسريحهم وظهر ذلك على الخصوص في ايام الامين وتكاثر بتكاثر غلمان الترك والروم من ايام المتصم وفيهم الارقاء بالاصر او بالشراء . وتسابق الناس الى اقتنائهم كما تسابها الى اقتناء الجوارى وغالوا في تزيينهم وتعليبهم . وكانوا يخصصونهم ليا . نوا تعديهم على نساءهم وجوارهم . وفشا حب الغلمان في اهل الدولة بمصر وتغزل هم الشعراء ^(٤) حتى غارت النساء من ذلك فعمدن الى التشبه بالغلمان في الالباس والهيئة ليستملن قلوب الرجال ^(٥) وكثرة الجوارى في بعض القصور جرحهن الى الفتن بالاساليب الفحشاء وربما اتخذت كل جارية خصيا لنفسها كالزوج كما فعلت جوارى خاويه صاحب مصر ^(٦) حتى النساء الشريفات فان فودهن عن الزواج لعدم وجود الا كفاء أو لاسباب أخر كان يحجرهن الى مثل ذلك فتكاثر الفساد فيهن لعللة التزوج ^(٧) ذكروا ان ابنة الاخشيد صاحب مصر اشتهرت جارية لتستمتع بها وبلغ المعز لدين الله الفاطمي ذلك وكان لا يزال في الغرب يتحفز للوثوب على مصر ويخاف الفشل فلما بلغه ما فعلته ابنة الاخشيد استبشر . وقال « هذا دليل السقوط » وجند على مصر وقتحها — والعفاف سياج العمران

أهبة الدولة

الاهبة « العظمة والبهجة والكبر والنخوة » وزيد بها مظاهر الدولة في اجمع احوالها وأنعم أطوارها والبحث فيها يتناول النظر في مجالس الحفاء ومواكبهم وضخامة دولتهم والعالمهم وملاهيهم وملايسهم وغير ذلك مما سنفصله . ولما كانت الدولة العباسية اسبق الدول الاسلامية الى تلك المظاهر وقودتها بها رأينا ان نحصر كلامنا عن الاهبة في العصر العباسي مع ما يقتضيه المقام من الاستشهاد بما عند الدول الاخرى فنقول :

- (١) ابن خلكان ١٢٧ ج ٢ ونفع الطيب ٨٦٠ ج ٢ (٢) ابن الاثير ٩٥ ج ١٠ و ٢١٥ ج ١١ والمقرئ ٣١٦ ج ١ (٣) المقرئ ٨٩ ج ١ (٤) زين الاسواق ١٦٣ ج ٥ (٥) المقرئ ١٠٤ ج ٢ (٦) ابن الاثير ١٨٨ ج ٧ (٧) الفرج بد الشدة ٦١ ج ٢

١ - مجالس الملوك:

يختلف مجلس الخليفة شكلاً وأبهة باختلاف الدل وفي الدولة الواحدة باختلاف أطوارها وفي كل طور باختلاف ناراء منها . فكانت مجالس الراشدين في المسجد أو المنزل يقعدون على حصير أو جلد يانفون بمباءة أو نحوها فيدخل عليهم الناس في حوائجهم ويخاطبونهم باسمهم لا يستمكفون من ذلك ولا يرون فيه ضعة . واذا خرج أحد قوادهم للفتح مشى الخليفة لوداعه بلا حرس ولا بنود ولا بطول . واوصاه بالثؤدة والصبر مع الرفق والعدل وكان عمالهم في الامصار على نحو ذلك - على ان العمال نظراً لاقامتهم في مدن عمرها الفرس از الروم مع ما رأوه من احوال تبتك الدولتين كانوا اقرب الى مظاهر الابهة . والخلفاء اذا عادوا بذلك انبوههم كما فعل عمر لما علم أن سعد ابن أبي وقاص أمير الكوفة اتخذ قصرأ وجمال عليه باباً فارسى اليه رجلاً من خاصته وأمره ان يحرق الباب عليه ففعل

ثم ان طبيعة العمران غلبت على تلك السداجة فتدرج الخلفاء والامراء في مظاهر الابهة واتخاذ الحجاب - - بدأ بذلك معاوية بن ابي سفيان واعانه عليه امرأه في العراق ومصر وعملوا مثل عمه واساروا عليه بضروب من الفخامة كان عليها ملوك تلك البلاد قبلهم واقتدى بهم سائر خلفاء بني أمة . وزاء الدباسيون اسباب الابهة بمن قربوهم من الفرس فادخلوا في الدولة كبيراً مما كان عليه الا كاسرة في مجالسهم وسائر احوالهم فتعددت تلك المجالس واصبحوا يجلسون مجلساً للحكم وآخر للمنادمة او للمناظرة او للمذاكرة او غيرها ويختلف المجلس باختلاف ذلك نخامة وترتيباً

على ان مؤسسى الدول فلما كانوا يجلسون لغرض العمل والمظر في شؤون الدولة فعاوبة بن ابي سفيان^(١) وابو حنيفة المصور^(٢) كانا يوزعان ساعات النهار على ما ليهما من الاعمال من ادارة وسياسة وعفاوة ومطالمة . اما في اواسط لدولة فتعددت المجالس . والمراد هنا بالاكثر المجلس الذي كانوا يجلسونه للنظر في مصالح الدولة

شكل المجلس وفرشه

قلنا ان الراشدين وعمالهم كانوا يجلسون في المساجد لان الاسلام كان لازال ديناً فلما جعله الامويون دولة جلسوا في قصور كانت للدول السابقة او بنوا قصوراً لانفسهم نصبوا بها الامرة والكرامى واقتروا الطنافس والمصليات والوسائد وعلقوا الستور

واقاموا الحجاب فالاسرة اول من اتخذها معاوية قلد بها بطارقة الروم في الشام وكذلك الستور والطنافس واما الكراسي فيظهر انه قلد بها راوية الفرس لان اول من استخدمها من امراء المسلمين زياد بن ابيه عامله على فارس^(١) فعلمه نقلها الى الشام وقد يكون معاوية اقتبسها من الروم رأساً — وقس على ذلك سائر ما ادخلوه من مظاهر الابهة من الطراز ونقش الاشعار في صدور المجالس وفرش الديباج والحز واصطناع الاسرة من الابنوس او الصندل او العاج او الذهب او غيرها

وبعد ان كانت مصالح الدولة تجتمع في بناء واحد اختصت كل منها بدائرة. واصبح لبعض كبار الرجال دوائر خاصة باعماله تشبه ما للخلفاء من دوائر الكتاب والحساب والاطباء وغيرهم^(٢) وكان لمجلس الحكم في العصر العباسي داران دار خاصة ودار عامة يجلس الخليفة في الاولى مع رجال الدولة او من يفد عليه من كبار الامراء أو الملوك . وينظر في الثانية في سائر الشؤون ويعقد بها المجالس الاعتيادية

والمجلس في ابان الحضارة كان يعقد في قاعة او بهو كبير على جدرانها صور ممثلة بالذهب والفضة لما في البر والبحر من شجر او حيوان او حبال ويكسو ارضه بساط واحد او عدة بسيطة من الديباج احموه وفي اطراف البهو مناور من الذهب او الفضة توضع عليها الشموع^(٣) ويسبل على ابواب المجلس ونوافذه ستائر من الحرير او غيره مطرزة بشارة الدولة او باشعار او حكم او آيات او احاديث او رسوم مدن او انهر او جبال . وفي وسط القاعة سدة او سرير يجلس عليه الخليفة^(٤) يصنع من العاج او الابنوس او الصندل ينزل بالذهب . وقد غالى الفاطميون في النفقة على الاسرة حتى يدخل في الواحد منها ١١٠٠٠٠ مقال من الذهب الابرز الخالص^(٥) وقد يجعل الخليفة بين يديه بعض التحف او محوها للزينة او التشاغل بها . فالعتمد الاندلسي كانوا يضعون امامه في المجلس تماثيل عنبر من جملتها جمل مرصع بالذهب والؤلؤ وجمل من بللور له عينان من ياقوت وقد حلي بنفائس الدر^(٦) . ولما كان الخلفاء محتجبون عن الناس كانوا يعاقون في وسط القاعة سترأ بينهم وبين الجلساء^(٧) او يستترون عنهم وراء شباك مخرم . على ان فرشهم بختاف في الشتاء عمداً في الصيف فيضاف اليه في الشتاء منقاد النار يستجر فيها الند والعود ويلبسون القراء اللانفة بالوقت على اشكالها^(٨)

(١) العقد الفريد ٤ ج ٣ (٢) طبقات الاطباء ١٣٠ ج ١ (٣) العقد الفريد ١٠٨ ج ٣

(٤) طبقات الاطباء ١٤٢ ج ١ (٥) القريزي ٣٨٥ ج ١ (٦) نفع الطيب

١١٢٨ ج ٢ (٧) الاغانى ٩٩ ج ٣ (٨) ترتيب الدول ٢٣

مجالسة الخلفاء

الاستئذان في الدخول

كان الاستئذان على الخليفة في عصر الراشدين ان يقف الرجل بالباب ويقول « السلام عليكم أَدْخِلْ ؟ » يكرر ذلك ثلاثاً فان لم يؤذن له لم يدها ^(١) وربما أقام الراشدون الحجاب لمنع الازدحام او للاستئذان في بعض الاحوال . فلما انقضى ذلك العصر اقيم الأذنون والحجاب يتوسطون للناس بدخولهم على الخليفة بحسب طبقاتهم وفي أوقات معينة لكل طبقة من الجلساء أو الادباء أو الشعراء أو غيرهم ^(٢) اما في المجالس العامة فيقدمون الناس حسب مراتبهم

وأول من رتب المراتب في الدخول على الخليفة زياد بن أبيه في العراق اشار عليه بذلك حاجبه عجلان ومنه اقتبسها من الفرس فجعل الأذن للناس على البيوتات ثم على الاسنان ثم على الآداب ^(٣) وصار ذلك سنة في الاستئذان على الخلفاء في عصر الامويين فاذا استأذن جماعة في الدخول على الخليفة او الامير يؤذن اولاً لاشرفهم نسباً واذا تساوا في النسب قدموا اكبرهم سناً فاذا تساوا في السن قدموا اكثرهم أدباً وظلت هذه القاعدة مرعية في سائر العصور الاسلامية

وكانوا في ايام بني أمية وفي اوائل الدولة العباسية اذا وفد الناس على الخليفة او الامير وقفوا بابه يلتصقون الاذن فاما ان يأذن لهم او يصرفهم فاذا صرفهم عادوا ثانية واذا لم يؤذن لهم هذه المرة عادوا ثالثة حتى يؤذن لهم او يملوا . ويهربون عن ذلك بقولهم الاذن الاول والثاني والثالث الخ ^(٤) ثم جعلوا للوافدين على الخليفة منازل بجوار دار العامة يقيمون فيها ربما يؤذن لهم . واول من فعل ذلك المنصور العباسي لما بنى بغداد فاتخذ في قصره بيوتاً للأذن فجري الامر على ذلك في الدولة العباسية ^(٥) فكان الوافد يتم هناك ربما يستريح ثم يستأذن . وقد يلتصقون اذناً لدخول القصر وآخر لدخول المجلس

الدخول على الخليفة والسلام عليه

فاذا اذن لاحدهم بالدخول تقدم والتي التحية . وكانوا في اول الاسلام يحبون تحية عامة فيقول الداخل على الخليفة او الامير او الوالي « السلام عليك » ويكرهون قولهم « عليك السلام » لانها تحية الموتى ^(٦) وقد يضاف الى التحية كنية الأمير او الخليفة

(١) العقد الفريد ٢١ ج ١ (٢) الاغانى ٦٠ ج ٥ (٣) العقد الفريد ٥ ج ٢١ ج ١

(٤) الاغانى ٧٠ ج ٦ (٥) لطائف المعارف ١٤ (٦) العقد الفريد ٢٠٩ ج ١

ولا يزيدون على ذلك فلما خالطوا الاعاجم ورأوا تمييزهم بين الرئيس والمرؤوس هموا بتقليدهم . واول من قلداهم المغيرة بن شعبة فقال « ينبغي ان يكون بين الامير ورعيته فرق » وألزم اهل عمله ان يؤمروه أي يحويه تحية الامراء وهي « السلام عليك أيها الامير ورحمة الله وبركاته » ^(١) أو « السلام على الامير ورحمة الله » ففعلوا . واقتدى بهم سائر المسلمين وميزوا الخلفاء بتحية الخلافة فصاروا يقولون عند الدخول على الخليفة « السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » أو « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله » ^(٢) وما زالت هذه تحيتهم حتى فسدت حضارتهم بالتملق ونحوه فقلدوا الدول الاخرى بالتعظيم وحظروا على الناس السلام على الخليفة لما فيه من تكليف الرد والجواب واقصروا في تحيته على الخدمة والدعاء له . والخدمة تختلف بين ان تكون باحشاء الرأس والتطامن والبلوغ الى حد الركوع وما زاد عليه فهو سجود ولا يجوز لغير الله

وربما قبلوا يد الخليفة عند التحية وكانوا في أوائل الاسلام يقبلونها عند البيعة أو تجديد العطاء وعند العفو أو الوداع . وكان الصحابة يفعلون ذلك مع النبي وظل متبعاً مع اكثر الخلفاء . ثم رفع هؤلاء عن أن يلمس الناس اكفهم فصار التقييل للأكام والعتبات على حسب الاقتدار . واذا أراد الخليفة تشريف أحد قواده من تقبيل يده او كمه كما فعل المهدي مع مسلم بن قتيبة فحذب يده منه وقال « نصونك عنها ولا نصونها عن غيرك » ^(٣) وقد يختلف ذلك باختلاف الناس واختلاف الدول وتباين الاحوال . فان جوهر القائد لما ودع مولا المعز لدين الله عند قدومه لفتح مصر أنزل المعز أولاده لوداعه فنزلوا عن خيولهم ونزل اهل الدولة لتزولهم فقبل جوهر يد المعز وحافر فرسه ^(٤) وعبدالله بن مالك صاحب شرطة المهدي كان خائفاً من الهادي لانه سبه قبل خلافته فرأى منه رطابة وحلماً فلم يتالك عن تقبيل يده ورجله وحافر دابته ^(٥) وكذلك فعل ابراهيم الموصلی فقبل حافر دابة الرشيد لانه تنازل لزيارته ^(٦) وكان اهل الدين والنسك اذا دخلوا على الخليفة لا يخدمون مثل سواهم بل يدخلون وعليهم السكينة والوقار

والداخلون على الخليفة يجلسون في المواضع اللاتفة بمراتبهم ويتولى اجلاسهم الحاجب أو الأذن وكانت الرتبة الاولى بعد الخليفة في الدولة الاموية لبني أمية يجلسون على الاسرة وبنو هاشم على الكراسي . وأما في الدولة العباسية فصارت الافضلية

(١) الاغانى ٣٥ ج ١٢ (٢) المقرئى ٢٨٨ ج ٢ (٣) ترتيب الدول ٦٥ و ٩٠

(٤) ابن خلكان ١١٩ ج ١ (٥) ابن الامير ٤٢ ج ٦ (٦) الاغانى ٩١ ج ٩

لبنى هاشم وصاروا يسمونهم الملوك او الاشراف فيجلس الخليفة على السرير أو السدة ويجلس بنو هاشم على الكراسي ويقعد بنو أمية اذا حضروا على الوسائد تثني لهم^(١) لكن الامويين قلما كانوا يحضرون مجلس بني العباس بعد ان نكبهم وقتلوا معظمهم وما بقي منهم أسقطت مرتبته في أيام المستعين سنة ٢٥٠ هـ^(٢) وبلي هؤلاء سائر طبقات الجلساء من أهل الدولة وغيرهم وتفاوت مراتبهم وتباين على مقتضى الاحوال بما لا حد له

الاداب في مجالسة الخلفاء

كانت مجالسة الخلفاء في صدر الاسلام مثل مجالسة سائر الناس لما علمته من سذاجة الراشدين وكانوا يخاطبون الخليفة باسمه أو كنيته فيقولون يا عمر أو يا معاوية أو يا علي لا يرون بذلك بأساً. وكان الجلساء يتخاطبون ويتباحثون بلا احتراس ولا تهيب لاسباب تقدم بينها. فلما ضخم ملكهم وذهبت دهشة النبوة عمل الامويون على التثنية بالدول المستبدة وأخذ الدهاء من عمالهم بتعظيم امر الخليفة وتفضيخ منصبه وتنزيه مجلسه عن مجالس سائر الناس. وأول من فعل ذلك زياد بن ابيه فوضع القاعدة « أن لا يسلم على قادم بين يدي الخليفة »^(٣) ثم منعوا الكلام في حضرة الخلفاء على الاطلاق وأول من منعه عبد الملك بن مروان. وتجر الخلفاء بعد ذلك حتى منعوا الناس من مخاطبتهم كما كانوا يخاطبون اسلافهم. وأول من تجبر الوليد بن عبد الملك فكلف الناس ان لا يكلموه كما كانوا يكلمون اسلافه وقال بعد كلام « وأني اعطي الله عهداً ياخذني بالوفاء به لا يكلمني أحد بمثل ذلك الا اتلفت نفسه فلعمرى ان استخفاف الرعية براعيها سيدعوها الى الاستخفاف بطاعته والجرأة على مصيئته » وقال له رجل من بني مرة يوماً « اتق الله يا وليد فان الكبرياء لله » فامر به فوطى حتى مات فاتهظ الناس وهاجوه^(٤) وهو اول من منع الناس ان يكاتبوه بما كانوا يكاتبون اسلافه او يكاتبون بعضهم بعضاً ثم صارت القاعدة المرعية في مجالسة الخلفاء ان لا يدعى لاحد في حضرته^(٥) ولا ينهض لداخل الا اذا نهض الخليفة — ثم صارت رسوم ارباب الدواوين كبارهم وصغارهم اذا كانوا في دواوينهم لا يقومون لاحد من خلق الله ممن يدخل عليهم^(٦) — فلا يتكلم أحد في مجلس الخلفاء الا اذا كلوه اي لا يبدأهم احد بكلام. وجرت العادة

(١) الاغانى ٩٢ ج ٤ (٢) ابن الاثير ٥١ ج ٧ (٣) المقد الفريد ٦ و ٢١٨ ج ٢

(٤) لطائف المعارف ١٤ والبيان والتبيين ١٢ ج ٢ وابن الاثير ٢٥١ ج ٤ (٥) البيان

والتبيين ٣٨ ج ٢ (٦) الفرج بعد الشدة ١٠٠ ج ١

ان يطلقوا السلام لوافد عليهم بقولهم « ما انعمنا بك يا أبا فلان » وهي كلمة كانت تقولها العرب ^(١) فيذكر الرجل ما جاء من أجله واذالم يطلق له السلام ظل ساكناً وما زال ذلك هنة مرعية في مجالس الخلفاء حتى أباح المأمون السلام لاهل مجلسه للمناظرة بين يديه ^(٢) واستمر ذلك بعده مع مراعاة الاحوال . أما مبادأة الخليفة بالسلام فأول من استطاعها احمد بن ابي داود وزير المعتصم ^(٣) . ولما استولى القواد على الامور ضعفت هيبة الخلفاء وذهبت تلك الرسوم حتى أبيع اللعب والضحك والهزل في مجالسهم وأول من أباحها المتوكل على الله في أواسط القرن الثالث للهجرة ^(٤) ومن آدابهم في ذلك المجلس ان لا يأمر فيه أحد غير الخليفة ^(٥) واذانهم نهض سائر الحضور . وان يصفى المجلس الى كلامه بكليته فلا يشتغل عنه بشيء . ومن لطيف ما يروونه من هذا القبيل ان معاوية كان يحدث يزيد بن سحرة حديثاً وابن سحرة مصغر فصك جبينه حجر غائر قادماء فجعات الدماء تسيل على وجهه ولحيته وثوبه ولم يتغير عما كان عليه من الاستماع حتى نهبه معاوية الى ذلك فاجابه « ان حديث أمير المؤمنين ألهاني حتى غمر فكري وغطى على قلبي » فزاد معاوية عطائه ^(٦) والخلفاء لا يعززون وانما يقتصر على الدعاء لهم بدوام الظفر والسعادة من غير تطويل . ولا يقال للخليفة كيف أصبح ولا كيف أمسى ولا يسأل عن حاله ولا يطنب في تحسين كلامه ولا أفعاله ولا يستعاد منه الكلام ولا يستزاد ولا تحسن الاشارات في مجلسه ولا يغامز ولا يشتغل بمحضرة بوداع راحل ولا سلام قادم ^(٧) ولا يليق ان يرد على الخليفة بلفظ « لا » فيحتال في التخلص منها ^(٨) . وقد قالوا في الاحتراس من مخاطبة الملوك « من أراد مصاحبة الملك فليدخل كالاعمى وليخرج كالآخرس » ^(٩) . ومن امثلة التأدب في مخاطبة الخلفاء ان عبد الملك بن صالح وجه الى الرشيد فاكه في اطباق الخيزران وكتب اليه « أسعد الله امير المؤمنين وأسعدني به اني دخلت الى بستان لي أفادني كرمك وغمرته لي نعمك قد اينعت اشجاره وآتت ثماره فوجهت الى امير المؤمنين منه شيئاً على الثقة والامكان في اطباق القضب ان ليصل الي من بركة دعائه مثل ما وصل الي من كثرة عطائه » فاستحسن الرشيد تكنيته عن الخيزران بالقضبان لانه اسم امه ^(١٠) وكان الحديث يجري في مجالس الخليفة في اول الاسلام باللغة العربية الفصحى فيعربون

- (١) ترتيب الدول ٩٢ (٢) الاغانى ٣٦ ج ١٤ والمسمودي ٢٥٧ ج ٢ (٣) ابن خلكان ٢٢ ج ١ (٤) المسمودي ٢٦١ ج ٢ (٥) العقد الفريد ١١١ ج ٣ (٦) المسمودي ١٥٧ ج ٢ (٧) ترتيب الدول ٦١ (٨) ابن الجوزى ٣٦ و ٦٠ (٩) ترتيب الدول ٩٨ (١٠) فوات الوفيات ١٣ ج ٢

السلام ويضبطون حركات الالفاظ فمن لم يستطع ذلك من الخلفاء عدوه لحناً . فكان
الأيوبون يرسلون أولادهم الى البادية يشبون فيها ليضبطوا الفاظهم وقد احسنوا ذلك الا
الوليد بن عبد الملك فان اياه لم يرسله الى البادية فنشأ لحناً وكان أبوه يكره اللحن ومن
أقواله « اللحن في السلام أقيح من التفتيق في الثوب والجدرى في الوجه » ومنها
« تعلموا النحو كما تعلمون الفرائض » وكان يخاف اللحن اذا وقف للخطابة فيؤمله ذلك
وسأله سائل « لقد عجل اليك الشيب يا أمير المؤمنين » قال « شيبني ارتقاء المنابر وتوقع
اللحن » وكذلك كان سائر بني أمية — وللوليد أخبار في اللحن مضحكة ^(١) . وكان
عمال بني أمية مثل خلفائهم في المحافظة على الاعراب الا الحجاج بن يوسف فقد كان يلحن
أحياناً ^(٢) فلما استعجمت الدولة في زمن بني العباس قلّت عناية الناس في الاعراب وظهر
غير واحد من الفقهاء والعلماء يلحنون في كلامهم كابن حنيفة النعمان وأبي عبيدة وغيرهما

احتجاب الخلفاء عن جلساتهم

كان الخلفاء الراشدون يجالسون الناس ويخاطبونهم ولا يحتجبون عنهم ثم احتجب
الأيوبون وجعلوا بينهم وبين الجلساء حجاباً ووسطوا في حوار الناس من يقضها عنهم .
وأول من احتجب معاوية بعد اقدام البرك بن عبد الله الحارثي سنة ٤٠ هـ على قتله غيلة
وكان قد قدم له في المسجد فلما خرج ليصلي الغداة شد عليه بالسيف فجرحه فلما شفي
ابتنى هناك مقصورة يصلي فيها خوفاً من مثل ذلك واحتجب عن الناس الا من اختصهم
بالمجالسة . واقتدى به الخلفاء بعده في أوائل دولتهم وكذلك الأوائل من بني العباس ^(٣)
والحجاب كان شائعاً عند الفرس من عهد ازدشير فكانوا ينصبون في مجلس الملك
ستارة بينها وبينه عشرة أذرع وبينها وبين الجلساء عشرة أذرع فقلدهم العباسيون . ثم
ضاعفوا الحجاب في بعض الاحوال فاتخذوا عدة أستار الواحد وراء الآخر الى ثلاثة او
أربعة وفعل ذلك وزراؤهم لبرامكة ايضاً ^(٤) وجعلوا لقصورهم عدة أبواب الواحد وراء
الآخر ^(٥)

كذلك كان شأن العباسيين من أبي العباس السفاح الى المتوكل ومن بعده الا الهادي
فانه لم يحتجب عن أحد ^(٦) على انهم كانوا يحتجبون غالباً عن الندماء والمغنين وسائر
طبقات العامة وليس عن الخاصة الا أحياناً . فكانوا يقيمون عند الستارة حاجباً يسمونه

(١) العقد الفريد ٢٢٤ ج ١ والفخري ١١٢ (٢) ابن خلكان ٢٤٤ ج ١

(٣) المسعودي ١٠٦ ج ١ (٤) الفرج بعد الشدة ٢٣ ج ٢ والمستطرف ١٦٤ ج ١

والانليدي ١٣٣ (٥) الانليدي ١١٥ (٦) الاغانى ١٦ ج ٥

صاحب الستارة يتوسط في نقل ما يريد الخليفة ابلاغه الى جلسائه أو ندمائه واقتدى بالعباسيين غيرهم من الدول الاسلامية بمصر والاندلس

علامة الصرف

واذا أراد الخليفة صرف جلسائه أبدى اشارة يعرفونها فينصرفون . وهي عادة فارسية وضعها كسرى انوشروان فكان اذا احب ان يصرف ندماءه مدرجله فينصرفون وتابعه ملوكهم على ذلك فكان فيروز يدلك عينيه وبهرام يرفع رأسه الى السماء ^(١) وقيلهم فيها المسلمون من أيام بني أمية فكان معاوية اذا أراد صرف الناس قال « اذا شتم » أو « العزة لله » وكان ابنه يزيد يصرفهم بقوله « على بركة الله » وعبد الملك كان يحمل بيده خيزرانة فاذا القاها من يده عرف جلسائه أنه يريد انصرفهم ^(٢) وقس عليه سائر الخلفاء من بني أمية وأمرائهم فكان يزيد بن هبيرة اذا أراد صرف جلسائه دعا بمندبل فيقومون

أما بنو العباس فقد كانت اشارة السفاح منهم أن يتشاءب ويلقي المروحة من يده ^(٣) وكانت علامة المأمون أن يعقد اصبعه الوسطى بابهامة ويقول « برق بمان برق بمان » ومن انصرف من حضرة الخليفة مشى القهقري ووجهه نحو مجلسه حتى يتوارى

٢ - مجالس الادب والشعر

رغبة الخلفاء في الاطلاع

كان للخلفاء ميل شديد الى سماع الاخبار فيعقدون المجالس يحضرها الادباء من أهل الاخبار والنوادر والادب والشعر يحادثون الخليفة بما يلذ له سماعه من اخبار العرب ونوادرهم وأشعارهم . وكان الدهاء من الخلفاء والامراء مثل معاوية وهشام والمنصور وابن هبيرة ^(٤) يقيمون أناساً يتلون عليهم اعمال الفواد والملوك من الروم والفرس واخبار الدول وحوادث الشجاعة والرأي يلتمسون بذلك التوسع باسباب الدهاء وأقانين السياسة كما يفعل رجال اليوم بالاطلاع على تراجم العظماء

على أنهم كانوا يعقدون مجالس الادب على الغالب لترويح النفس من مشاغل الدولة وتلذذاً بالاطلاع على آداب العرب واخبارهم فاخصص بكل خليفة جماعة ممن عاصروه من

(١) حلبة الكمية ٢٦ (٢) البيان والتبيين ٦٠ ج ٢ والعقد الفريد ٢١٩ ج ١

(٣) الاغانى ٢٠٦ ج ١٨ (٤) ابن الاثير ١١ ج ٦ والمسعودي ٥١ ج ٢ وابن خلكان

٢٨٠ ج ٢ وسيد الملوك ٢٢

اصحاب الاخبار والشعر بمجالسهم في أوقات معينة أو اذا دعاهم في ساعة قلقة أو ارقه. وقد يكون ذلك في اواسط الليل والناس نيام . فلا زال الرجل ينتقل بحديثه من خبر الى نكتة الى فائدة الى شعر حتى يزول ما نفس الحليفة وينشرح صدره . وقد تفرغ جملة المحدث مما يعلمه من الاخبار قبل أن ينشرح صدر الحليفة فيضع قصة من عنده نفسه بينها على نكتة أو حكمة مما يعلم ارتياح الحليفة له (١)

احترام الخلفاء لاهل العلم

وكانوا يجلبون اهل الادب والعلم ويقرّبونهم ويبدلون لهم الاموال ويدانسون عنهم ولا سبها الرشيد والمأمون . وفي ما يروونه عن الرشيد ومعاملته للعلماء أدلة عديدة على ذلك فكان كثير الملاطفة للاصمعي والاجلال له فاذا خلا به سأله واستفاد منه علماً وأدباً فيقول الرشيد عند ذلك « هكذا وقرنا في الملا وعلمنا في الخلا » وكان يعطيه الجوائز الحسنة . واكل ابو معاوية الضرير طعاماً مع الرشيد فلما قام ليغسل يديه تناول الرشيد الابريق وصب عليهما والرجل لا يعلم فقال له « أتدري من يصب الماء على يدك ؟ » قال « لا » قال « انا » قال « أنت يا امير المؤمنين ؟ » قال « نعم اجلالاً للعلم » (٢)

ناهيك بما وقع من البحث في مسألة الزنور والنحلة بين سيدييه والكسائي وكيف انتصر الامين للكسائي والمأمون لسيدييه وما جرى من الجسدال في ذلك بمحضرة الرشيد فأخذ الرشيد بناصر الكسائي في حديث طويل ذكرنا خلاصته في الجزء الثالث صفحة ٨٠

ومن أدلة اجلالهم للعلم انهم كانوا يحرضون ابناءهم على تلقيه وحفظ الاشعار والاخبار ويعينون لهم المعلمين من نخبة العلماء المعاصرين . فالمتصور ضم الشرقي بن الفطامي الى ابنه المهدي واوصاه أن يعلمه اخبار العرب ومكارم الاخلاق وقراءة الاشعار (٣) والرشيد عهد بتعليم ابنه الامين الى الاحمر النحوي ثم الى الكسائي وعهد بتأديب المأمون لليزيدي وسيدييه وغيرهما . والرشيد وصية يقال أنه اوصى بها الاحمر المذكور لما عهد اليه بتأديب الامين ينبغي ان يتحداها سائر الابهاء وهي :

« يا احمر ان امير المؤمنين قد دفع اليك مهجة نفسه وثمرة قلبه فصير يدك عليه مبسوطة وطاعته لك واجبة فكُن له بحيث وضعك امير المؤمنين . اقرئه القرآن وعرفه الاخبار ورواه الاشعار وعلمه السنن وبصره بمواقع الكلام وبدئه وامنعه من الضحك

(٣) السموي ١٨٠

(٢) سير الملوك ٢٩

(١) المس. دي ١٦٣ ج ٢

الا في اوقانه وخذه بتعظيم مشائخ بني هاشم انا دخلوا عليه ورفع مجالس القواد اذا حضروا مجلسه ولا تمنّ بك ساعة الا وانت مقتنم فائدة تفيده اياها من غير أن تحزنه فتमित ذهنه ولا تمن في مساحته فيستحلي الفراغ ويألفه وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة فان اباهما فمليك بالشدة والغلظة» (١)

وعهد المأمون الى الفراء بتعليم ولديه النحو واتفق ان الفراء أراد ان ينهض ذات يوم الى حوائجه فابتدرا الى نعله ليقدمها له فتنازعا أيهما يقدمها ثم اصطلحا على ان يقدم كل منهما واحدة . وبلغ ذلك المأمون فاستدعاه فلما دخل عليه قال المأمون « من أعز الناس ؟ » قال « لا اعرف احداً أعز من أمير المؤمنين » فقال « بل من اذا نهض تقايل على تقديم نعله وليا عهد المسلمين حتى يرضى كل واحد منهما أن يهدم له فرداً » فقال « يا أمير المؤمنين لقد أردت منعها عن ذلك ولكن خشيت ان ادفعها عن مكربة سبقا اليها او اكسر نفسيهما عن شريفة حرصا عليهما (٢) . وعهد المتوكل بتعليم أبنائه الى ابن السكيت (٣) وتعلم عبد الله بن المعتز الادب والعربية على المبرد وثعلب واحمد بن سعيد الدمشقي (٤)

تقديم الشعراء

ويقال نحو ذلك في تقديم الشعراء فقد اجزوا لهم الاعطية وعينوا لهم اوقاتاً يدخلون فيها عليهم كما قلنا في غير هذا المكان وكانوا يفرضون لهم مالا يدفعونه اليهم كل سنة على الوفدة أو القصيدة أو يعطونهم على البيت من الشعر مبلغاً معيناً . على ان مقامهم كان يعلو ويهبط تبعاً لامزجة الخلفاء واغراضهم وأحوال السياسة . فثمة من كان يبعد الشعراء من البخل كعبد الملك بن مروان وابنه الوليد (٥) . ومنع عمر بن عبد العزيز الشعراء من بابه تورعاً لاعتقاده انه لا تصح اجازتهم من بيت المال وكان ذلك اعتماد غير واحد من ابناء الصحابة كعبد الله ابن الزبير وغيره . وكان المنصور بخيلاً على الشعراء اشتتالاً عنهم بتأييد الدولة . فكانوا يخرجون في ايامه من بغداد ويجمعون ويتذاكرون ايامهم في الشام (٦) على عهد بني أمية

ولكن معظم الخلفاء كانوا يحبون الشعر ويفرضون الشعراء وبعضهم تعلموا العروض ونظموا الشعر ولهم ايات مشهورة . وكان الشعراء يتقربون الى الخلفاء او الامراء بالمدح وقد يرتكبون أفبح الاكاذيب في هذا السبيل الا من لم ينتج بشعره وهم قليلون .

- (١) ابن خلدون ١٤٧٥ ج ١ والسعودي ١٩٤ ج ٢ (٢) طبقات الادباء ١٣٠ وابن خلكان ٢٢٨ ج ٢ (٣) طبقات الادباء ٢٣٨ (٤) فوات الوفيات ٢٤١ ج ١ (٥) الاغانى ١٥٨ ج ١٥ و١١٩ ج ٢٠ (٦) الاغانى ٩١ و١٠٢ ج ١٢

وكانت لهم منزلة رفيعة عند اهل الدولة ^(١) واما سائر الشعراء فكانوا يعيشون بالمدح أو الهجاء . وقيل للحطيئة « اياك وهجاء الناس » فقال « اذا يموت عيالي جوعاً هذا مكسبي ومنه معاشي » ^(٢) وقد يمدح الشاعر الضدين رغبة في الكسب كما فعل ابن دأب قدح معاوية وعليها ^(٣)

وكان الشاعر اذا دخل على الحليفة بقصيدة انشدها بصوت عال وهو قائم . واذا تعدد المتمدنون قدموهم على الاسنان . وكان الخلفاء يفهمون معاني الشعر حتى كثيراً ما كانوا يباحثون الشاعر في معنى البيت أو الكلمة . واذا استبطأوا الشاعر أو الراوية بشوا في استفداه من العراق أو الحجاز وقد لا يكون الغرض من ذلك الا تسماع بيت أو قصيدة كما فعل الوليد بن يزيد في استفداه حماد من العراق لينشده قصيدة تغنيها مغنيته ^(٤) او لينظم له شعراً في حادثة جرت معه كما فعل الواثق لما غضبت عليه حظيته فاستخدم ابن الضحاك ليقول في ذلك شعراً ^(٥) وقد يحيزون من يأتيهم بشاعر يعجبهم كما اجاز المهدي الفضل بن الربيع بعشرة آلاف دينار وولاه حجابته لانه اتاه بابن جامع ^(٦)

وكانوا لا يكتفون بمن يقدم عليهم من الشعراء للاستجداء فيرسلون في طلبهم الى الانحاء وارغب الخلفاء في ذلك الرشيد ^(٧) فتكثر الشعراء ببابه حتى ضاقت بهم بغداد واضطروا الى امتحانهم وترتيبهم في الجواز فمهد يحيى بن خالد بذلك الى شاعره ابان اللاحقي ^(٨) واصبح الحليفة اذا احب مجالسة الشعراء بعث رجلاً يشق به ليختار له احسنهم ^(٩) او اذا عن له بيت أو قصيدة خرج وصيف او حاجب او نحوهما فيقول للشعراء « من منكم يقدر يقول قول فلان أو يحفظ القصيدة الفلانية فليدخل وله كذا وكذا » ^(١٠) وكانوا يطربون للشعر ويستلذونه وربما تراخفوا عن مجالستهم محباباً وطرباً ^(١١)



(١) الاغاني ٧٩ ج ٢٠	(٢) الاغاني ٥٥ ج ٢	(٣) الاغاني ١٣٩ ج ٤
(٤) الاغاني ٦٥ ج ٢	(٥) الاغاني ١٧٨ ج ٦	(٦) الاغاني ٧٣ ج ٦
(٧) الاغاني ٧٤ ج ١٧	(٨) الاغاني ٧٣ ج ٢٠	(٩) الاغاني ٢ ج ١٢
(١٠) الاغاني ١٣٥ ج ١١ و ١٤١ ج ١٧	(١١) سير اللوك ٩٣	

٣ — مجالس المناظرة والعلم

كانت مجالس الادب في ايام بني امية واوائل بني العباس يقتصر البحث فيها على المسائل الادبية والعلوم الانسانية كما تقدم فلما ترجمت علوم القدماء في العصر العباسي ونشأ علم الكلام شاعت المناظرة بين العلماء والفقهاء . وقد سبق الناس الى العناية في ذلك البرامكة فكان ليحيى بن خالد مجلس يجتمع فيه المتكلمون وغيرهم من اهل النحل يتباحثون في الكون والظهور والقدم والحدوث والاثبات والنفي وغيرها من الابحاث الفلسفية المبنية على علم الكلام ^(١)

ثم اهتم الخلفاء انفسهم في ذلك ولا سيما بعد ان ظهر القول بخلق القرآن وقام به المأمون فاخذ يعقد المجالس للمناظرة فيه وفي سواء وعين لذلك يوم الثلاثاء من كل اسبوع . فاذا حضر الفقهاء ومن يناظره من سائر اهل المعالاد ادخلوا حجرة مفروشة وقيل لهم « انزعوا اخفافكم » ثم احضرت الموائد وقيل لهم « اصيبوا من الطعام والشراب وجددوا الوضوء ومن كان خفه ضيفاً فليزعه ومن ثقلت عليه فليدسوته فليضعها » فاذا فرغوا اتوا بالجوارح فتبخروا وتطيبوا ثم خرجوا فاستندناهم حتى يدنوا منه ويناظروهم احسن مناظرة والطفها وابعدها من مناظرة المتجبرين . فلا يزالون كذلك الى ان تزول الشمس ثم تنصب الموائد ثانية فيطعمون وينصرفون ^(٢) وسار الواثق على خطواته في هذا السبيل . وكانوا يعقدون هذه المجالس كلها دعت الحاجة الى اثبات رأي أو مذهب جديد

ولما استقرت الدولة الفاطمية بمصر فعل وزيرها يعقوب بن كلس مثل فعل يحيى وزير العباسيين فانشأ مجالس للمناظرة في الفقه والادب والشعر وعلم الكلام وغيره . وغرض هذه الدولة اثبات مذهب الشيعة لان عليه قامت دوائهم . فاخذ الحاكم بامر الله يفاوض العلماء ويحيزهم ويسهل عليهم البحث والمناظرة في دار الحكمة التي انشأها في القاهرة ^(٣) وربما عقدوا حلق المناظرة في الجوامع او غيرها

وصارت تلك المجالس عامة في الدول التي خلفت الدولة العباسية او تفرعت منها واكثر العقلاء والاقوياء من الملوك والسلاطين كانوا يعقدونها للمناظرة — كذلك فعل صلاح الدين وسيف الدولة ونظام الملك والحكم الاندلسي . واقتدى بهم اهل العلم

(١) المسعودي ٢٠٢ جزء ٢ وابن خلكان ٤٨٠ جزء ١ (٢) المسعودي ٢٣١ جزء ٢ وابو الفرج اللطفي ٢٣٦ (٣) الجزء الثالث ٢٠٦

والوجهاء والاطباء واطلقت حرية البحث في كل شيء . ومن اشهر مجالس المناظرة مجلس كان يعقده يوحنا بن ماسويه في بغداد فيحضره العلماء على اختلاف طبقاتهم من الفلاسفة والاطباء والادباء والمتكلمين وغيرهم^(١) ومجلس ابي حامد الاسفراييني كان يحضره ٣٠٠ فيه . وقس عليهما مجلس ابن المنجم وكان يعقده بمحضرة المكنفي^(٢)

— منحصريه —

٤ — مجالس الغناء والانس

منزلة المغنين

تقدم الكلام في تاريخ الغناء واصله وانتشاره وقد رغب الخلفاء فيه على الخصوص في ابان الحضارة وعصر الرخاء والترف وجعلوا للمغنين نوبات يدخلون فيها مجالسهم^(٣) وفرضوا لهم الرواتب كما فرضوها للشعراء وعهدوا بهم الى بعض اهل البلاط او الحاشية ينظرون في امورهم^(٤) . وكانوا يصطحبونهم في خروجهم للصيد او نحوه ويجيئونهم^(٥) الجوائز الكبرى وهم اقرب الى ذلك من الشعراء لما يتفق في مجالسهم من طرب الخلفاء لانهم قلما كانوا يسمعون الغناء من غير شراب فاذا طربوا بذلوا الاموال بلا حساب كما تقدم

ومن اكثر الخلفاء الامويين رغبة في الغناء وبذلًا للمغنين يزيد بن عبد الملك الذي استخفقه الطرب من غناء جاريته حباة حتى قال « أريد ان اطير » فقالت له حباة « على من تدع الامة وتدعنا »^(٦) وكذلك كان ابنه الوليد بن يزيد . ومن الخلفاء العباسيين المهدي والرشيد والامين والمأمون والواثق والمتوكل ومن نبغ في ايامهم من الوجهاء والعظماء

على انهم كانوا اذا همهم امر الدولة وخافوا سقوطها ابعدوا المغنين ليتفرغوا لمهامهم كما فعل المأمون لما رجع من خراسان^(٧) . وكان لسكبار المغنين منزلة رفيعة في الدولة كابراهيم الموصلي وابنه اسحق وابن جامع وكانت جوائزهم من الخلفاء تفوق الحصر - ذكروا عن ابراهيم المذكور انه غنى للامين بشعر ابي نواس :

رشاً لولا ملاحظته خلت الدنيا من الفن

فاستخف الطرب حتى وثب من مجلسه وركب على ابراهيم وجعل يقبل رأسه

(١) طبقات الاطباء ١٧٥ ج ١ وابو الفرج المظني ٢٢٧ (٢) ابن خلكان ٢٣٥ ج ٢

(٣) الاعاني ج ٩ ١٣ (٤) ابن الاثير ٦١ ج ٨ (٥) الاغاني ١١١ ج ٥

(٦) المسمودي ١٢٦ ج ٢ (٧) الفرج بعد الشدة ٨٧ ج ١

فتمض ابراهيم وأخذ يقبل اخص قديمي الامين وما وطئنا من البساط فأمر له بثلاثة آلاف درهم فقال ابراهيم « ياسيدي قد أجزتني الى هذه الغاية بعشرين الف درهم » فقال الامين « وهل ذلك الا خراج بعض الكور ؟ »^(١) فانتبر ما دخل على الموصل من الرشيد وغيره . فلا غرو اذا توفي عن ثروة طائلة . واشتهر في بلاد المغرب زرياب المغربي وهو الذي نقل هذه الصناعة الى الاندلس فقد أثرى وارتفعت منزلته حتى صار يركب في ٢٠٠ غلام ويملك ٣٠٠٠٠ دينار غير الحيل والضيايع والريق^(٢)

المضحكون والمجانون

ومن توابع مجالس الغناء المضحكون والمجانون اشهرهم اشعب في دولة بني أمية وابو الحسن الخايص الدمشقي في أيام الرشيد وابو العبر في أيام المتوكل وغيرهم كثيرون . فكانوا اذا عقدت مجالس الانس ودارت الاقداح وطرب الخليفة لبسوا ملابس مضحكة يقلدون بها الدب او الفرد ويعلقون في اذنائهم الجلاجل والاجراس مما يضحك النكلى . وكان بعض الخلفاء اذا استخفهم الطرب كلفوا هؤلاء المجانين ما لا يطاق من ضروب العذاب وهم يتلذذون بمذابهم فلمتوكل كان اذا طرب امر بابي العبر المجان ان يرمى به في المنجنيق الى الماء وعليه قيص حرير فاذا علا في الهواء صاح « الطريق الطريق » ثم يقع في الماء فتخرجه السباح . وكان يجلس احياناً على الزلافة فينحدر فيها حتى يقع في البركة ثم يطرح الخليفة الشبكة فيخرجه كما يخرج السسك^(٣) وكان الامين اذا طرب صاح في ندمائه وجلاسه « من يكون منكم حماري ، فكل واحد يقول « انا » فيركب الواحد ويصاه^(٤) وكان يقع في مجالس الوليد بن يزيد من السكر والفحش في القول والفعل ما تتحاشى ذكره . وقد افراط الخلفاء بالتبسط في العيش والتمتع بالملذات ولذلك كانوا قصار الاعمار فمات اكثرهم قبل سن الكهولة

٥ - مواكب الخلفاء

نريد بالموكب الاحتفال بخروج الخليفة او السلطان أو الامير في عيد أو غير عيد وهو من مقتضيات الابهة والمدينة . وكانت المواكب معروفة عند ملوك العرب في الجاهلية

(١) القند الفريد ١٩٥ ج ٣ (٢) الاغانى ١٣٢ ج ١٠ (٣) الاغانى ٩٢ ج ٢٠

(٤) الاغانى ٢٠٣ ج ٦

فكان لمعدي كرب عبيد من الاحباش يمشون بين يديه بالحراب ^(١) فلما جاء الاسلام زهد اصحابه من التقوى فكان الخلفاء الراشدون يركبون في خروجهم كسائر الناس. وكان ابوبكر في اول خلافته يقيم في السنخ بضاحية المدينة ويندو كل يوم على رجله الى المدينة وقد يركب فرسه . وكان يندو الى السوق فيبيع ويتبع وله قطعة غنم تروح عليه وربما خرج هو بنفسه فيها منفرداً . وكان عمر يخرج في الاسواق ماشياً ويسوءه أن يركب عماله وامراؤه ركوب الفرس والروم . وفد الى الشام اربع مرات جاءها في المرة الاولى على فرس وفي الثانية على بعير وفي الثالثة على بغل وفي الرابعة على حمار وبعث في احدى خطراته الى امرائه ان يوافوه في الجابية فكان اول من لقيه يزيد بن ابي سفيان وابي عبيدة ثم خالد على الخيول عليهم الديباج والحريز فنزل وأخذ الحجارة ورماهم بها ^(٢) فقس على ذلك سائر الراشدين

مواكب الخلفاء في ابان التمدن

على ان اتخاذ الآلة والاعوان في المواكب انما بدأ به العمال في الامصار لقرهم من حضارة الفرس والروم فاتخذوا الطبول والاعلام والحرس وغيرها من شارات الدولة. واسبقهم الى ذلك معاوية فاقام حراساً يرفعون الحراب بين يديه أو يقفون بالسيوف عند المقصورة التي يصلي فيها خوفاً من الاغتيال ^(٣) واقتدى به عماله وبعضهم سبقه الى مثله فاتخذ زياد بن ابيه رجلاً يمشون بين يديه بالاعمد ^(٤) او بالحربة . واصبح ذلك قاعدة في المسير بين يدي الخليفة ثم صار المسير بالحربة خاصاً بولي العهد او بكبار العمال يحملها رجل راكب على جواد يتقدم الخليفة او الامير فجري على ذلك الخلفاء العباسيون ^(٥) وفي ايام المتوكل جاء بعضهم بحربة كانت للنبي تسمى العنزة واصابها للنجاحشي فاهداها للزبير بن العوام فاهداها الزبير الى النبي وكانت تركب بين يديه في العيدين ثم اتصلت بذلك الرجل فحملها الى المتوكل فكان صاحب الشرطة يحملها بين يديه ^(٦) اذا خرج في موكله

وتدرجوا في الابهة بتدرجهم في اسباب المدنية واتساع السلطنة حتى اصطنعوا الحامل او القباب او الحفقات يحملون بها بدل الركوب على الخيل ثم صاروا يركبون والناس يمشون بين ايديهم . وأقدم من فعل ذلك الاشعث بن قيس سيد اهل اليمن

(١) المسعودي ١٩٧ ج ١ (٢) ابن الاثير ٢٤٦ ج ٢ والعقد الفريد ٢٣٦ ج ٢

(٣) الفخري ٩٧ (٤) لطائف المعارف ١٢ والعقد الفريد ٤ ج ٣

(٥) البيان والتبيين ١٥ ج ٢ وابن الاثير ٣٩ ج ٦ والمقرئ ٣٠٧ ج ١

(٦) ابن الاثير ٣٢ ج ٧

فكان يركب والناس يمشون بين يديه ^(١) ثم صاروا يمشون بين يدي الخلفاء بالسلاح
 وأول من فعل ذلك الهادي العباسي فكان إذا ظهر كعبه مشى الرجال بين يديه بالسيوف
 المرهفة والأعمدة المشهورة والقسي الموثورة ^(٢) فلما خلفه الرشيد تجاوزوه فأتخذ خدماً
 صفراً اسمهم النمل يتقدمونه وبأيديهم قسي السندق يرمون بها من يعارضه من الناس ^(٣)
 ثم صار ذلك سنة جرى عليها الوزراء والأمراء وأول وزير مشى أرباب الدولة بين
 يديه رجاله الحسن بن علي وزير المسترشد ^(٤) وهم إلى ذلك الحين يركبون بالحليمة
 الخفيفة الفضية والسروج المكسوة بالديباج ثم ركبوا في حلية الذهب وأول من ركب
 بها المعتز العباسي المتوفى سنة ٢٥٥ هـ . فجرى الناس على ذلك

أما في مصر فالخلفاء الفاطميون قلدوا العباسيين في مواكبهم على جاري العادة في
 سائر أبواب المدينة وزادوا عليهم الركوب بالمظلة والشمسية ولعلمهم نقلوا هذه العادة من
 المغرب لأنها كانت جارية هناك قبل الإسلام فكانت الناس يظلمون حكامهم بربش
 الطواويس ^(٥) فأتخذها الفاطميون من الديباج أو الخز المحلى بالذهب والمرصع بالجواهر
 وحوّلها الاعلام تختلف ألوانها باختلاف الاحوال

وكان السلاجقة يركبون بالطلل والبوق والعلم والجتر على رؤوسهم وهو كالقبة
 الصغيرة مرتفعة في الهواء على رح يحمله من يسير قريب المالك بحيث يظلاله من الشمس
 ويتخذونه من الديباج أو الحرير المذهب ^(٦)

على ان تلك المواكب تختلف نغمة وشكلا باختلاف المقصود منها وباختلاف
 الدول أهمها موكب الخروج إلى الحج أو إلى بلد آخر . ومواكب الاعياد وهي تمتاز
 بمن يقف للخليفة في خروجه من صفوف الجند . وأول من صفت له الجنود يزيد بن
 الوليد الأموي فكان يخرج يوم العيد بين صفين عليهم السلاح ^(٧)

وللخلفاء مواكب كثيرة لو اردنا الاتيان عليها كلها لضاق المقام ولكننا نقول
 بالاجمال أنهم كانوا يخرجون على الخيول أو في القباب وحوّلهم الاعوان ركوباً والشرطة
 مشاة وكذلك الغلمان على اختلاف طبقاتهم يلبسون مناطق الذهب أو يحملون المقارع
 أو الطبرزينات الحلاة بالذهب ويقف الناس أو الجند في الطريق صفين يسير الموكب
 بينهما ويختلف طول هذا الموقف باختلاف ما يريدونه من اظهار الابهة . وقد بلغ طوله

(١) لطائف المعارف ١٢ (٢) المسعودي ٣٦٥ ج ٢ (٣) الاغانى ٩٤ ج ٢٠

(٤) الفخرى ٢٧٢ (٥) الاغانى ٥٩ ج ٦ (٦) ترتيب الدول ١٠٣

(٧) ابن الاثير ١٤٧ ج ٥

في خروج المتوكل على الله اربعة اميال ترحل فيها الناس بين يديه ^(١) واذا كان المسير الى مكان بعيد ضربوا القباب العظيمة في الطريق ^(٢) يستظل الخليفة بها او يقيم فيها وكان الخلفاء الفاطميون يركبون يوم الجمعة الى الجامع الازهر بالمظلة المذهبة وبين ايديهم نحو ٥٠٠٠ ماش وعلى الخليفة الطليسان والسيف ويده قضيب الخلافة حتى يأتي الجامع ويصلي ولهم رسوم كثيرة مجرونها قبل الصلاة . وانا خرجوا للمبايعة او الاحتفال لفتح الخليج ركب الخليفة وعليه الهامة الجواهر ^(٣) وتوب يقال له البدنة كله ذهب وحرير مرقوم والمظلة من شكله وبين يدي الخليفة الجنائب عليها السروج الذهب المرصع بالجواهر والسروج النمر والقباب الديباج بالحلى والعسكر على ازيائه من الارانس والديلم والعزمية والاشعبدية والكافورية بالديباج الثميل والمناطق المذهبة وبين يديه الفيلة عليها الرجلة بالسلاح والزرافة وفوق الخليفة المظلة الثقيلة بالجواهر ويده قضيب الخلافة وعشي امامه اصحاب الاواق الذهب قابواق الفضة فالتحاس واصحاب الطبول الكبار التي مكان خشبها فضة والاولوية تحقق فوق ذلك الموكب

٦ - احتفالاتهم

الاحتفالات الدينية

والاحتفالات في التمدن الاسلامي بعضها ديني كالموالد والاعياد والكسوة وبعضها وطني كالتيروز والمهرجان وشم النسيم وفتح الخليج . على ان الاحتفالات الدينية انما اتخذوا اسلوب الاحتفال بها من غير المسلمين كما اتخذ انتصارى بعض طقوس الاحتفال باعيادهم من الوثنيين . ولا يزال الاحتفال بالاعياد الاسلامية شائعا الى الان مع تغيير اقتضاه الفرق بين التمدنين . واكثر الدول الاسلامية عناية بهذه الاعياد الفاطميون منها: يوم عاشوراء والمولد النبوي وموالم علي وفاطمة والحسن والحسين والخليفة الحاضر ولية اول رجب وعيد النحر وعيد الفطر وفتح الخليج ويوم النيروز وغيرها مما فصله المقرئ في خطه ^(٤) ولهم في كل من هذه الاعياد رسوم وقواعد يبدلون فيها الاموال ويقرقون الصدقات ويهدون الهدايا من النقود والثياب والحلى وغيرها مما يطول شرحه

(١) ابن الاثير ٣٦ ج ٧ . وابن عساق ٣٢ ج ٩ وابن خلكان ٣٨٠ ج ٢

(٢) فوات لوفيات ٤ ج ١ (٣) المقرئ ٢٨٠ و ٢٨٥ ج ٢

(٤) المقرئ ٤٩٠ ج ١

ومن اشتهرت عنايته بالاحتفالات الدينية مظفر الدين صاحب اربل وكان احتفاله بالمولد النبوي بالغاً جد النهاية بالابهة . والمشهور انه أول من احتفل به على الصورة المعروفة اليوم ^(١) وكذلك السلطان ابو حمو موسى صاحب تلمسان ^(٢) — غير احتفالاتهم الاجتماعية كالاعراس والمآتم والحنان ونحوها . والسياسية كاستقبال الوفود والمباينة والتتويج والحلح فذكر امثلة منها فيما يلي

احتفالات الاعراس ونحوها

فلاحتفال بالاعراس تغلب على احوال شتى ترجع الى نحو المشهور من الاحتفال باعراس المسلمين في مصر الان مع اعتبار عوائد البلاد وتفاوت الثروة . ونأتي بمثال من ابلغ ما يعرف من التناهي بالبدخ في مثل هذه الحال فنذكر احتفائين اشتهرا في تاريخ الاسلام :

الاول زفاف خديجة بنت الحسن بن سهل المسماة بوران الى الخليفة المأمون احتفلوا به في قم الصلح احتفالاً لم يسبق له مثيل نثر الحسن فيه على الهاشميين والفواد والكتاب والوجوه بنادق المسك فيها رقاع باسماء ضياع واسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك . فكانت البندقة اذا وقعت في يد الرجل فتحها فيمراً ما في الرمة فاذا علم ما فيها مضى الى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها اليه ويتسلم ما فيها سواء كان ضيعة أو ملكاً آخر أو فرساً أو جارية أو مملوكاً . ثم نثر على سائر طبقات الناس الدنانير والدرهم ونوافح المسك وبيض العنبر غير ما انفق على المأمون وقواده وأصحابه وسائر من كان معه من اجناده واتباعه وكانوا خلفاً لا يحصى حتى على الخمايين والمكارية والملاحين وكل من ضمه عسكره . ذكروا انه خدم في ذلك الاحتفال ٣٦٠٠٠ لاج ونقد الحطب يوماً فاوقدوا تحت القدور الحيش مغموساً في الزيت . ولما كانت ليلة البناء وجلبت بوران على المأمون فرش لها حصير من الذهب وجيء بمكتل مرصع بالجواهر فيه درر كبار نثرت على الذماء وفيهن زبيدة وحدونة بنت الرشيد فنامت احدها من الدر شيئاً . فقال المأمون شرفن ابا محمد واكرمنه فمدت كل واحدة منهن يدها فاخذت درة فبقي سائر الدر يلوح على ذلك الحصير الذهب ويتألاً فقال المأمون : قاتل الله الحسن ابن هاني . كانه قد رأى هذا حيث يقول :

كان صغرى وكبرى من فواقعها حصباء در على ارض من الذهب

وكانت في المجلس شمة عنبر فيها مائة رطل فضح المأمون من دخانها فعملت له مثل

من الشمع فكان الليل مدة مقامه فيه كالنهار. وبلغت نفقة هذا الاحتفال ٥٠٠٠٠٠٠٠ درهم وأمر المأمون لأحسن بن سهل عند منصرفه بمبلغ ١٠٠٠٠٠٠٠ درهم واقطعه فم الصلح فجلس الحسن وفرق المال على قواده وأصحابه وحشمه وأطلق له خراج فارس وكور الأهواز مدة سنة. وجاء المأمون إلى عروسه في الليلة التالية فنثرت عليه جدتها الف درة كانت في صينية ذهب^(١) وغير ذلك مما يفوق طور التصديق

والاحتفال الثاني احتفله المتوكل على الله حين ظهر ابنه المعتز بالموضع المعروف ببركوازا ومما جرى فيه أنه جلس بعد فراغ القواد والأكابر من الأكل ومدت بين يديه مرافيع ذهب مرصعة بالجوهر وعليها أمثلة من العنبر والند والمسك المعجون على جميع الصور وجعلت بساطاً ممدوداً وأحضر العواد والجلساء وأصحاب المراتب فوضعت بين أيديهم صواني الذهب مرصعة باصناف الجواهر من الجانبيين وبين السباطين فرجة وجاء الفراشون بزنايل قد غشيت بالآدم مملوءة دراهم ودنانير نصفين فصبت في الفرجة حتى ارتفعت على الصواني وأمر الحاضرون أن يشربوا وأن يتنقل كل من شرب من تلك الدنانير بثلاث حقنات ما حملت يده وكلما خف موضع صب عليه من الزنايل حتى يرد إلى حالته. ووقف غلمان في آخر المجلس فصاحوا « إن أمير المؤمنين يقول لكم ليأخذ من شاء ما شاء » فد الناس أيديهم إلى المال فأخذوه وكان الرجل يشقله ما معه فيخرج به فيسلمه إلى غلمانهم ويرجع إلى مكانه. ولما تقوض المجلس خلع على الناس الف خلعة وحملوا على الف مركب بالذهب والفضة واعتق الف نسمة^(٢)

وقس على ذلك احتفال الخليفة المقتدي بالله سنة ٤٨٠ هـ لما زفت إليه بنت السلطان ملكشاه وحمل جهازها إلى دار الخلافة^(٣) وأما الاحتفال بتتويج السلاطين والبيعة فقد ذكرنا أمثلة منه في الجزء الأول من هذا الكتاب صفحة ١١١ و ١٢٠ (طبعة ثانية)

الخلع على الوزراء

ومن مظاهر الإبهة احتفالهم بالخلع على الوزراء والسلاطين وأول من خلع عليه جعفر البرمكي في اليوم الذي تولى الرشيد الخلافة فيه وكان في جملة ما خلعه عليه ١٠٠ بدره دراهم ودنانير وأمر الناس فركبوا إليه حتى سلموا عليه وأعطاه خاتم الملك ليختم به على ما يريد^(٤) وحذا حذو الرشيد من جاء بعده فخلعوا على وزراءهم وعمالهم خلعاً يختلف شكلاً وقدرًا باختلاف الأحوال ومعها في كل حال ثوب يرسله الخالع ويلبسه

(١) لطائف المعارف ٧٣ وابن خلكان ٩٣ ج ١ (٢) لطائف المعارف ٧٤

(٣) ابن الأثير ٦٥ ج ١٠ (٤) المقرئ ٩٩ ج ٢

المخلوع عليه يقال لها الخلعة . فالخليفة العاضد الفاطمي لما ولى السلطان صلاح الدين الايوبي الوزارة بمصر لقبه الملك الناصر وخلع عليه خلعة ، وثلفة من عمامة بيضاء تنيسي بطرف ذهب وثوب ديبقي بطراز ذهب وجبة بطراز ذهب وطيلسان مطرز ذهب وعقد جوهر بعشرة آلاف دينار وسيف محلى بخمسة آلاف دينار وحجرة بثمانية آلاف دينار عليها سرج ذهب وسر سار ذهب مجوهر وفي رأسها مائتا حبة جوهر وفي قوائمها أربعة عقود جوهر وفي رأسها قصبية بذهب وفيها شدة بياض بعلام بيض . ومع الخلعة عدة بقح وخيل وأشياء أخر ومنشور الوزارة مكتوب في ثوب أطلس أبيض^(١)

ولما نقلت الخلافة العباسية الى مصر خلع الخليفة العباسي على السلطان الملك الظاهر يومئذ خلعة ألبسه إياها باحتفال هي عبارة عن جبة سوداء وعمامة سوداء وطوق في عنقه من ذهب وقيد في رجله من ذهب^(٢) . وقس على ذلك استقبال الوفود

أما استقبال الوفود فقد كان فخماً يظهر من به عز الاسلام ولا سيما اذا كان القادمون من وفود الدول غير الاسلامية من الروم أو الهند أو الافرنج . والاحتفال بذلك يختلف باختلاف الاحوال نذكر من أمثله احتفال المقتدر العباسي برسل جاؤوه من ملك الروم سنة ٣٠٥ هـ فانه استقبلهم في دار الشجرة التي تقدم ذكرها وعي لهم الجيوش وصفت الدار بالاسلحة وانواع الزينة وكانت جملة العساكر المصفوفة حينئذ ١٦٠٠٠٠ رجل بين راكب وواقف . ووقف الغلمان الحجرية بالزينة والمناطق الحلاة وكانوا اثنين وعشرين ألفاً . ووقف الخدم والخصيان كذلك وعددهم سبعة آلاف منهم ٤٠٠٠ خادم أبيض و ٣٠٠٠ خادم أسود . ووقف الحجاب وكانوا سبعمائة حاجب وزينت المراكب والزوارق في دجلة أعظم زينة . وزينت دار الخلافة وكانت جملة الستور المعلقة عليها ٣٨٠٠٠ ستر منها ديباج مذهب ١٢٥٠٠ ستر وكانت جملة البسط ٢٢٠٠٠ بساط . واستعرضوا مائة سبع مع مائة سبع . وكان في جملة الزينة الشجرة الذهب والفضة التي تشتمل على ثمانية عشر غصناً من الذهب والفضة فكانت أغصانها تمايل بحركات موضوعة وعلى الاغصان طيور وعصافير مختلفة من الذهب والفضة تصفر بحركات مرتبة كما وصفناها في محلها . فشاهد الرسل من العظمة ما يطول شرحه^(٣)

(١) السيوطي ٢٥ جزء ٢ (٢) السيوطي ٥٨ جزء ٢ (٣) ابو الفداء ٧٣ جزء ٢ وابن الساعي ٧٥

٧ — الخلفاء والدول المعاصرة

هب العرب للفتح والعالم قد تضعضع وأهله في خمول فبغتوهم وقتحو بلادهم في بضع عشرة سنة على أسلوب لم يسبق له مثيل . فلما افاقوا أرادوا ردهم فعجزوا عنه . وما لبثوا ان شاهدوا تمدنهم وعمران مملكتهم واشتغالهم بالعلوم والفنون والصناعة والتجارة والرحلة والسياحة فهابوهم وأخذوا يتقربون اليهم بالوفود والهدايا الى المدينة فدمشق ثم أصبحت بغداد مجتمع الوفود القادمين من أطراف العالم من الهند والصين شرقاً الى أعالي آسيا وأواسط أوربا شمالاً الى أقصى افريقيا غرباً والبحر الهندي جنوباً . وصارت البصرة بؤرة التجارة البحرية في الشرق وملتقى السفن القادمة من أقاصي البحور الاسلام في تاريخ الصين .

المشهور ان الاسلام لم يذكر ظهوره وانتشاره غير أصحابه ولم يدون اخباره غير أهله حتى الروم مع ماكان من مدينتهم يومئذ لم يكتب المعاصرون منهم شيئاً عن الاسلام أو المسلمين . ولكن الباحثين عثروا في السكتب الصينية على خبر الاسلام وانتشاره الى استقلال معاوية بالخلافة لنفسه فقيام ابي مسلم الخراساني ونقله الدولة الى العباسيين وغير ذلك . فقرأوا اسماء محمد وقريش ومعاوية وابي العباس وابي جعفر وغيرها من رجال الاسلام مكتوبة بالاحرف الصينية . ومما جاء هناك ان ابا جعفر ارسل سنة ٧٥٦م وقدأ الى امبراطور الصين التقى عنده بوفد قادم من (هوي هو) من مغول الشمال فاقتصم الوفدان في من يتقدم بالدخول على الامبراطور فانصف الحاجب بينهما وادخل كل وفد من باب — ذكروا ذلك ، بكتاب طنج شو الفصل العاشر في اثناء سيرة الامبراطور سوتسونغ — قالوا ثم تولى المهدي وخلفه هرون الرشيد وفي ايامه (سنة ٧٨٥-٨٠٤م) جرد العرب اصحاب الحية السوداء على توفان (تيبث) ثم صار اهل توفان يجندون لقاتلهم كل سنة . وفي (٧٩٨ م) جاء ثلاثة سفراء من العرب الى بلاط الامبراطور الخ^(١)

ووقفوا في تاريخ الصين ايضاً على نصوص تشير الى ما كان من العلائق التجارية بين الصينيين والعرب من أواسط القرن العاشر للميلاد أو الثالث للهجرة فذكروا سفناً تجارية عربية كانت ترسو على شواطئ الصين يحملون فيها الزجاج والسكر وغيرها . وان تجار العرب ووربان سفنهم كثير أما كانوا يفدون على البلاط ويدخلون على الامبراطور فيخطبهم

E. Bretschneider, The knowledge Possessed by The Ancient Chinese of the Arabs & Arabian colonies. 7

ويسألهم عن بلادهم وملوكهم وسائر أحوالهم . ووقفوا على نصوص آخر تدل على علائق مثل هذه بين الصين وغير العرب من دول الاسلام مما يطول بيانه . ومع اختصار هذه الاخبار وتشوش حوادثها وفساد تهجئة الاعلام فيها فهي عظيمة الاعمية لانها منقولة عن مصدر صيني مستقل

اما العرب فقد ذكر مؤرخوهم وأهل الرحلة منهم كثيراً من أخبار نزولهم شواطئ الصين والهند ودخولهم على ملوكهما ومخاطبتهم في بعض الشؤون التجارية . ولكن أكثرهم كانوا لا يكثرثون بتلك الروايات لاعتمادهم انها محشوة بالمبالغات والخرافات كلهم قاسوها بما يقرأونه من الاقاصيص الخرافية في الف ليلة وليلة مثل قصة السندباد البحري والفرس المسحور وغيرها . على ان هذه الاقاصيص منقولة بالاصل عن غير العربية وأكثر خرافات العرب دخيلة في آدابهم --- واما ما يكتبونه من عند أنفسهم فالغالب فيه التحقيق والصدق ولا سيما كتب التاريخ ونحوها اذا نظرنا فيها نظر الناقد المنصف واعتبرنا الفرق بين عصرهم وعصرنا

على اتنا لا نلوم المنكرين لانهم انما عرفوا العرب بعد ذهاب دواتهم وانحلال عصبيتهم وانحطاط همهم وضعف عزائمهم فأكبروا ان يكون لهم مثل تلك الهمم الشماء في عهد ذلك التمدن فكذبوا ما قرأوه في كتبهم من هذا القبيل . أما وقد رأينا ما يؤيده في كتب أهل الصين على غير تواطوء او نقل فلم يبق لنا بد من تصديقه

وأقدم ما وصل إلينا من الكتب العربية التي ذكرت تجارة العرب مع الصين والهند ونزول تجار العرب شواطئ تلك البلاد كتاب « سلسلة التواريخ » وهو يشتمل على السياحات البحرية التي أجرتها العرب والعجم من شواطئ خليج فارس الى بلاد الهند والصين تأليف سليمان التاجر وابي زيد حسن من ابناء القرن الثالث للهجرة . وقد طبع هذا الكتاب بباريس سنة ١٨١١ ومعه ترجمة فرانسوية للمستشرق الشهير رينو . ثم مروج الذهب للمسعودي وهو مشهور ومتداول غير امهات كتب الجغرافية العربية وكلها مبني على رحلات حقيقية اشهرها ما كتبه البلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي وغيرهم وليس هنا مكان الافاضة في ذلك

ويقال بالاجمال ان في كتب التاريخ نصوصاً كثيرة تدل على علائق تجارية وسياسية بين العباسيين وملوك المشرق في الهند والصين وان المهاداة كانت متواصلة بينهما . فكانت وفود ملوك الهند تؤم بغداد من اواخر القرن الثاني للهجرة تحمل الهدايا او كتب الخبارة ^(١) ولا بد ايضاً من وفود كانت تأتي بغداد من صاحب الصين

الاسلام وملوك اوربا

على ان علائق ملوك المسلمين مع ملوك اوربا وأعظمهم يومئذ الروم والجرمان والافرنج والاسبان كانت اوثق من سواها . اما الروم وهم ملوك القسطنطينية فكانت الخبارات متواصلة بينهم وبين المسلمين من ايام بني امية اما لصالح او مهادنة او مهاداة^(١) او مفاداة . والحرب كانت سجالات بينهما على الحدود او في البحار . وقد حاصر الامويون القسطنطينية غير مرة ولم يفتحوها ولكنهم فتحوا بلاداً أخرى من اوربا وأوقعوا الرعب في دول الافرنج . وكذلك بنو العباس^(٢) فان الرشيد أخذ^(٣) من ايريني صاحب القسطنطينية

واما حوادث المهاداة فهدية الرشيد الى شارلمان ملك فرنسا اشهر من ر على ان هدايا ملوك الروم الى دار الخلافة كانت متواصلة وأكثرها من السيوف والثياب والاطياب والذهب والكلاب منها هدية بعث بها قيصر الروم (ربما ميخائيل الثاني) الى المأمون وفيها نحف سنية من جملتها مائة رطل مسك ومائة حلة سمور^(٤) وأهدت تريا بنت الاوباري (كذا) ملكة الافرنج الى المكتفي بالله سنة ٢٩٣ هـ خمسين سيفاً و ٥٠ رمحاً و ٢٠ ثوباً منسوجاً بالذهب و ٢٠ خادماً صقلياً و ٢٠ جارية و ١٠ كلاب كبار لا تغلبها السباع وستة بازات وسبعة صقور ومضرب حرير ملون كقوس الفزح وغيرها^(٥)

وكان الحلفاء ايضاً يوجهون وفوداً من عندهم في مراسلة او مخابرة وعن سارفي ذلك القاضي الاشعري المعروف بابن الباقلاني أنفذه عضد الدولة سنة ٣٧١ هـ الى قيصر الروم (باسيل الثاني) في جواب رسالة فاطمه في بلاط القيصر أنفة زادت مقام المسلمين عندهم^(٥)

الاندلسيون وملوك الافرنج

على ان العلائق كانت اكثر وثوقاً بين ملوك اوربا وملوك الاسلام في الاندلس لان قياصرة القسطنطينية كانوا يتقربون من الحلفاء الامويين في قرطبة ليستصروهم على العباسيين اعداء الجانبين . حتى ان ثيوفيلوس ملك الروم المعاصر لعبد الرحمن الاوسط هاداه سنة ٢٢٥ هـ وكتب اليه يرغبه في ملك المشرق من اجل ما ضيق عليه به المأمون والمعتم وقدم ذكرهما في كتابه له وعبر عنهما بابن مراحل وابن ماردة تحقيراً لهما بالانتساب الى امهات من الجواري . فكافأه عبد الرحمن عن الهدية وبعث اليه يحيى

(١) المبرد ٢٩٦ و ٣٢٤ (٢) ابن الاثير ٧٤ ج ٦ (٣) فوات الوفيات ٢٤٠ ج ١

(٤) المستطرف ٤٦ ج ٢ (٥) ابن الاثير ٦ ج ٦

الغزال شاعره وأحد كبار دولته فاحكم الصلة بينهما^(١) فلما ظهر الخليفة الناصر عبد الرحمن الثالث وأوطأ عساكر المسلمين من بلاد الافرنج ما لم يظأه أحد من اسلافه تقدم اليه ملوكهم بالطاعة وتقرّبوا بالهدايا فاوفدوا رسلهم وهداياهم من رومية والقسطنطينية وغيرهما على سبيل المهادنة والسلم والاعمال بما يمن في مرضاته ووصل الى باب الملوك من الاسبان المتأخين لبلاده بمجملات قشتالة ونبيلونة وما ينسب اليها من الثغور الحوفية فقبلوا يده والتسوا رضاه واحتقبوا جوارزه وامتطوا مركبه^(٢)

وتوالى الهدايا على عبد الرحمن الناصر من سائر ملوك الاسبان . فلما برشلونة وطركونة هادياه يلتسمان تجديد الصلح^(٣) وملك الصقالبة وهو يومئذ « ذوفوة » (كذا) اوفد اليه رسولا مع رسل آخرين من ملك الالمان (ربما اوثو الاعظم) وملك الفرنجة وراء الرور وهو يومئذ « اوفه ؟ » ورسول آخر من ملك الفرنجة بقاصية المشرق واسمه « كادة » (ربما كوزاد) واحتفل الناصر لقدمومهم احتفالا شائعا . ولما رجعوا بعث مع رسول الصقالبة ربيعا الاسقف الى ملكهم . وبالجملة ان الخليفة الناصر كان سلطانه ضخما عزيزا لم يبق ملك من ملوك اوربا الا خطب مودته وفي جملة قياصرة الروم وملك الافرنج والاسبان والجرمان . وفي نفح الطيب للهفري تفصيل ما كان يجريه من الاحتفال في استقبالهم^(٤) تعظيما لدولة المسلمين . ولما أراد بناء « الزهراء » أهده اولئك الملوك من أصناف الحجارة والرخام على اختلاف ألوانه واشكاله شيئا كثيرا^(٥) وقد ذكرنا ذلك في كلامنا عن بنو هذا القصر الفخم وقس على ما تقدم علائق ملوك اوربا بسائر خلفاء المسلمين وملوكهم فكانت هدايا قيصر القسطنطينية ترد على صاحب مصر ولا سيما في زمن الفاطميين بعد ان ضخت دولتهم . منها هدية بعث بها الامبراطور قسطنطين التاسع الى المستنصر بالله الفاطمي سنة ٤٣٧ هـ اشتملت قيمتها على ثلاثين قنطارا من الذهب الاحمر كل قنطار في عشرة آلاف دينار الجلة ٣٠٠ ٠٠٠ دينار^(٦) وكان رسول الروم اذا قدم القاهرة في ذلك العهد نزل عند باب الفروح ولا يزال يقبل الارض وهو ماش حتى يصل القصر الكبير مقر الخليفة^(٧)

- | | |
|-------------------------|-------------------------|
| (١) نفح الطيب ١٦٣ جزء ١ | (٢) نفح الطيب ١٦٧ جزء ١ |
| (٣) نفح الطيب ١٨١ جزء ١ | (٤) نفح الطيب ١٧٢ جزء ١ |
| (٥) نفح الطيب ٢٧٠ جزء ١ | (٦) المستطرف ٤٦ جزء ٢ |
| (٧) المقرئ ١٠٧ جزء ٢ | |

٨ — ألعاب الخلفاء وملاهيهم

ما برح الملوك من قديم الزمان ياهون في ساعات الفراغ بالعباب يروضون بها عقولهم وابدانهم . ولكل امة العباب تلائم عاداتها وتشاكل اخلاق اهلها ولكن الملوك يتشابهون في اكثرها لتشابه مرادهم منها . وألعاب الخلفاء كثيرة بعضها كان معروفاً في الجاهلية كالصيد والسباق وبعضها اقتبسوه من الاعاجم كاللعب بالكرة والصولجان والرمي بالبندق واللعب بالنرد والشطرنج ونحوها . واسبق الدول الى الاحتفاء بهذه الالعب العباسيون في ايام الرشيد فانه اول من لعب بالصولجان والكرة وأول من رمى بالنشاب في البرجاس واول من لعب بالشطرنج والنرد وقرَّب العباب واجرى عليهم الارزاق^(١) واليك وصف أهم العباب في ابان تمدنهم

١ — الصيد والقنص

كان الصيد معروفاً في الجاهلية ولكنه كان قاصراً على صيد غزال او طائر بالنبل أو الفخ فلما تمدن العرب بعد الاسلام وخالطوا الفرس والروم توسعوا في ضرائق الصيد والقنص فاتخذوا الجوارح من الطير وهي الباز والشاهين والعقاب والصقور يعلمونها صيد الطيور وغالوا في اقتناء الكلاب والفهود ونحوها يستعينون بها على صيد الخنازير والغزلان وحمر الوحش . وأول من اشتغل بالصيد من الخلفاء يزيد بن معاوية وكان صاحب طرب وجوارح وقرود وفهود وله كلف بالصيد فاتخذ له وليس للرياضة . وكان يلبس كلابه الاساور من الذهب والاحلة المنسوجة بالذهب ويهب لكل كلب عبداً يخدمه^(٢) . واشتغل بالصيد غيره من خلفاء بني أمية على تفاوت في ذلك

حتى اذا افضى الامر الى بني العباس ورسخت اقدامهم في الدولة اهتموا بالصيد وتفننوا في تربية الجوارح والكلاب والفهود وغالوا في اقتنائها وبذلوا الاموال في اقتنائها وتربيتها واقاموا عليها اناساً ينظرون في شؤونها وفيهم البيازرة والحبالون والفهادون وأصحاب الصقور والكلاب وأطلقوا لهم الارزاق الجلييلة وأقطعهم الاقطاعات السنية وسهلوا عليهم حجابهم . وتسابق الشعراء الى وصف تلك الجوارح وحركاتها وسرعتها وخصالها^(٣) وكتبوا في فنون الصيد واساليه كتباً عديدة ككتاب البراة والصيد وكتاب المصائد والمطارد^(٤)

وكان العباسيون يصيدون السباع والخنازير فضلاً عن الغرلان والطيور وحمر الوحش

(١) السمودي ٣٦٥ جزء ٢ (٢) المعري ٤٩ (٣) ترتيب الدول ١٣٦

وديون ابن نواس والاغاني ١١٦ جزء ٩ (٤) ابن خلدون ٢٣٥ جزء ٢ و٤٢٣ جزء ١

ونحوها . وأول من أحب الصيد منهم المهدي فالرشيد وكان ابنه صالح يحب صيد الخنازير^(١) وابنه الأمين يهوى صيد السباع يصطادها له جماعة يعرفون باختيار الباييد^(٢) وكان المعتصم ألهمهم به فبنى في أرض دجيل قرب بغداد حائطاً طوله فراسخ كثيرة يحدون الصيد عنده وذلك أن يطارد رجاله تلك الحيوانات من الجهة المقابلة للحائط فتفر نحوه فيضربون حولها حلقة ولا يزالون يطاردونها بخيولهم وكلابهم وفهودهم وهي تثب بين الأعشاب والادغال حتى يضائقوها ويحصروها بين الحائط ودجلة فلا يبقى لها مجال للتجاء فيقبل المعتصم وأولاده وأقاربه وخواص حاشيته ويتأفقون في القتل والصيد فيقتلون ما يقتلون ويطلقون الباقي^(٣)

وقس على ذلك سائر الخلفاء من بني العباس والفاطميين والروانيين وغيرهم من ملوك المسلمين السلاجقة والأتابكة والايوية والمماليك . فقد عدوا ما اصطاده السلطان ملك شاه السلجوقي من الحيوانات فبلغ عشرة آلاف رأس حتى بنى من حوافر الحمر الوحشية وقرورن القباء التي صادها منارة^(٤) وكان السلطان مسعود السلجوقي يبائع في تـ فيه السكابل حتى البسها الجلال الاطلس الموشاة وسورها بالاساور الذهب . واصطنع السلطان ابو عبد الله المستنصر في المغرب مصيداً بناحية بنزرت في بقعة ببسيط من الارض واحاطها بسياج خرج نطاقه عن التحديد بحيث لا يراع فيه حمر الوحش فاذا ركب للصيد تخطف السيـاج في أصحابه ومواليه وفعل فعل المعتصم يحصر الصيد عند ذلك السيـاج^(٥) وفي كتاب الاعتبار لابن منقذ فصول طويلة في الصيد وطرقه^(٦)

٢ - الحلبة أو السباق

لم تبق أمة من الأمم القديمة أو الحديثة الا لهجت بالسباق ولا سيما اليونان والرومان والفرس . وكان العرب في الجاهلية يتسابقون بخيولهم ويتفاخرون بذلك . وكثيراً ما انتشبت الحرب بين القبائل من أجل السباق . وكانوا يرسلون خيلهم الى الحلبة وهي ميدان السباق عشرة عشرة وعندهم لكل منها اسم باعتبار تقدمها في السبق بعضها على بعض^(٧)

ولما تحضروا بعد الاسلام بالغوا في اتخاذ الميادين واستكثروا من الخيول وتفتشوا في تـصميمها . وكان لمعاوية حابة يخرجون اليها في ايام معينة للسباق فمن حاز قصب السبق

(١) الاغانى ٩٧ جزء ٩ (٢) السمودي ٢١٣ جزء ٢ (٣) الفخرى ٤٧

(٤) ابن خلكان ١٢٤ جزء ٢ (٥) ابن خلدون ٢٨١ جزء ٦

(٦) كتاب الاعتبار ١٥٠ (٧) السمودي ٣٨٠ جزء ٢

أجازوه - وقصب السبق قصبة يغرسونها في آخر الحلبة فمن سبق إليها واقتلها فهو الفائز . ومن غريب ما ذكروه ان يزيد بن معاوية كان له فرد يكنى ابا قيس يحضره مجلس منادته ويطرح له متكاً وكان نبيهاً خبيثاً يحمله على اتان وحشية قد رiest وذلت لذلك بسرج ولجام وكان يسابقها الخيل يوم الحلبة . فجاء ابو قيس في بعض الايام سابقاً وتناول القصبة ودخل الحجره قبل الخيل وعليه قباء من الحرير الاحمر والاصفر وعلى رأسه قلنسوة من الحرير ذات الوان بشقائق وعلى الاتان سرج من الحرير الاحمر المنقوش^(١)

وكان هشام بن عبد الملك رغبة في الحلبة يستجيد الخيل للسباق ويبذل في اقتنائها الاموال فاجتمع عنده ٤٠٠٠ فرس ولم يسبقه أحد من العرب الى ذلك . وكان له فرس سابق اسمه « الزائد » اشتهر في ذلك العصر . وكان الوليد بن يزيد مغرى بخيل السباق فجمع منها الف فرس اسبقها فرس اسمه « السندي » كان يسابق به في ايام هشام وكان يقصر عن فرس هشام « الزائد » وربما ضامه أوجاء مصلياً . وكان ميدان السباق يومئذ في الرصافة (بالشام) ولهم فيها ميادين مشهورة وحوادث مذكورة^(٢) ولحمد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان قصيدة عامرة وصف بها خيل الحلبة العشرة باسمائها وصفاتها هي أحسن ما نظم في هذا الموضوع^(٣)

أما العباسيون فلم يكونوا أقل رغبة في السباق وكانت لهم ميادين كبيرة في الرقة والشماسية وللرشيد مواقف شهيرة في الحلبة نظم فيها الشعراء الفصائد في مدح السوابق^(٤) وقس على ذلك ما كان من ميادين الحلبة في سائر دول الاسلام ومن أشهرها ميدان ابن طولون وميدان بيبس بمصر^(٥) وميادين الحكم في الاندلس

٣ - الكرة والصولجان

هي لعبة فارسية لم يكن بنو امية يعرفونها واول من لعبها بنو العباس واسبقهم اليها الرشيد . وهي عبارة عن كرة تصنع من مادة خفيفة مرنة كالفلين ونحوه تلقى في ارض الميدان فيتسابق الفرسان الى التقافها بمصى عقفاء يسمونها الصولجان او الجوكان ويرسلون الكرة بها في الهواء وهم على خيولهم وكان المعتصم شديد الرغبة فيها . ومن لطيف ما يحكى انه قسم أصحابه يوماً للعب بها فجعل الافشين في جهة وهو في جهة فقال الافشين « يعفني امير المؤمنين من هذا » فقال « ولم » قال لاني ما أرى أن أكون على امير المؤمنين في جد ولا هزل « فاستحسن ذلك منه وجعله في حزبه^(٦)

(١) المسعودي ٦٨ جزء ٢ (٢) المسعودي ١٢٩ و١٣٥ جزء ٢ (٣) المسعودي ٣٨١ جزء ٢ (٤) العقد الفريد ٤٧ جزء ١ والمسعودي ١٩٩ جزء ٢ (٥) المقرئ ١١١ جزء ٢ (٦) ترتيب الدول ١٣٠

٤ - البندق

البندق كرات تصنع من الطين او الحجارة او الرصاص او غيرها وهي فارسية بلفظها واستعملها ويسمونها ايضاً الجلاهقات جمع جلاشق . فكان الفرس يرمون هذا البندق عن الاقواس كما يرمون النبال . واقتبس العرب هذه اللعبة في اواخر ايام عثمان ابن عفان وعدوا ظهورها في المدينة منكرأ^(١) ثم القوها حتى شكلوا فرقاً من الجند ترمي بها . وقد رأيت ان الرشيد كان عنده فرقة يقال لها النيل تسير بين يديه ترمي البندق على من يقف في طريق الموكب . وكان رماة البندق في العصر العباسي طائفة كبيرة يخرجون الى ضواحي المدن يتسابقون في رميه على الطير ونحوه^(٢) ويعدون ذلك من قبيل الفتوة ويغلب في رماة البندق ان يشغلوا بتطهير الحمام . ولهم زي خاص يمتاز بسراويل كانوا يلبسونها ويسمونها سراويل الفتوة وكان العيارون من أهل بغداد يلبسونها في اواخر الدولة . حتى اذا افضت الخلافة الى الناصر لدين الله العباسي المتوفى سنة ٦٢٢ هـ جعل لرمي البندق شأنأ لأنه كان ولماً به وبالعاب الحمام المناسبة وكان يلبس سراويل الفتوة وقد بلغ من رغبته في ذلك حتى جعل رمي البندق فناً لا يعطاه الا الذين يشربون كأس الفتوة ويلبسون سراويلها على ان يكون بينهم روابط وثيقة نحو ما عند بعض الجمعيات السرية . وجعل نفسه رئيس هذه الطائفة يدخل فيها من شاء ويحرم من شاء . وكتب سنة ٦٠٧ هـ الى ملوك الاطراف الذين يعترفون بخلافته ان يشربوا له كأس الفتوة ويلبسون سراويلها وان ينتسبوا اليه برمي البندق ويجعلوه قدوتهم فيه فاجابوه الى ذلك . فمن اراد الانتظام في سلك هذه الطائفة يأتي بغداد فيلبسه الخليفة السراويل بنفسه . فبطلت الفتوة في البلاد جميعها الا من لبس سراويلها منه ومنع الرمي بالبندق الا من ينتسب اليه . فاجابه الناس في العراق وغيره الا انساناً اسمه ابن السفث من بغداد هرب الى الشام فارسل الخليفة اليه يرغبه بئذ المال ليرمي عنه وينتسب في الرمي اليه فلم يفعل فلامه بعضهم على ذلك فقال « يكفيني نحرأ انه ليس في الدنيا أحد لا يرمي للخليفة الا انا »^(٣)

وكان لرمي البندق شأن كبير في العصور الاسلامية الوسطى بالعراق والشام ومصر وقارس وغيرها . وخط البندقيين بالقاهرة ينسب الى صناعة اقواس البندق^(٤) ثم قطنوا في رمي البندق بالمزاريق او الاناييب بضغط الهواء من مؤخر الانبوب بما يشبه

(١) ابن الاثير ٩٠ جزء ٣ (٢) الاطفي ٩٣ جزء ٢٠ (٣) ابن الاثير ٢٠٢ جزء ١٢ و ابو الفداء ١١٩ و ١٤٢ جزء ٣ وابن خلدون ٥٣٥ جزء ٣ (٤) المقرئ ٣١ جزء ٢

اناييب البنادق . فلما اخترعوا البارود صاروا يرمون البندق به من تلك الاناييب وسموا هذه الآلة بندقية نسبة اليه . ومن قبيل رمي البندق رمي النشاب في البرجاس وهو غرض في الهواة او على رأس رمح أو نحوه يطلبون اصابته بالنشاب وهي لعبة فارسية اول من لعبها من الخلفاء الرشيد

ومما يدخل في الالعب والملاهي لعبة الشطرنج وهي هندية الاصل أخذها العرب عن طريق الفرس وأول من لعبها من الخلفاء الرشيد أيضاً وهو أول من لعب التردكا تقدم ولا تزالان هاتان اللعبتان شائعتين الى اليوم

— — — — —

٩ — ارتباط السباع

وكان من ملاهي الخلفاء والملوك ارتباط الاسود والفيلة والنور لاثبات الهيبة في قلوب الرعية واول من اهتم بذلك بنو العباس فكان المنصور كثير العناية في جمع الفيلة لتعظيم الملوك السالفة اياها وكان للرشيد اقفاص فيها الاسود والنور وغيرها (١) وغالى الذين جاؤا بعده باقتنائها واقتناء الكلاب والفردة ونحوها — ذكروا انه كان عند ام جعفر زوج الرشيد قرد يخدمه ثلاثون رجلاً وكانوا يلبسونه لباس الناس ويقلدونه السيف واذا ركب ركبوا في خدمته واذا دخلوا عليه قبلوا يده . فجاه يزيد بن مرثد يوماً الى ام جعفر ليودعها قبل سفره فاتوا اليه بالقرد وامروه أن يقبل يده فشق عليه ذلك وجرد السيف وقطعه نصفين وانصرف فبعث اليه الرشيد وعاقبه فقال « يا امير المؤمنين أبعد أن اخدم الخلفاء اخدم القروء لا والله ابداً » فعفا عنه (٢)

وما زال شأن الخلفاء واهلهم على ذلك حتى تولى المهدي وكان يشبهه بعمر بن عبد العزيز بالتقوى والزهة فامر بقتل السباع التي كانت في القصور وطرد الكلاب ولكن ذلك المنع لم يدم طويلاً . فلما مات المهدي عادوا الى المغالة في اقتناء السباع حتى ارتبطها بعضهم في مجلسه . فقد كان عضد الدولة بن بويه اذا جلس على سريره احضرت الاسود والفيلة والنور في السلاسل وجملت في حواشي مجلسه تهويلاً بذلك على الناس وترويعاً لهم (٣)

وقس على ذلك سائر دول المسلمين في مصر والاندلس وغيرها فقد كان لخماريه بن احمد بن طولون دارخانة بالسباع عمل فيها بيوتاً بأزاج كل بيت يسع سبعة أو لبوءته وعلى

(١) العقد الفريد ١٥٠ ج ١ (٢) تاريخ طبرستان لابن اسفنديار ترجمه ادورد برون الى الانكليزية صفحة ٤٥ (٣) الفخري ٢٠

تلك البيوت ابواب تفتح من اعلاها بحركات ولـكل بيت منها طاق صغير يدخل منه الرجل الموكل بخدمة ذلك البيت يفرشه بالرمل . وفي جانب كل بيت حوض من رخام بميزاب من نحاس يصب فيه الماء . وبين يدي هذه البيوت قاعة فسيحة متسعة فيها رمل مفروش بها وفي جانبيها حوض كبير من رخام يصب فيه ماء من ميزاب كبير . فاذا أراد سائس سبع من تلك السباع تنظيف بيته او وضع وظيفة اللحم لغذائه رفع الباب بحيلة من أعلى البيت وصاح بالسبع فيخرج الى العاعة المذكورة فيرد الباب وينزل الى البيت من الطاق فيكنس الزبل ويبدل الرمل بغيره مما هو نظيف ويضع الوظيفة من اللحم في مكان . معد لذلك بعد ما يخص ما فيه من الغدد ويقطعه له ويفسل الحوض ويملاؤه ماء ثم يخرج ويرفع الباب من اعلاه وقد عرف السبع ذلك خالما يرفع السائس باب البيت يدخل اليه الاسد مياً كل ما هيء له من اللحم حتى يستوفيه ويشرب من الماء كفايته . فكانت هذه البيوت مملوءة من السباع . ولهم اوقات تفتح فيها فتخرج السباع كلها الى القاعة وتشمش فيها وتمرح وتنعب وبها رش بمضها بعضاً فتيقيم يوماً كاملاً الى العشي فيصيح بها السواس فيدخل كل سبع الى بيته لا يتخطاه الى غيره

وكان من جملة هذه السباع سبع ازرق العينين يقال له زريق قد أنس بخمارويه وصار مطلقاً في الدار لا يؤذي احداً ويقام له بوظيفته من الغذاء كل يوم . واذا نصبت مائدة خمارويه اقبل زريق معها وربض بين يديه فيرمي اليه الدجاجة بعد الدجاجة والفضلة الصالحة من الجدي ونحو ذلك مما على المائدة فيتفكك به . وكانت له ابوءة لم تستأنس كما انس هو فكانت مقصورة في بيت ولها وقت معروف يجتمع معها فيه . فاذا نام خمارويه جاء زريق ليحرسه فان كان قد نام على سرير ربض بين يدي السرير وجعل يراعيه ما دام نائماً وان نام على الارض بقي قريباً منه وتفتن لمن يدخل ويقصد خمارويه لا ينقل عن ذلك لحظة واحدة . وكان على ذلك دهره وقد افه ودرب عليه وكان في عنقه طوق من ذهب . فلا يقدر احد ان يدنو من خمارويه ما دام نائماً لمراعاة زريق له وحراسته اياه ^(١)

وتطرف آخرون في اقتناء الحيوانات حتى الهوام والحشرات فالوزير جعفر بن خنزابه احد وزراء المقتدر بالله العباسي كان يهوى النظر الى الحشرات من الافيحي والحيات والعقارب وام اربعة واربعين وما يجري هذا الجرى وكان في داره بمصر قاعة لطيفة مرسخة فيها تلك الحيات بالسلال ولها قيم وفراش وحاو يستخدمون برسم نقلها وحطها وكان كل حاو بمصر يصيد ما يقدر عليه من الحيات ويتعاونون في ذوات المعجب

من اجناسها وفي الكبير والغريب منها وهو يذيقهم على ذلك اجل ثواب ويبذل لهم المال الجزيل . وكان له وقت يجلس فيه على دكة فيدخل المستخدمون والخواة فيخرجون ما في تلك السلال ويطرحونه على ذلك الرخام ويحرشون بين الهوام وهو يستعجب من ذلك ويستحسنه (١)

وكانت لهم عناية في تربية الحيوانات الداجنة ايضاً كالغزلان والقماري واشباهها يجعلونها في حظائر واقفاص مخصوصة عليها قوام يخدمونها (٢)

واجتمع عند العزيز الفاطمي صاحب مصر من غرائب الحيوانات ما لم يجتمع عند غيره وذكروا بينها العنقاء ؟ قالوا « وهو طائر جاء من سميد مصر في طول البلاشون وأعظم جسماً منه له غبب ولحية وعلى رأسه وقاية وفيه عدة ألوان ومشابهة من طيور كثيرة » (٣)

واتخذ الخليفة الناصر الأموي في مدينة الزهراء محلات للوحوش والسباع واسعة الأرجاء متباعدة السياج ومسارح للطيور مظلة بالشباك كالأقفاص الكبيرة (٤)

وهناك ألعاب آخر تتعلق بالحيوانات كسمكة كانت للأمين مقرطة صيدت له وهي صغيرة فقرطها بمقلتين من ذهب فيهما حبتا در . وكلعب الحمام وتطيره والعب بالكباش والديوك للمناطحة والمهارشة وغير ذلك مما لا يحل لذكره

(تم الجزء الخامس وهو آخر أجزاء الكتاب والحمد لله)

(١) فوات الوفيات ١٠٥ ج ١ (٢) المسعودي ٢٦٠ ج ٢ وابن الأثير ٦٦ ج ٨
(٣) ابن خلكان ٢٦٧ جزء ١ (٤) نفح الطيب ٢٧٤ جزء ١

فهرس الجزء الخامس

صفحة		صفحة	
٤٤	العامة سكان المدن	٣	المقدمة
٤٨	اخلاق العامة	٨	خريطة بغداد
	الآداب الاجتماعية		نظام الاجتماع
٥٠	مناقب العرب الجاهلية		طبقات الناس قبل الاسلام
٥٣	المرأة في الجاهلية	٩	طبقات الناس في الشام والعراق
٥٥	العصر الاسلامي العربي	١٣	» » » مصر
٥٦	عصر الراشدين	١٤	» » » افريقية
٥٧	عصر الامويين	١٥	» » » فارس
٦٠	المرأة في العصر الاموي	١٦	» » » العرب الجاهلية
	عصر العباسيين	١٧	نظام الاجتماع في عصر الراشدين
٦٥	المرأة في العصر العباسي	١٨	» » » الامويين
٦٦	الارتزاق بالسخاء		نظام الاجتماع في العصر العباسي
٧٢	المجاملة في المعاملة	٢٠	طبقات الخاصة واتباعهم
٧٤	العائلة في التمدن الاسلامي	٢٢	الارقاء
٧٤	الحجاب	٢٦	التحصين
٧٥	تعدد الزوجات	٢٨	الجواري
٧٦	الطلاق		الطبقة الاولى من العامة
	المعيشة العائلية	٣٢	اهل الفنون الجميلة
٧٧	الطعام	٣٣	المغنون
٧٨	اللباس	٣٧	العلماء والادباء والفقهاء
٨١	المأوى	٣٧	التجار
	مضارة المملكت	٤١	الصناع
	عمارة المدن والقصور		الطبقة الثانية من العامة
٨٣	القطر المصري	٤٣	المزارعون اهل القرى

صفحة	أبنة المرونة	صفحة	الاندلس
١٢٦	مجالس الخلفاء	٨٧	مباني الامويين في الشام
١٣٣	» الادب والشعر	٨٩	» العباسيين بالعراق
١٣٧	» المناظرة والعلم	٩٠	» الامويين في الاندلس
١٣٨	» الغناء والانس	٩٢	» مصر
١٣٩	مواكب الخلفاء	٩٦	الثروة والرخاء ونتائجهما
١٤٢	احتقالاتهم	١٠٠	التأنيق في الطعام
١٤٦	الخلفاء والدول المعاصرة	١٠٢	البذخ في الالبسة
١٥٠	العاب الخلفاء وملاهيهم	١٠٤	الاناث والرياش والمجوهرات
١٥٤	ارتباط السباع	١١٣	التسري
١٥٩	جدول اسماء الكتب	١١٥	السعاه
١٦٥	فهرس أبجدي عام	١٢٢	المسكر
		١٢٤	التهتك

اصلاح خطأ

جاء في الجزء الرابع صفحة ٥٦ سطر ٩ « عبد الملك بن مروان » صوابها « عبد الملك بن صالح » وينبغي حذف العبارة من قوله « وكان اشدهم بطشاً » الى « في اجمة »

جدول أسماء الكتب

وهي المؤلفات التي وردت أسماؤها في هوامش صفحات هذا الكتاب مرتبة على حروف الهجاء مع أسماء مؤلفيها وسني طبعها وأما كتبه — وهي غير مارجعنا اليه في التحقيق من القواميس والموسوعات العربية والفرنجية ونحوها

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
الآثار الباقية عن القرون الخالية	للبيروني	ليبسك سنة ١٨٧٨ م
الأدب السلطانية (الفخري)	لابن الطفطقي	مصر ١٣١٧ هـ
أبجد العلوم ٣ اجزاء	لصديق القنوجي	الهند ١٢٩٦ هـ
ابن الاثير	(انظر الكامل)	
« الجوزي	(كتاب الاذكياء)	
« حوقل	(المسالك والممالك)	
« خرداذبه	(» »)	
« خلدون	(العبر والمبتدا والخبر)	
« خلكان	(وفيات الاعيان)	
« الساعي	(مختصر أخبار الخلفاء)	
« عساکر	(تاريخ دمشق)	
« الفقيه	(كتاب البلدان)	
« هشام	(السيرة النبوية)	
أبو الفرج الملطى	(مختصر الدول)	
« المحاسن	(النجوم الزاهرة)	
الاتليدي	(اعلام الناس)	
أحسن التفاضيم في معرفة الاقاليم	للمقدسي	ليدن ١٨٢٦ م
الاحكام السلطانية	لماوردي	مصر ١٢٩٨ هـ
اخبار الدول وآثار الاول	للقرمانى	بغداد ١٢٨٢ هـ
أدب الدنيا والدين	لماوردي	بهامش الكشكول
الاستقصا في المغرب الأقصى ٤ اجزاء للسلاوي		مصر ١٣١٢ هـ
أسد الغابة في اخبار الصحابة ٥ اجزاء لابن الاثير		مصر ١٢٨٦ هـ
الاصطخري	(المسالك والممالك)	

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
اعلام الناس	الانليدي	مصر ١٣١٨ هـ
الاغانى ٢٠ جزءا	لابي الفرج الاصفهاني	بولاق ١٢٨٥ هـ
الافادة والاعتبار	لعبد اللطيف البغدادى	مصر ١٢٨٦ هـ
الف باء جزآن	يوسف البلوى	مصر ١٢٨٧ هـ
البخاري	(صحيح البخاري)	
بغية الطالبين في علوم وعوائد المصريين	لاحمد بك كمال	بولاق ١٣٠٩ هـ
البلاذري	(فتوح البلدان)	
بلوغ الارب في أحوال العرب ٣ أجزاء	للألوسي	بغداد ١٨٩٨ م
البيان والتبيين جزآن	للجاحظ	مصر ١٣١٣ هـ
البيروني	(الآثار الباقية)	
تاريخ أبي الفداء ٤ أجزاء	للك المؤيد	الاستانة ١٢٨٦ هـ
« الأمم والملوك ١١ جزءا	للطبري	ليدن ١٨٨٥ م
« دمشق	لابن عساكر	(خط)
« المشاركة	لصليبا بن يوحنا	(خط)
« الوزراء	لأهلل الصابي	بيروت ١٩٠٤ م
تحذير المسلمين	محمد ظافر	مصر ١٩٠٤ م
تراجم الحكماء	لابن القفطي	(خط)
ترتيب الدول	للحسن بن عبد الله	بولاق ١٢٩٥ هـ
تزيين الاسواق	لداود الانطاكي	مصر ١٣٠٨ هـ
تهذيب الاسماء	للنوي	جوتنجن ١٨٣٢ م
الجبرتي	(عجائب الآثار)	
حسن المحاضرة في مصر والقاهرة جزآن للسيوطي		مصر ١٢٩٩ هـ
حلبت الكميت	لشمس الدين النواجي	مصر ١٢٦٩ هـ
حياة الحيوان الكبرى جزآن	للدميري	مصر ١٣٠٩ هـ
الحراج — كتاب	لابي يوسف	بولاق ١٣٠٢ هـ
» »	لقدامة بن جعفر	ليدن ١٣٠٦ هـ
الخطط انتوفيقية ٢٠ جزءا	لملي باشا مبارك	بولاق ١٣٠٦ هـ

اسم المؤلف	اسم الكتاب	مكان طبعه وسنته
للمقرزي	خطط مصر جزءان	بولاق ١٢٧٠ هـ
للديار بكري	الخمس جزءان	مصر ١٣٠٢ هـ
(حياة الحيوان)	الدميري	
للحسن بن هاني	ديوان أبي نواس	مصر ١٨٩٨ م
لابن بطوطة	رحلة ابن بطوطة جزءان	مصر ١٢٨٧ هـ
لابن جبير	رحلة ابن جبير	لندن ١٨٥٢ م
لابي بكر الخوارزمي	وسائل الخوارزمي	الاستانة ١٢٩٧ هـ
للطرطوشي	مراج الملوك	على هامش مقدمة ابن خلدون
	سلسلة التواريخ	بمصر ١٣١١ هـ
لسليمان وأبي زيد	السيرة الحلبية ٣ أجزاء	باريس ١٨١١ م
لابن برهان الدين	سير الملوك	مصر ١٣٠٢ هـ
لعبد الرحمن الاربلي	السيرة النبوية ٣ أجزاء	بيروت ١٨٨٥ م
لابن هشام	السيوطي	بولاق ١٢٩٥ هـ
(حسن المحاضرة)	شعراء السريان	
للقرطاجي	الشعر والشعراء	رومية ١٨٧٥ م
لابن قتيبة	الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية	لندن ١٩٠٢ م
لطاشكبري زاده	الشهرستاني	على هامش ابن خلكان
(الملل والنحل)	صحيح البخاري ٤ أجزاء	
للإمام البخاري	طبقات الأطباء جزءان	مصر ١٣٠٤ هـ
لابن أبي أصيبعة	» الادباء	» ١٨٨٢ م
لعبد الرحمن الانباري	» ابن سعد	» ١٢٩٤ هـ
لابن سعد	طغر بردي	(خط)
(النجوم الزاهرة)	العبر والمبتدا والخبر ٧ مجلدات	بولاق ١٢٨٤ هـ
لابن خلدون	عجائب الآثار ٣ أجزاء	على هامش ابن الاثير
للجبرتي	» المخلوقات	على هامش الدميري
للقرويني	ليقد الفريد ٣ أجزاء	مصر ١٣٠٥ هـ
لابن عبد ربه		

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
العقد الفريد	للملك السعيد	مصر ١٢٨٣ هـ
فتوح البلدان	للبلاذري	لیدن ١٨٦٦ م
الفخري	(الآداب السلطانية)	
الفرج بعد الشدة جزءان	للتونخي	مصر ١٩٠٣ م
الفلاحة النبطية	لابن وحشية	(خط)
الفهرست	لابن النديم	ليدسك ١٨٧٢ م
فوات الوفيات جزءان	لابن شاكر الكتبي	مصر ١٢٨٢ هـ
قاموس الادارة والقضاء ٧ أجزاء	لفيليب جلاد	مصر ١٨٩٠ م
القانون	لابن سينا	رومية ١٥٩٣ م
القبه الزرقاء	للدكتور فانديك	بيروت ١٨٩٣ م
قدامة	(الخراج)	
القرماني	(أخبار الدول)	
القزويني	(عجائب المخلوقات)	
القوانين العقارية	للحكومة المصرية	مصر ١٨٩٣ م
الكامل ١٢ جزءاً	لابن الاثير	» ١٣٠٢ هـ
الكامل	للمبرد	» ١٢٨٦ هـ
كتاب الاذكياء	لابن الجوزي	» ١٣٠٦ هـ
» الاعتبار	لابن منقذ	لیدن ١٨٨٤ م
» البخلاء	للجاحظ	مصر ١٣٢٤ هـ
» البلدان	لابن الفقيه الحمذاني	لیدن ١٨٨٥ م
» »	لليعقوبي	» » »
» الحيوان ٣ أجزاء	للجاحظ	مصر ١٣٢٤ هـ
كشف الظنون جزءان	لكاتب جلبي	الاستانة ١٣١١ هـ
الكشكول	للعاملي	مصر ١٣٠٥ هـ
لطائف المعارف	للعالي	لیدن ١٨٦٧ م
اللمعة الشهية في اللغة السريانية	للمطران يوسف داود	الموصل ١٨٧٩ م
المواردي	(الاحكام السلطانية)	

اسم الكتاب	اسم مؤلفه	مكان طبعه وسنته
مجمع الامثال جزءان	للميداني	بيروت ١٣١٢ هـ
مختصر اخبار الخلفاء	لابن الساعي	بولاق ١٣٠٩ هـ
» الدول	لابي الفرج الملطي	بيروت ١٨٩٠ م
مروج الذهب جزءان	للمسعودي	مصر ١٣٠٤ هـ
المزهر جزآن	للسيوطي	بولاق ١٢٨٢ هـ
المسالك والممالك	لابن حوقل	ليدن ١٨٧٣ م
» »	لابن خرداذبه	» ١٣٠٦ هـ
» »	للاصطخري	» ١٨٧٠ م
المستطرف جزءان	للابشيبي	مصر ١٣١١ هـ
المسعودي	(مروج الذهب)	
مشكاة المصابيح	لولي الدين العمري	دهلي ١٣١٠ هـ
المعارف	لابن قتيبة	مصر ١٣٠٠ هـ
معجم البلدان ستة اجزاء	لياقوت الحموي	ليبسك، ١٨٧٠ م
مفتاح السعادة	لطاشكبري زاده	(خط)
المقدسي	(احسن التقاسيم)	
المقري	(نفح الطيب)	
المقريزي	(خطط مصر)	
المال والتحل جزءان	للاشهرستاني	لندن ١٨٤٢ م
الموطأ	للالمام مالك	(خط)
الميداني	(مجمع الامثال)	
ميزانية مصر لسنة ١٩٠٢	للحكومة المصرية	بولاق ١٩٠٣ م
النجوم الزاهرة جزءان	لابي المحاسن	ليدن ١٨٥١ م
نفح الطيب ٤ اجزاء	للمقري	بولاق ١٢٧٩ هـ
نهاية الارب في قبائل العرب	للقلقشندي	(خط)
الهداية	برهان الدين الفرغاني	لكهنو ١٣١٤ هـ
الهمداني	(كتاب البلدان)	
وفيات الاعيان ٣ اجزاء	لابن خلكان	مصر ١٣١٠ هـ
البعقوبي	(كتاب البلدان)	

Gibbon's Roman Empire.	London	. . .
Bretschneider's Knowledge Possessed by ancient chinese of the Arabs	"	
Poter's Constitutional History of Turkey.	Ms.	
Lane Poole's Mohammadan Dynasties.	London	1894
Statesman's Year book.	"	1904
Williams' Sanskrit Crammar.	Oxford	1876
Browne's Literary History of Persia	London	1902
Frazer's " " " India	"	1898
Rawlinson's Ancient Monarchies, 4 Vol.	"	1862
Whitaker's Almanack.	"	1901
Browne's Translations of Ibn Isfandiyyar's History of Tabaristan.	Leyden	1905
Library of Universal History, 8 Vol.	New York	1897
Clot Bey. Aperçu sur l'Egypte, 2 Vol.	Paris	1840
Labourt, Christianisme dans l'Empire Perse	"	1904
Revue Archéologique	"	1905
Van Vloten, La Domination Arabe etc. sous le khalifat des Omayyades.	Amsterdam	1894
Von Kremer, Einnahmebudget des abbass. Wien		1887
" " Culturgeschichte des Orients. 2 Vol.	Wien	1875

رسائل شبلي النعماني في اللغة الهندستانية طبعت في علي كده بالهند سنة ١٨٩٨ م

فهرس ابجدي عام

يشمل ما حواه هذا الكتاب في اجزائه الخمسة من المواضيع الهامة مرتبة على احرف الهجاء

صفحة جزء	أحد . واقعتها	صفحة جزء	١
١ ٤٦	أحد . واقعتها	٥ ٥٠	الآداب الاجتماعية في الاسلام
٢ ٨٧	أخماس المعادن . ضريبة	٣ ١٣١	آداب اللغة السريانية
٣ ١٧٤	أخوان الصفا . جمعية	٣ ١٢٩	» » الفارسية
٣ ٧٧	الادب والادباء	٣ ١٣٣	» » الهندية
٥ ٦٦	الارتزاق بالسخاء	٣ ١١٥	» » اليونانية
٥ ٥٢ و ٤	الاربحية عند العرب ٢٨ : ٤ و ٥٢	٥ ١٠	الآراميون
٣ ١٢٠	ارسطو ومؤلفاته	١ ٤٦	ابن ابي سلول
١ ١٩٣	الاساطيل الاسلامية	٢ ٥٩ و ٥٠	ابن خرداذبة قائمته
٤ ١٨	الاستلحاق في الجاهلية	٢ ٥١ و ٤٧	» خلدون »
٥ ٥٢	استقلال الفكر عند العرب	٤ ٧٧	» الزبير . بنخله
٢ ١٦١	الاسرار في الدولة العباسية	٤ ٢٦	الابناء الاحرار في الجاهلية
٥ ٢٣	الامرى . كثرهم	٥ ١٢٥	ابهة الدولة
١ ٣٠	الاسلام . الدعوة اليه	١ ٥٣	ابو بكر . اسلامه
١ ٤٤	» انتشاره	٢ ١٢	» زهده
٥ ١٤٦	» والدول المعاصرة	٤ ٣٧	» سياسته
٥ ١٤٨	» في أوروبا	٢ ١٦	ابو ذر الغفاري . تقيه
٥ ١٤٦	» في تاريخ الصين	١ ٥٠ و ٤٥	ابو سفيان في الجاهلية
٣ ٤٧	» والرومان والعلم	١ ٣١	ابو طالب عم النبي
٣ ٣٨	» والعلوم الاسلامية	٥ ٢١	اتباع الخاصة
٣ ٣٣	اسواق العرب في الجاهلية	٤ ١٦٦ و ١٠١ و ٢٠١	الأتراك الاجناد ٣١ و ١٠١ و ٢٠١
١ ٢٦	الاشناق . من مصالح الكعبة	٤ ١٦٧	» دولهم في ظل العباسيين
٥ ١٥٨	اصلاح خطأ	٥ ١٠٤	الاناث والرياش والمجوهرات
٣ ٥٧	الاعجم . النفط	٥ ١٤٢	الاحتفالات في الاسلام
٩ ١٤٣	الاعراس . احتفالاتها		

صفحة جزء

٤	٥٣	أمية وهاشم . تنازعهما
٥	١١ و ١٧	الانباط قبيلة عربية
٢	٣٥	الاندلس . جبايتها
٣	١٠٩	» . شعرها
٥	٨٧	» . عمرانها
٥	١١٢	الاندلسيون . بذخهم
٤	٢٠٦	» . سياستهم
٥	٩٢	» . مبانيهم
٤	١١ و ٣٦	انساب العرب
٤	١٦٢	الانساب . اختلاطها بعد الاسلام
٣	٨١	الانشاء . بلاغته
٣	١٣	الانواء . علم في الجاهلية
٥	٢١	اهل البيوتات في الدولة العباسية
٤	١٠٨ و ٩٦	اهل الذمة في العصر الاموي
٤	١٢٩	» في العصر العباسي
١	٢٦	الايثار في الجاهلية
٢	١٢٥	الايثار في الخراج
٤	١٩١	الايويون . دولتهم
		ب
٢	١٤٢	بابك والافشين . حربهما
١	١٨٠	البارود . العرب اخترعوه
١	٤٥	بدر . غزوتها الكبرى
٤	٩	البدو والحضر في الجاهلية
٥	١١٧	البرامكة . سخاؤهم
٤	١٤٧	البرامكة . مرتبتهم في الدولة
٤	١٥١	» . نكبتهم
٥	١٥٤	البرجاس . الرمي فيه
١	١١٥	البردة النبوية

صفحة جزء

٢	٨٦	اعشار السفن . ضريبة
١	٢٦	الاعنة . من مصالح الكعبة
٥	١٤٨	الافرنج . هداياهم للخلفاء
٢	١٤٢	الافشين وبابك . حربهما
٣	١٢٠	افلاطون . فلسفته
١	٢١٨	الاقطاع في الاسلام
٤	١٩٠	الاكراد ودولتهم في ظل العباسيين
٢	١٢٢	الالاء في الخراج
٥	١٥٠	العاب الخلفاء
١	١٣١	امارة الاستكفاء
١	٢٦	الاموال المحجرة في الجاهلية
٤	١٥	الامومة في الجاهلية
١	٧٥ و ٧٠	الامويون . دولتهم
٤	٦٤	» . آثارهم في الاسلام
		» . الاداب الاجتماعية
٥	٥٧	في عصرهم
٤	٨٢	» . استخفافهم بالدين
٤	٧٨	» . استكثارهم للمال
٤	٥٢	» . انتقال الخلافة اليهم
٥	١٠٢	» . بذخهم
٤	٥٦	» . رغبتهم في السيادة
٥	٨٩	» . مبانيهم
٥	١٨	» . نظام الاجتماع في أيامهم
١	٨٥	» . في الاندلس
٤	٩٦	» . واهل الذمة
٢	١٨	» . والثروة
١	١٣٦	امير الامراء . رتبته
٤	١٤٣	الامين والمأمون . تنازعهما

صفحة جزء		صفحة جزء	
٦١	التشبيب . تاريخه	٢٢٠	البريد . تاريخه
٨٠	التطبيب في التمدن الاسلامي	٨٧	بسر بن اوطاة وقتل الاطفال
٧٥	تعدد الزوجات عند المسلمين	١٠٠	البصرة . بنائها
٩	التمدن . حقيقته	١٧٠	» . ثروتها
٤٢	التناسل . الاستكثار به	٧٥	البطائح قرب البصرة
١٨٥	التنجيم في الاسلام	١٠٠	بنداد . بناؤها
١٢٤	التهتك	١٧٥	» . ثروتها
٩٠	التواريخ العامة . كتبها	٨	» . خريطتها
٢٣٧	التوقيع	١٥٣	البندق . الرمي به
٨٢	توقيعات الخلفاء		بنو أمية (انظر الامويين)
٢٢٥	تيمورلنك . ظهوره		بنو سليم وبنو هلال . هجرتهم
ث		٤٤	للغرب
٥٣	الثار من مناقب العرب	١٤٣	بوران . زفافها الى المأمون
١٠	ثروة الدولة الاسلامية	١٨٦	البويهيون . دولتهم
٣٣	» العباسية	١١	بيت المال . اصابه
١٠٥ و ١٠٠	» . انحطاطها	٢٠٢	» . تاريخه
	الثروة والرخاء في التمدن		» . تصرف الامويين به
٩٨	الاسلامي	١٠٩	بيعة الخلفاء . شروطها
١٦٥	ثروة المملكة الاسلامية	٣٠	البيعة والعرب . تأثيرهم فيها
١٩٠	الزهور والعواصم	١٤٩	» النفقة عليها
ج		ث	
١٨٣	الجاهلية في الدولة العباسية	٣٧	التاريخ في الجاهلية
١٥١	جالينوس . كتبه	٨٦	» كتبه في الاسلام
٣١	الجامعة الاسلامية	٣٧	التجار في التمدن الاسلامي
٣٢	الجامعة العربية	٧٢	التحكيم بين علي ومعاوية
٧٠	الحياية . مصادرها	٩١	التراجم والمعجمات العربية
٧١	» . سبب كثرتها	١٧٣ و ١٧٢	الترس . اشكاله
١٨	حياية الدولة امام الامويين	١١٣	التمري في عصر الرخاء

صفحة جزء

٥	٨٣	حضارة المملكة الاسلامية
١	٢٦	الحكومة في الجاهلية
٥	١٥١	الحلبة
٤	١٧	الحلف في الجاهلية
٥	٩٥	الحمرأ . قصر في غرناطة
٣	٤٩	حملة العلم في الاسلام العجم
٥	١٥٤	الحيوانات تربيتها عند الخلفاء
		خ
١	١١٥	الخاتم في الخلافة
٥	٢٠	الخاصة طبقاتهم في العصر العباسي
٥	٢٢	الخدم في نظام الاجتماع
٤	١٧٣	» نفوذهم في الدولة
٥	٥٥١ و ٣٠	خديجة زوج النبي
١	٢١١	الخراج . اصله وتاريخه
٢	١٨	» ايام الامويين
٥	١١٥	الخلفاء . سخاؤهم
٥	١٣٣	» . صرف جلسائهم
٥	١٢٦	» . مجالسهم
٥	١٢٨	» . مجالستهم
٥	١٥٠	» . ملاهيهم
٥	١٣٩	» . مواكبهم
٣	١٦٧	» . والامراء والعلم
٥	١٤٦	» . والدول المعاصرة
٥	١٥٤	» . وتربية السباع
١	٥٣	» . الراشدون
٣	١١١	» . والشعراء
		» والعلماء المسلمون
٥	١٣٤ و ٧٣ : ٣ و ١٩٥ : ٤ و	

صفحة جزء

٢	٤٧	جباية الدولة أيام العباسيين
٢	» »	» في عصر الاحتطاط ١٠٥
١	٦٧	جيلة بن الايم
٣	١٩٢	الجبر والحساب في الاسلام
١	٦٤	الجراجمة
٢	١١٨ و ٨٨ و ١٨	الجزية . اصلها
١	٢٠٨	» تاريخها
٤	٨٠	» والاسلام
٣	٩٥	الجغرافية . كتبها ومؤلفوها
١	١٤١	الجند . اصله وتاريخه
٤	١٦٧	الجند التركي في الدولة العباسية
٢	١٤٢ و ١ : ١٥٥	الجند . روايته
٤	٢٩	الجوار في الجاهلية
٥	١١٥	الجواري . أثمانهم
٢	١٢٧	» والغلمان
٥	٢٨	» في نظام الاجتماع
		ح
٢	١٣٩	حاشية الخليفة . روايتهم
١	٢٨	الحبشة . سطوهم على الحجاز
٢	١٦٢	الحجّاب . ثروتهم
٥	٧٤	حجاب النساء
١	٢٤٤	الحجابه . وظيفة
٣	٦٦	الحديث وضعه واسناده وعدده
٣	٥٦	الحركات في الخط العربي
٤	١٣٨	حرية الدين في الدولة العباسية
		الحساب والجبر والهندسة في
٣	١٩٢	الاسلام
١	٢٣٣	الحسبة . وظيفة

صفحة جزء		صفحة جزء	
١ ٥٤	الردة أيام أبي بكر	٣ ١٦٠	الخلفاء والعلماء غير المسلمين
٤ ١٥١	الرشيد والشيعة	٥ ٣٥	» والفناء
١ ٢٥	الرفادة . من مصالح الكعبة	٤ ١٦٤	» الهيجناء
٤ ٤٦	الرق في الاسلام	٥ ١٩	الخليفة في نظام الاجتماع
٤ ٢٠	» » الجاهلية	٥ ١٥٥	خارويه . سبائه
١ ١٧٢	الرماح . اشكلها	١ ٤٧	الخندق . واقعته
٢ ٢٠	الرهبان والحزبة	٤ ١٥	الخوالة في الجاهلية
٢ ١٤٢ و ١٥٥	رواتب الجنند	د	
٢ ١٣٤	» الموظفين	٣ ٢٠٦	دار الحكمة . مكتبة
١ ٣٦	الروم عند ظهور الاسلام	٥ ٩١	» الشجرة . قصر
٣ ١٥٣	الرياضيات والنجوم . كتبها	١ ١٩٩	» الصناعة للاساطيل
ز		٢ ٨٩	» الضرب . غلها
٥ ٩٤	الزاهرة . قصر في قرطبة	١ ٢٣٢	» العدل
٨٨ و ١٠٣ و ٢٠٢ : ١	الزكاة	١ ١٧٦	الدبابة . سلاح
٤ ٨٠ و ٢ : ١١٨		١ ١٧٣	الدرع . شكلها
٣ ٨٠	الزنبور والنحلة . مسألة	١ ٧٦	دهاء العرب
٥ ٩٣	الزهراء . قصر في قرطبة	٤ ١٩٢	الدين والسياسة في الاسلام
٥ ٧٥	الزوجات . تعددهن في الاسلام	١ ١٥٤ و ١٠٤	الديوان للجنند
س		١ ٢٣٥	ديوان الانشاء
٥ ١٥٤	السباع . ارتباطها عند الخلفاء	١ ٢٣٠	» المظالم
٥ ١٥١	السباق	٢ ٩٥	» الحكومات
٣ ٨٥	السجع في الانشاء	د	
٥ ٥١	السخاء عند العرب	٥ ٥٦	الراشدون والاداب الاجتماعية
٥ ٦٦	السخاء من أبواب الارزاق	١ ٧٤	الراشدون . عصرهم
٢ ١٢٩	» والخلفاء	٥ ١٧	» ونظام الاجتماع
٥ ١١٥	» في عصر الحضارة	٣ ٧٢	الرأي والقياس
١ ٢٥	السدانة من مصالح الكعبة	١ ١٦٥	الراية . أشكلها واحوالها
١ ٢٦	السفارة في الجاهلية	٥ ٩٩	رجال الدولة . زوتهم

صفحة جزء	صفحة جزء
٤ ١١٥ الشيعة العباسية	١ ٢٥ السقاية في الجاهلية
٤ ١١٣ » العلوية	٣ ١١٩ سقراط . فلسفته
٤ ١٥١ » » والرشيد	١ ١١٨ السمكة (النقود) في الاسلام
٤ ٢١١ » » في المغرب ومصر	٤ ١٨٧ السلاجقة . دوائهم
ص	١ ١٣٩ السلطان . لقب
الصدقة (راجع زكاة)	١ ٤٧ سلمان الفارسي
٤ ٢٠٨ الصقالبة . استخدامهم	٢ ٨١ و ٧٥ السواد . ثروته
الصناع والصناعة في المدن	٣ ١٤٦ السوريون ونقل العلم
٥ ٤١ الاسلامي	٤ ١٩٢ السياسة والدين في الاسلام
٥ ١٥٢ الصولجان والكرة . لعبة	٤ ١٤٠ سياسة التقسيم في الدولة العباسية
٥ ١٥٠ الصيد والقنص	١ ١٧٠ السيف من السلاح
٣ ١٨١ الصيدلة في الاسلام	ش
ض	١ ٩٥ شارل مارتل الفرنسي
٢ ١٢٤ الضياع السلطانية	٥ ٥١ الشجاعة من مناقب العرب
ط	١ ٢٣٤ الشرطة
٣ ١٣٧ و ١٧٧ الطب في الاسلام	٥ ٤٦ الشطار . من رعاى المدن
٣ ١٩ » في الجاهلية	٥ ١٥٤ الشطرنج . لعبة
٣ ١٥١ » . كتبه	١ ١٩٠ الشعار للجنود
٣ ١٠٦ طبقات الشعراء	٣ ١٠٨ الشعراء واشعارهم في الاسلام
٤ ٣٥ » عربية اسلامية	٣ ٣٩ » . القاهم
٣ ٨٩ الطبقات والمغازي	٥ ١٣٥ » . تقديمهم عند الخلفاء
٥ ٩ طبقات الناس في الشام والعراق	٥ ١٢٠ » . السخاء عليهم
٥ ١٣ » في مصر وغيرها	٣ ١٠٢ الشعر ودول الاسلام
١ ١٢٤ الطراز . اصله وتاريخه	٣ ٢٢ » والشعراء في الجاهلية
١ ٢٤٥ الطرق الصوفية . مشيختها	٣ ٢٢ » العبراني
٥ ٧٧ الطعام العربي . تاريخه	٣ ١١٧ » اليوناني
٥ ١٠٠ » . التأنيق فيه	٤ ١٤٤ الشعوية والعرب
٥ ٧٦ الطلاق في الاسلام	٥ ٥٣ الشيخوخة عند العرب

صفحة جزء		صفحة جزء	
٢ ١٤	عثمان بن عفان والمال	٥ ٩٦	الطولونيون . مبانهم
٤ ٣٨	» » . سياسته	ع	
٤ ٢٢٦	العثمانيون . دولتهم	١ ٢٩	تام الفيل
٣ ١٦	العرفاة . عند العرب	٥ ٢٨	العامة . اخلاقهم
٤ ٤٠ و ٣٣	العرب . انتشارهم في الارض	٥ ٦٩	» . استرضائهم بالطعام
١ ٢٣	» . حكومتهم في الجاهلية	» . طبقاتهم في العصر	
٢ ٣٠	» . والبيعة	٥ ٣١	العباسي
١ ١٠	» . والتمدن	٥ ٢٣	العامة اهل القرى
١ ١٩	» . الجاهلية	٥ ٢٤	» سكان المدن
٣ ٩	» . وجزييرتهم	٥ ٧٤	العائلة في التمدن الاسلامي
١ ١٦٠	» . ذهاب دولتهم	١ ٨٢	العباسيون . اصل دعوتهم
٥ ٦٧	» . سنتهم في الارتزاق	٢ ٢٨	» . سبب قيامهم
٤ ١٤٤	» . والشعوية	» . الاداب الاجتماعية	
٥ ١٦	» . طبقات الناس عندهم	٥ ٦٤	بمصرهم
٤ ٢٠٢	» . عصرهم الثاني في الاسلام	٤ ١١٣	» . انتقال الخلافة اليهم
٣ ١٣٤	» . والعلوم الدخيلة	٥ ١٠٢	» . بذخهم
٤ ١٥٧ و ٢	» . والفرس ١٠٠ : ٢	٤ ١٢٠	» . سياستهم
٣ ٤٠	» . والقرآن والاسلام	٤ ١٧٩	» . فساد الاحكام عندهم
٤ ٥٦	» . وقريش	٥ ٩٠	» . مبانهم
٥ ٥٠ و ٤	» . ومناقبهم ٢٨ : ٤	٥ ١٤٠	» . مواكبهم
٤ ٦١	» . والموالي	٥ ١٩	» . نظام الاجتماع عندهم
٤ ٦٠	عصية العرب على المعجم	٤ ١٦١	» . والاسرار
٤ ١٠	العصية العربية قبل الاسلام	٤ ١٢٩	» . واهل الذمة
٤ ٥٦	» » . في عصر الامويين	١ ٧٧	عبد الملك بن مروان
٤ ١٤٠	» » » . العباسيين	٤ ٢٠	العبيد في الجاهلية
٥ ٥١	» » من مناقب العرب	٥ ٤٧	» . من رعا اهل المدن
٤ ٦٥	» . الوطنية	٥ ٢٢	» . في نظام الاجتماع
١ ٢٥	العقاب من مصالح الكعبة	١ ٧٠	عثمان بن عفان

صفحة جزء		صفحة جزء	
١ ١٩٢	الفرزوات	٣ ٣٤	عكاظ . سوق الادب
٢ ١٢٧	الغلمان . من الخدم	٥ ٣٧	العلماء والفقهاء
٥ ٣٣	الفناء . تاريخه في الاسلام	٣ ٧٣	العلماء والخلفاء
١٠٤	الفنائم . شروطها واحكامهما	٣ ٥١	العلم . تدوينه في الاسلام
١ ٢٠٥ و		٤ ٣٩	علي بن ابي طالب . مناقبه
ف		٤ ٧٧	» » . تدقيقه
٤ ٢١١ و ١ : ٨٧	الفاطميون . دولتهم	٢ ١٣	» » . والمال
٥ ١٠٩	» . بذخهم	٤ ١٥٨	علي رضا والفضل بن سهل
٥ ٩٧	» . مبانهم	١ ٢٦	العمارة من مصالح الكعبة
	الفتك والبطش في العصر	٥ ٨٣	عمارة المدن في الاسلام
٤ ٨٥	الاموي	٢ ١١٩	العمال . استئثارهم بالجباية
١ ٥٧	الفتوح الاسلامية . اسبابها	٢ ١٥٩	» . ثروتهم
٥ ١٥٣	الفتوة . سراويلها	٢ ١٩	» . جورهم
٤	انقرس . دولهم ١٢٥ و ١٨٥	٢ ١٣٤ و ١ : ١٣٤	» . روايتهم
٥ ١٥	» . طبقات الناس عندهم	٢ ٨٩	» . صدقهم
١ ٣٦	» . عند ظهور الاسلام	٢ ٤٥	» . علاقتهم بالخلفاء
٢ ١٠٠	» . والعرب	٤ ٧٩	عمال بني أمية . ظلمهم
٢ ١٧٣	القسطنطين . عمراتها	٤ ٣٨	عمر بن الخطاب . سياسته
٤ ١٥٨	الفضل بن سهل وعلي رضا	٢ ١١	» » . زهده
٣ ٧٠	الفقه . مصدره والفقهاء	٤ ١٠٤	» » . مناقبه وعهده
٣ ١٧٦	فلاسفة الاندلس	٢ ١١	» » . وديت المال
٣ ١٤٩	الفلسفة والادب . كتبهما	٢ ٢٤ و ١ : ٨٠	عمر بن عبد العزيز
٣ ١٣٩ و ١٣٤	» . في الاسلام	٤ ٧١	عمرو بن العاص . دهاؤه
٣ ١١٨	» . عند اليونان	٤ ١٠٠	عهد عمر لنصارى الشام
٥ ٣٢	الفنون الجميلة في الاسلام	٤ ٩٩	العهد النبوي للنصارى
١ ٢٠٦	الفي . احكامه	٥ ٤٥	العيارون طائفة من العامة
ق		غ	
٥ ٨٧	القاهرة . عمراتها	٥ ٨٨	غرناطة . عمراتها

صفحة جزء	صفحة جزء
الكعبة ومصالحها في الجاهلية	القبة في الكعبة ٢٦ ١
١ ٢٤ و ٢٢	القتل على التهمة ١٢٠ ٤
٣ ١٠ العرب	القحطانية . تمدنهم ١٠ ١
الكهانة والسكان في جزيرة	قدامة بن جعفر قائمته ٥٤ و ٥٠ ٢
٣ ١٦ العرب	القرآن . جمعه وتدوينه وقراءته ٥٩ ٣
الكوفة . عمرانها ١٧٢ ٢	» والعرب والاسلام ٤٠ ٣
٣ ١٨١ السكيمياء في الاسلام	قرطبة . عمرانها ٨٧ ٥
ل	القرى . ثروتها ١٦٨ ٢
٥ ٧٨ اباباس . تاريخه في الاسلام	قريش . عصبيتهم ٥٦ ٤
٥ ١٠٢ » . البنذخ فيه	» والتجارة ٢٣ ١
٤ ١٨٣ اللصوصية . فتواها	» في الجاهلية ٢١ ١
١ ١٦٥ انالواء . اشكاله واحكامه	قصر التاج وقصر الزيا ٩٠ ٥
م	القصر الكبير بقرطبة ٩٢ ٥
١ ١٥ مأرب . سدّها	القضاء . تاريخه واحكامه ٢٢٥ ١
٣ ١٨٣ المارساتانات في الاسلام	القضاء . روايتهم ١٣٧ ٢
٤ ١٨٢ المال . ابتزازه في آخر الدولة	القوس من السلاح ١٦٩ ١
٢ ١٤ » . اختزانه	القيادة في الكعبة ٢٥ ١
٤ » . استكثار الامويين منه ٧٨ ٤	القيافة . عند العرب ١٨ ٣
٤ ٧٣ » »	ك
٢ ١٠٣ و ١٠٧٧ المال والدولة	الكبش . آلة حرية ١٧٧ ١
٢ ١٠٢ المأمون . مناقبه	الكتابة . ادواتها ٥٨ ٣
٣ ١٣٩ » والفلسفة والمنطق	الكتب المنقولة عن الفارسية ١٥٤ ٣
٥ ٨١ المأوى عند العرب	» » » النبطية
٥ ٨٩ المباني في الاسلام	وغيرها ١٥٨ ٣
٣ ٣٢ مجالس الادب في الجاهلية	الكتباب . ثروتهم ١٦٢ ٢
» » والشعر في الاسلام	» . روايتهم في الحرب ١٣٦ ٢
٥ ١٣٣	الكراديس ١٨٤ ١
٥ ١٢٦ مجالس الخلفاء	الكرة والصولجان . لعبة ١٥٢ ٥

صفحة جزء		صفحة جزء	
٤ ١٦٧	المعصم والاراك	٥ ١٣٧	مجالس المناظرة
١ ١٨٩	معسكر اسلامي	٥ ٧٢	المجاملة في المعاملة
٥ ٣٣	المغنون والغناء . تاريخهما	٥ ١٣٩	المجانون والمضحكون
٥ ١٢٥	» . السخاء عليهم	١ ٣٠	محمد النبي . ظهوره
٤ ٢١٨	المغول . دولتهم	٢ ٢٨	المختار بن أبي عبيد
١ ٥٨	المغيرة بن شعبة	٥ ٤٧	المختنون
٣ ٢٠٢	المكاتب الاسلامية وكتبها	٣ ١٩٦	المدارس في الاسلام
٤ ٢٢	المكاتب في العتاق	٤ ٦٦	المدن الاسلامية . تعصبها
٣ ٤١	مكتبة الاسكندرية . احراقها	٢ ١٦٩ و ١٦٥	» » . ثروتها
٣ ١٢٣	» » ومدرستها	٥ ٨٣	» » عمارتها
١ ٥٠	مكة . فتحها	٥ ٥٣	المرأة في الجاهلية
١ ٢٠	مكة في الجاهلية	٥ ٥٦	المرأة في عصر الراشدين
٢ ٨٨	المكوس والمراد	٥ ٦٠	المرأة في عصر الامويين
٥ ١٥٠	ملاهي الخلفاء	٥ ٦٥	المرأة في عصر العباسيين
٤ ٢٠٩	ملوك الطوائف بالاندلس	٢ ٨٨	المراد والمكوس
٥ ٩٧	الممالك . مبانيهم	٣ ١٨٧	المراد وآلاتها في الاسلام
١ ٩٨	المملكة الاسلامية . احصائها	٢ ٨٩	المستغلات . ضرائب
١ ٩٣	» » . أعمالها	٥ ٩٢	مسجد قرطبة
٢ ٣٦	» » . جغرافيتها	٥ ١٢٢	المسكر في الاسلام
٤ ١٨٤	» » العباسية . تشييدها	١ ٢٥	المشورة من مصالح الكعبة
٢ ٧١	» » . مساحتها	٤ ١٥٨ و ٢ و ١٨٠	المصادر
٣ ١٢	منازل القمر عند العرب	٢: ٨٣ و ٧٧ و ١٠١ و ١٠	مصر . عمراتها
١ ١٧٤	المنجنيق . آلة حربية	٥ ٨٣ و	
٤ ١٢١	المنصور . سياسته	٥ ٩٦	مصر . مبانيها
٤ ١١٦	» نكته بيعة العلويين	٥ ٣٢	المصورون
٢ ٣٣	» وثروة الدولة	١ ٧٢	معاوية بن أبي سفيان . ظهوره
٣ ١٣٦	» والنجوم والطب	٤ ٦٩	معاوية بن أبي سفيان . سياسته
٢ ٣٤	المهدي وثروة الدولة	٤ ٥٤	معاوية بن أبي سفيان وعلي

صفحة جزء

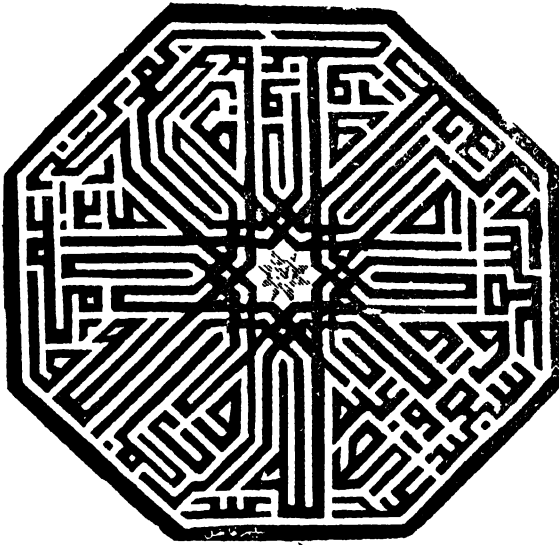
٤	١٣٢	النصارى . تحاسدهم
٤	١٠٥	نصارى الشام وقصر الروم
٥	٩	نظام الاجتماع قبل الاسلام
٢	٦٣	نفقات الدولة العباسية
١	٢٤٥	النقابة في الاسلام
٣	١٤١	نقلة العلم في العصر العباسي
١	١١٨	النقود الاسلامية . تاريخها
١	٢٧	النهضة العربية قبل الاسلام
٥	٢٠	الهاشميون . مراتبهم
١	٣٨	هرقل قيصر الروم
١	٨١	هشام بن عبد الملك
٤	٢٢٤	هولاكو وسقوط بغداد
٥	٥٣	الوآد . اسله وحقيقته
١	١٣٥	الوزارة . تاريخها واجكامها
١٥٤		الوزراء . ثروتهم ومصادرهم
٢	١٦	و
٥	١٤٤	» . الخلع خليم
٢	١٣٦	» . روايتهم
٤	١٤٦	» . الفرس في الدولة العباسية
٥	٥٢ و ٤	الوفاء عند العرب
١	١٢٨	الولايات او الاعمال
١	١١٤	ولي العهد
١	٨١	الوليد بن يزيد
		ي
١	٣٥	يثرب . المدينة
١	٦٥	اليرموك . واقعتها

صحيفة جزء

٥	١٣٩	موالك الخلفاء
٤	٤٦	الموالي في الاسلام
٢	٢٨ و ١٨	» في ايام بني امية
٤	٢٢	» واحكامهم في الجاهلية
		» » في عصر
٤	٩١	الامويين
٤	٦١	» والعرب
٣	٩٣	المؤرخون . عيوبهم
		الموسيقى في الاسلام ١٦٨ : ١
٣	١٩٤ و	
١	١٠٥	موظفو الدولة الاسلامية
٢	٩١	» » بمصر
١	٥١	المؤلفة قلوبهم والنبي
٣	١٧٠	المؤلفون والمؤلفات
٣	١٥	الميثولوجيا عند العرب
		ن
١	١٧٩	النار اليونانية
٣	١٨١	النبات . علمه في الاسلام
٥	٥٩	النجدة والاربحية ايام بني امية
٥	٥٢	» عند العرب
٣	١٥٣	النجوم . كتبها
		» علمها في الاسلام
٣	١٨٥ و ١٣٦	
٣	١٠	النجوم عند العرب
٣	٧٤	النحو . وضعه وتاريخه
١	٢٥	الندوة . دارها في الكعبة
٥	١٥٤	النرد . لعبة
٤	١٧٦	النساء وسياسة الدولة

صفحة جزء	صفحة جزء	
٤ ٥٨	١ ٨٠	يزيد بن عبد الملك
١ ٦٧ و ٤٢	١ ٤١	اليعاقبة . اصلهم
		اليمنية والمضرية . احزابهم
		اليهود والروم

﴿ تمَّ الفهرس العام ﴾



اسماء الجلالة والنبي والصحابة

